

كانوا شعوتها

بالموت





كان وأخواتها

**مشاهد حية من
تاريخ مصر الحديث**

**تأليف
جمال بدوي**

الطبعة الاولى
اكتوبر ١٩٨٦

رسوم الغلاف بريشة الفنان نسيم
خطوط الغلاف بقلم : محمود ابراهيم
حروف الجمع على اجهزة الجمع التصويرى بالوفد
الطبع على ماكينات مؤسسة انترناشيونال برس

إهداء

إلى روح الزعيم

مصطفى النحاس

تحية عرفان من مصرى عاشق لوطنه ..
إلى روح الزعيم الذى أفنى عمره فى خدمة وطنه ..
ثم غادر الدنيا - كما دخلها - طاهرا من الرجس .

هذا الكتاب بقلم محمد فؤاد سراج الدين رئيس الوفد

قرأت هذا الكتاب مرتين ، المرة الأولى على حلقات أسبوعية في باب « كان وأخواتها » في صحيفة الوفد الذى يحرره الأستاذ جمال بدوى مؤلف هذا الكتاب وذلك على مدى خمسة وسبعين أسبوعاً متتالية ، والمرة الثانية بعد أن جُمعت هذه الحلقات فى ملازم وأعدت للطبع . وكانت متعتى بالقراءة الثانية لا تقل عن متعتى الأولى بها ، وذلك لطرافة الموضوعات التى انتقاها المؤلف من تاريخ مصر الحديث بدءاً من عهد محمد على إلى عهد الثورة وكذلك للأسلوب الشيق الذى عرف به جمال بدوى .

وقد عالج المؤلف الموضوعات التى تناولها فى كتابه من زاوية جديدة لم تعرفها الصحف من قبل ونجح تماماً فى أن يتلافى الجمود الذى يصاحب دائماً الموضوعات التاريخية .

ولاشك أن هذا الكتاب قد أدى خدمة جليلة لشباب هذا الجيل إذ عرفه بالكثير من تاريخ بلاده وسير زعمائه ، الأمر الذى تعتمد المسئولون تجهيله به فى معاهد العلم لأسباب سياسية معروفة .

ان ما اقترفه هؤلاء المسئولون فى حق الشباب
المصرى يعتبر جريمة لا تغتفر لابد ان يحاسبوا عليها
اشد الحساب .

لقد وفق الاستاذ جمال بدوى فى اختيار عنوان كتابه ،
عندما وصفه بانه « مشاهد حية من تاريخ مصر
الحديث » . كما وفق فى إعادة الحياة إلى هذه الأحداث
القديمة التي مر عليها عشرات السنين ونسيها الناس
وإن كان معظمهم يجهلونها أو يجهلون معظمها لأن احدا
من الكتاب - قبل جمال بدوى - لم يهتم بعرضها
والتعليق عليها .

إن هذا الكتاب إثراء جديد للمكتبة المصرية كانت فى
اشد الحاجة اليه ويذكر لصاحبه بالفضل ويزيد من
فضله مواصلته لكتابة هذه الحلقات ، فالقارئ ايا كان
شيخا أو شابا فى اشد الحاجة إليها . وإنى واثق بأن
هذه الدراسات الشيقة ستؤدى غرضها فى تنوير
المواطن المصرى بتاريخ بلاده وحياة العظماء من رجال
مصر الأوفياء بعد أن أزال عنهم جمال بدوى غبار
الجهود والتجهيل ، وكشف عن جهادهم النبيل فى سبيل
مصر الخالدة .

● مقدمة ●

بين يدي القارئ

هذه مشاهد من تاريخ مصر الحديث يسعدني أن أضعها بين يدي القارئ الكريم لكي ينتفع بها وتساعد على تفسير أمور كثيرة تجرى من حوله ، فانا لم اكتبها بهدف تسلية القارئ أو الترويح عنه ، ولكن بهدف إزعاجه حتى يعرف نفسه ، وعندما أمسكت بالقلم لأكتب هذه المشاهد فإنني ما تخيلت نفسي شاعرا بربابة يحكى لرواد مقهاه أمجاد أبي زيد الهلالي ومغامرات الزناتي خليفة .. ولا تخيلت نفسي مدرسا يلقي تلاميذه معلومات محفوظة عن عظمة خوفو وهو يبني الهرم الأكبر .. أو شجاعة أحمس وهو يطارد الهكسوس في قفار آسيا .. ولكنني عرفت نفسي واحدا من أبناء هذا الشعب الطيب الصبور ، حمل على صدره أحجار الهرم وارتفع بها مداما فوق مدماك ، وحمل على كتفه القوس والسهم والسيف والبندقية وسار خلف تحوتمس ورمسيس وصلاح الدين وقطز وبيبرس ومحمد علي .. وأمسك الفأس ليشق ترعة المحمودية والابراهيمية والاسماعيلية ليعم الرخاء والنعاء أرض مصر .. ثم حفر قناة السويس ليربط الغرب بالشرق دون أن يعي أنه سيكون هدفا للغرب والشرق .

لم يكن همي عند كتابة هذه المشاهد تسجيل أمجاد الملوك والخلفاء والولاة الذين حكموا مصر ، فكتب التاريخ تفيض - والحمد لله - بهذه المعلومات ، ولكن كان همي هو البحث عن أثر هذه الأحداث القديمة في المصريين المحدثين ، لإيماني بأن تاريخ مصر حلقات طويلة متماسكة ، وأن أحداث اليوم هن بنات الأمس ، ولاقتناعي بأن أحداث التاريخ تجرى بقوة دفع مطرد .. فكل حادث يملك في داخله عوامل ذاتية تدفع به إلى الامام فيتولد منه حادث جديد مشابه له في الشكل ولكنه يخالفه المحتوى والمضمون ..

وهكذا .. تسير - دوما - عجلة التاريخ ، ومن هنا تبطل المقولة المشهورة بأن التاريخ يعيد نفسه .. فهي مقولة تخالف طبيعة الأشياء ، وتناقض حركة الحياة التي تسير في خط مطرد نحو الأمام .. ولو تخيلنا أنها تسير نحو الوراء لكان شأنها شأن عقارب الساعة إذا دارت في عكس الاتجاه المتعارف عليه منذ اخترعت الساعة ..

وأنا حينما أنظر إلى الشقاء الذي عاناه أجدادنا المصريون وهم يحملون أحجار الهرم ، فلا أقول إن التاريخ يعيد نفسه حين أراهم وهم يحفرون ترعة المحمودية أو قناة السويس رغم أن الشقاء واحد في الحالين ، ولكن الحالة النفسية التي كان عليها المصري مختلفة : فهو في الأولى تحرك بدافع العقيدة التي تتحدث إليه عن قدسية الملك ، أما في الثانية فقد تحرك بدافع من الكبراج .! فلو وصفت ذلك بمقولة إن التاريخ يعيد نفسه ، لكان معنى ذلك أن الزمان ثابت لا يتحرك .. وأن المصريين متجمدون .. أو متحركون على إيقاع «مَحَلَّك سِرْ» وهو إيقاع يقضى على الكائن الحي بالضمور والانقراض . وهناك بالطبع ، شعوب تجمدت حركتها فانقرضت ، والتاريخ يدلنا على أمم لحقتها لعنة الفناء فباتت مجرد ذكرى ، ولكن هذا السلوك لا ينطبق على المصريين الذين عاشوا على ضفاف النيل منذ آلاف السنين ، واستطاعوا أن يقاوموا عناصر الفناء ، ومن هنا نشأت خصيصة التواصل التاريخي عند المصريين ، وهي خصيصة لا تتمتع بها أمم كثيرة معاصرة ، فأنت حين تتحدث عن الجزر البريطانية أو فرنسا أو إسبانيا أو المجر .. لا تستطيع أن تحقق وجود ظاهرة التواصل التاريخي في تلك البلاد .. ولا تستطيع أن تقول إن الشعوب التي تعيش الآن فوق هذه الأراضي هي أحفاد الشعوب التي كانت موجودة قبل ميلاد المسيح ، ذلك أن هذه البلدان تعرضت لموجات هجرة عنيفة من جانب القبائل الجرمانية والمغولية فغلبت على الشعوب الأصلية حتى أزاحتها وقضت عليها .

● ولكن .. برغم الهجرات والغزوات العديدة التي تعرضت لها مصر ، فقد حافظ المصريون على تماسكهم وترابطهم ووحدتهم

الاجتماعية والسياسية ، فالعقيدة قد تتغير ، ويتبدل الدين ، ويتحول اللسان ، ولكن يبقى المصريون محافظين على نقاء سريرتهم ومعدنهم .. وعاداتهم وتقاليدهم .. ولا أقول نقاء عنصرهم ، لأن نظرية نقاء العنصر نظرية رجعية فاسدة ، وإذا صحت بالنسبة للشعوب المغلقة التي تعيش في أدغال إفريقيا أو فيافي آسيا أو على حافة المحيط المتجمد .. فإنها لا يمكن أن تصبح على شعب يشغل قلب العالم ، وتتفتح بحاره وصحاريه على كل الاتجاهات الأربعة .. فقد كان أمرا مقضيا أن يختلط بشعوب أخرى ، بل أقول إن هذا الاختلاط كان من عوامل بقائه ، فقد اكتسب العنصر المصرى - إن صح هذا التعبير - صفات وراثية قوية على النحو الذى يعرفه علماء الأجناس والسلالات ، وهذه الميزة حُرمت منها العناصر المتعجرفة التى عاشت فى مصر أسيرة نقاء العنصر ، فذوت وضعفت حتى انقرضت ، وأنت تستطيع أن تجد ذلك إذا بحثت عن أحفاد العناصر التركية المتغطرة التى استوطنت مصر ولكن بمعزل عن شعبها ، ولم يسمح لها غرورها واستعلاؤها بالتزاوج من الفلاحين المصريين ، فلن تجد لهم ذكرا ، على عكس القبائل العربية التى اختلطت وامتزجت فكتبت لنفسها البقاء .

وهذه الخصيصة التى يتمتع بها التاريخ المصرى - خصيصة التواصل والاستمرار - هى التى جعلتنى أفسر أمورا معاصرة بأحداث قديمة ، وخصوصا عندما يتطرق الأمر إلى العلاقة الجدلية بين الحاكم والمحكومين ، عندئذ يكون من اليسير تفسير هذه القضية فى ضوء معطياتها المباشرة ، ويكون من الواجب تأصيلها تاريخيا وربطها بالظروف العملية التى حثمت قيام سلطة مركزية تشرف على توزيع مياه الرى على زراع الأرض .. ثم احترام الزراع لهذه السلطة وخضوعهم لما تصدره من قوانين وأنظمة .. فنشأ عن ذلك مولد الحكومة المستبدة التى تفرض سلطانها بقوة القهر ، ثم قبول الناس لهذا الاستبداد لأنه مرتبط باستمرار الحياة ودوام النماء .. وعلى هذا فإنه يصعب الفصل بين المشاهد والأحداث المتشابهة من تاريخ مصر حتى لو باعدت

بينها آلاف السنين ، ورغم أنني أضع بين دفتي هذا الكتاب مشاهد متناثرة من تاريخ مصر الحديث ، إلا أنني أدعو القارئ الكريم إلى أن يكمل بنفسه بقية المشوار ، فيُنقّب في بطون الكتب عن أصول هذه المشاهد وجذورها المدفونة في تربة مصر منذ فجر التاريخ الانساني ، عندئذ سوف تكتمل أمامه أجزاء الصورة ، وتتصل حلقات السلسلة التي اشترت إليها في صدر هذا الحديث . عندئذ يعرف المصري نفسه .. ويجد الجواب عن كثير من الأسئلة الحائرة التي تتراحم بها أحداث اليوم .. وهذا هو الهدف الرئيسي من إعداد هذا الكتاب .

تبقى بعد ذلك ملحوظة .. فسوف يجد القارئ الكريم أنني أهملت ذكر المصادر والمراجع ، وهي مسألة يهتم بها كتاب التاريخ ، وكان من السهل أن أفعل ذلك .. ولكنني وجدت ذلك سيبدو عملاً مظهرياً ، فما أسهل أن أسجل أسماء مئات الكتب التي رجعت إليها .. ولكنني لم أفعل لأنني لا أكتب رسالة جامعية تحتم عليّ ذكر مصدر الحدث ، ولكنني أقدم تحليلاً للحدث نفسه .. ولذلك تغافلت عن ذكر المصدر إذا كان الأمر يتعلق بالأحداث ، لأنها ملك للجميع ، وذكرها مشاع في عديد من الكتب ، ولكنني تعمدت ذكر المرجع حين كان الأمر يتعلق برأي أو وجهة نظر تفسر الحدث نفسه ، أو تستخلص منه نتيجة بعينها .. فهي ملك لصاحبها وحده .

● وفاء و عرفان ●

وفي ختام هذا التقديم فإن واجب الوفاء يقتضي أن أتقدم بالعرفان لكل المؤرخين والباحثين والكتاب الذين رصدوا تاريخ مصر بعين فاحصة ، فقد أفدت منهم وتعلمت على أيديهم الكثير . كما أتقدم بخالص التقدير والاحترام للأستاذ الكبير محمد فؤاد سراج الدين زعيم حزب الوفد الذي جاء إصراره وجلده وإيمانه عاملاً مؤكداً في عودة حزب الوفد إلى الساحة السياسية بعد فترة ركود دامت ثلاثين عاماً ، وكان ظهور جريدة «الوفد» فرصة

ذهبية لظهور هذه المشاهد على صفحاتها الغراء . ومن ثم كانت
مثار مناقشات مثمرة بينى وبين هذا الزعيم الذى يحفظ فى ذاكرته
وعقله أدق الأسرار عن مرحلة زمنية تشغل نصف القرن .
ويسعدنى أن أقدم امتنانى إلى أخى وصديقى وزميلى مصطفى
شردى رئيس تحرير «الوفد» الذى أتاح لهذا الباب التاريخى
«كان وأخواتها» أن يحتل مكانا مرموقا على صفحاتها منذ
عدها الأول . كما لا يفوتنى أن أشيد بملاحظات الأصدقاء
والأخوة الذين لم يبخلوا على عبارات التشجيع التى كان لها
أبلغ الأثر فى تقويم هذه المشاهد وإظهارها فى أكمل صورة .
وأرجو الله أن يمدنى بعونه حتى أستطيع مواصلة الرسالة التى
أحملها بين جنبى تجاه بنى وطنى .. إنه سميع مجيب .

جمال بدوى

مصر الجديدة أكتوبر ١٩٨٦

عنزة السيدة نفيسة

بات

المجتمع المصرى ، خلال العصرين المملوكى والعثمانى نهبا للخرافات والخزعبلات والاساطير التى كانت تنسجها عقول خبيثة تستغل سذاجة الناس وضحالة وعيهم وتستنزف ما فى جيوبهم وقد استيقظت القاهرة ذات صباح على قصة خرافية تزعم ان عنزة صعدت فوق مئذنة مسجد السيدة نفيسة رضى الله عنها واخذت تكلم الناس وتحضهم على فعل الخيرات وتحذرهم من ارتكاب الموبقات وتطورت القصة بعد ان تناقلتها السنة العوام فاضافوا اليها بعض التوابل والمشهيات واكتملت لها عناصر الاثارة والتشويق واستقرت القصة فى الشارع المصرى على النحو التالى كما رواها الجبرتي :

كان بعض الجند المصريين قد وقعوا اسرى الحرب فى بلاد الفرنجة ، وذات يوم اشتروا عنزة ليذبحوها فى مجلس الذكر الذى عقده قريانا الى الله كى يفك اسرهم ويعيدهم الى ديارهم ، ولكن الحارس القائم على امرهم ابى عليهم ذلك واستولى على العنزة ومضى بها الى بيته . فلما اوى الى فراشه رأى فى منامه رؤيا مزعجة فادرك على الفور ان العنزة مباركة ، فلما اشرق الصباح اعاد العنزة الى الجند ثم اطلق سراحهم وزودهم ببعض المال كى يستعينوا به على الرجيل الى بلادهم ، فاستقلوا مركبا الى مصر ومعهم العنزة المباركة ، فلما بلغوا القاهرة ذهبوا من فورهم الى مسجد السيدة نفيسة وقضوا ليلتهم بجوار ضريحها وفى الصباح وجدوا العنزة قد اعتلت المنارة وسمعوها تكلم الناس ، وكان للمسجد خادم ذكى اسمه الشيخ عبداللطيف ادرك الفائدة العظمى التى ستعود عليه من ترويج قصة العنزة فاشاع بين رواد المسجد ان السيدة نفيسة خاطبته من مقصورتها واوصته بالعنزة خيرا ، وذاعت الخرافة بين اهل القاهرة فتوافدوا على المسجد لرؤية العنزة والتبرك بها والتبرع لها بما تجود به اريحيتهم وانفتح باب الرزق الرغيد امام الشيخ عبداللطيف فوضع تسعيرة محددة لكل درجة من درجات القرب من العنزة ادناها الرؤية المجردة واعلاها المسح على جسمها والحصول على بركاتها ، وانهالت الهدايا والنذور على الشيخ عبداللطيف فكان يخبرهم بان العنزة لا تاكل الا قلب اللوز والفسق ولا تشرب الا ماء الورد

المحلى بالسكر المكرر ، فيحمل الناس اليه اطنانا من هذا وذاك حتى تكدست لديه اكوام من اطيب الطعام والشراب ، وبلغت القصة مسامع الاميرات وزوجات الكبراء والقادة فكن يتسابقن إلى صنع القلائد الذهبية والاقراط والاساور ويبعثن بها الى الشيخ عبداللطيف ليزين بها جسد العنزة المباركة .



وكان الامير عبدالرحمن كتحدا من اشد الامراء حزما وحسما واكثرهم وعيا ورفضاً لهذه الخزعبلات فارسل الى الشيخ عبداللطيف يرجوه ان يتعطف بزيارته في قصره وبصحبته العنزة حتى يتمكن اهل بيته من رؤيتها والتماس البركة منها ، وسعد الشيخ عبداللطيف بهذه الدعوة التي ستفتح امامه قصور الامراء والكبراء .. وحدد يوما لهذه الرحلة الميمونة فتجمع ارباب الطرق الصوفية في موكب مهيب لمصاحبته من مسجد السيدة نفيسة الى قصر الامير كتحدا المجاور لمسجد احمد بن طولون وامتطى الشيخ عبداللطيف بغلته وحمل العنزة في حجرة تحيط به الاعلام والبيارق وتتقدمه الطبول والزمور .. وتهادى الموكب عبر شوارع الصليبية وسوق السلاح والناس يتجمعون من كل انحاء القاهرة لرؤية العنزة المباركة وهي تتربع في دهشة من هذا الحشد الغريب ولا تدري شيئا مما يدور حولها حتى اذا بلغ الموكب باب القصر نهض الامير هو وضيوفه من العظماء والوجهاء لاستقبال العنزة المباركة ، واستاذن الامير في ان تمضي العنزة الى جناح الحريم فرحب الشيخ عبداللطيف واعطاه العنزة فحملها الخدم الى المطبخ حيث انهالت عليها سكين الجزار فذبحتها وسلختها وتسابق الطباخون الى سلقها وتحميرها ، بينما اتخذ الشيخ عبداللطيف مكانه في صدر المجلس يروى للامراء مزيدا من الخرافات عن كرامات العنزة .



وحان موعد الغداء فامر كتحدا بعمد السباط ، فدخل الخدم يحملون اطباق الفتة تعلوها هبر من اللحم الشهي .. وانهالت ايدي الامير وضيوفه تنهش اطيب اللحم .. وبين الحين والحين كان الامير يحث الشيخ عبداللطيف على تناول المزيد من اللحم قائلا : كل ياشيخ عبداللطيف هذه القطعة السمينة .. فيلتهمها

الرجل ممقنا .. والأمرء من حوله يتغامزون ويكتمون ضحكاتهم ،
حتى فرغوا من الطعام وشرب القهوة فنهض الشيخ عبداللطيف
مستأذنا في الانصراف ومعه العنزة . فقال له الامير عبدالرحمن ..
أى عنزة تقصد ؟
فقال خادم المسجد : العنزة المباركة التى دخلت جناح
الحريم !
فقال الامير : العنزة لم تدخل جناح الحريم مطلقا .. ولكنها
دخلت بطنك ياكاذب .. يافاجر .. يافاق .. وهذا دليل على ضلالك
المبين .



وبهت الرجل من هول المفاجأة التى وقعت على رأسه
كالصاعقة .. وحاول الافلات بجلده .. ولكن الامير أمسك بخنقة
وامر مماليكه بضربه ستين عصا على رجليه .. ثم امر بجلد العنزة
فطرحه على عمامته وطاف به الجند شوارع القاهرة ليكون عبرة
لغيره من الأفاكين والنصابين الذين يحتالون على الناس
بالاساطير التى تستغل عواطفهم الدينية .. والدين منها براء .

ياخفى الأخطاف

فى

الثانى والعشرين من اكتوبر ١٧٩٨ انطلقت اول قنبلة من المدافع الفرنسية المثبتة فى حصون القلعة ، فسقطت فى صحن الأزهر

وتناثرت شظاياها ففتكت بالجموع التى احتشدت فيه ، ثم توالى سقوط القنابل حتى اوشكت جدران الجامع أن تتداعى على الاشلاء الممزقة والجثث المتراكمة . وكان وابل القنابل يتساقط من اعلى القلعة فيدمر الاحياء المجاورة للجامع العتيق ، ويحيلها ركاما ، وكان الأزهر فى حد ذاته هدفا مطلوبا ، فمنه انطلقت جذوة الثورة على الحملة الفرنسية ، وإلى رحابه لجا الثائرون ، فاصبح بؤرة للوطنية المتأججة الى جانب كونه معقلا للعلم والدين . وكانت القلعة ، منذ بناها صلاح الدين الأيوبي على التلال المشرفة على العاصمة ، حصنا عسكريا منيعا ، هدفه حماية القاهرة من تهديدات الغزو الصليبي على الحدود الشرقية ، وربطها بحزام من الاسوار والابواب الضخمة التى لاتزال بقاياها قائمة عند بوابة الفتوح وبوابة المتولى وباب النصر وفم الخليج .. ولكن القلعة لم تستخدم ابدا فى تحقيق الهدف العسكرى الذى انشئت من اجله ، ولم تفلح القلعة مرة واحدة فى صد الغزاة الذين توافدوا على مصر ، بدءا بالجيش العثمانى ، ومرورا بالحملة الفرنسية ، وانتهاء بالقوات البريطانية التى زحفت على القاهرة بعد اخمد الثورة العربية وهزيمة الجيش المصرى فى التل الكبير .. !! فيم اذن فائدة القلعة ..

● ● ●

لقد استقر فى عرف المؤرخين الذين رصدوا تاريخ القلعة ، أنها لم تكن أكثر من حصن منيع لحماية حكام مصر ، وقمع الشعب اذا فكر فى التمرد او العصيان .. فالقاهرة بحكم موقعها على راس الصعيد وعند مفترق الدلتا ، هى مفتاح الحكم فى مصر ، من يملكها يملك مصر كلها ، ومن يملك القلعة يملك القاهرة ، وكانت الفجوة القائمة بين القلعة والقاهرة على اتساع الفجوة القائمة بين الحكام الغرباء والمحكومين المغلوبين على امرهم ، فالقلعة تقف فى عليائها وقفة الشموخ والتحدى .. بينما العاصمة ترقد فى

سلامة وطمأنينة على ضفة النيل وبين أحضان الروابي الخضر
التي تحيط بها .. تكد وتكدح ثم تنام ملء جفونها وحكامها لا
ينامون .. عيونهم دائما مفتوحة على المجهول .. وترصد كل
مايجرى فى الأزقة والحوارى المكدسة تحسبا لما يخبؤه الغد .
ولقد أدت القلعة الغرض الحقيقى منها .. ووفرت عنصر الأمان
لحكام مصر على تعاقب الأجيال .. منذ الأيوبيين والمماليك
والعثمانيين حتى أبناء محمد على .. كلهم عاش فى حصونها ..
واحتمى بقلعها .. واستعلى على شعبها .. فلا يهبط الى المدينة
إلا مضطرا .. وكان اول الهابطين هو الخديو اسماعيل بعد أن بنى
قصر عابدين وجعله مقرا رسميا للحكم ، اما نابليون فقد أدرك
المهمة الحقيقية للقلعة ، فمنذ دخوله القاهرة بدا فى ترميم
أبراجها ، وتدعيم حصونها استعدادا لليوم الموعود ..



ولقد اتى اليوم المرتقب ، عندما ثارت القاهرة على الفرنسيين ،
فلم يتورع نابليون عن صب نيرانه الحامية على الجامع الأزهر
وماجاوره من احياء مكتظة بالاهالى .. يقول الجبرتى فى وصف
هذه المذبحة : « فلما سقط عليهم ذلك وراؤه ، ولم يكونوا فى
عمرهم عاينوه ، نادوا ياسلام من هذه الآلام ، ياخفى اللطاف نجنا
مما نخاف ، وهربوا من كل سوق ودخلوا فى الشقوق ، وتتابع
الرمى من القلعة والكيهان حتى تزعزعت الاركان ، وهدمت فى
مرورها حيطان الدور ، وسقطت فى بعض القصور ، ونزل فى
البيوت والوكائل ، واصمت الأذان بصوتها الهائل .. وبعد هجعة
من الليل ، دخل الفرنج المدينة كالسيل ، ومروا فى الأزقة
والشوارع ، لا يجدون لهم ممانع ، ثم دخلوا الى الجامع الأزهر
وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه
ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ،
وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ،
والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني
والقصاع ، والودائع والمخبات ، بالدواليب والخزانات ، ودشتوا
الكتب والمصاحف وعلى الارض طرحوها وبارجلهم ونعالهم
داسوها ، واحدثوا فيه وتغوطوا ، وبالوا وتمخطوا ، وشربوا
الشراب وكسروا اوانيه وألقوها بصحنه ونواصيه ، وكل من

صادقوه به عروه ومن ثيابه اخرجوه .. وخرجت سكان تلك الجهة
يهرعون ، وللنجاة بانفسهم يطلبون ، وانتهكت حرمة تلك البقعة
بعد أن كانت اشرف البقاع ، وكثير من الناس ذبحوهم ، وفي بحر
النيل قذفوهم ، ومات في هذين اليومين أمم كثيرة لا يحصى عددها
إلا الله .

سنوات الحيرة

كانت السنوات الخمس التي تلت جلاء الحملة الفرنسية عن مصر، من أروع حلقات التاريخ المصري كفاحاً ونضالاً وحركة وحيوية ..

ولكنها تبقى - مع ذلك - أشد هذه الحلقات مدعاة للدهشة والحيرة .. كانت هذه السنوات بمثابة لحظة اشراق بعد ليل طويل حالك السواد ، وكان المتوقع أن يسفر الفجر الوليد عن حركة تحرير كبرى يتخلص فيها الشعب المصري من أغلال النظام القديم ، ويتحرر من رق الترك والمماليك .. ولكن الثمرة الناضجة وضعت على طبق من الفضة وقدمها السيد عمر مكرم بالهناء والشفاء الى الضابط الألباني المغامر محمد علي ، ليحكم مصر مع أبنائه وأحفاده قرناً ونصف قرن بالتمام والكمال .. وكأننا يابدر لا رحنا .. ولا جينا .. !

والامر المؤكد أن المصريين أفادوا من الحملة الفرنسية برغم النكبات والكوارث التي سببتها لهم ، فالحملة التي ضمت كتيبة من العلماء ، وحملت مع المدفع المطبعة والصحيفة والمعمل ، تركت بصماتها على العقل المصري ، وتسامع المصريون بأفكار الثورة الفرنسية التي هزت عروش أوروبا ، وترددت بينهم أسماء فولتير وروسو ومونتسكيو وأضرابهم من آباء الفكر الليبرالي ودعاة الحرية والمساواة ، وحق الشعوب في التمرد على الطغاة والمتجبرين ، ولا شك أن المصريين شاهدوا ولمسوا وتأثروا بالنمط السياسي الجديد والتقاليد الجديدة التي جاء بها الفرنسيون ، فلما غادروا مصر كانت الشراذم التركية والمملوكية تنهيا لاستعادة مجدها الغابر .. كانت تمسك في يدها الاغلال والأصفاد لتضعها في عنق الشعب المصري مرة أخرى ، ولم يكن من المعقول ان يتم لهم ما أرادوا بعد ان تجلى جبنهم وخورهم وتخاذلهم امام الفرنسيين ، لقد هربوا جميعاً من الساحة كالفران المذعورة ، وتركوا المصريين وجها لوجه امام قدرهم .. وأثبت المصريون انهم رجال من خلال الثورات والهبات التي قاموا بها ضد الاحتلال الفرنسي ، ودفعوا ثمن الحرية بالدم والعرق والدموع .. أفليس من حقهم بعد ذلك ان يستمتعوا بالحرية .. ؟ اليس من حقهم ان يتطلعوا إلى عصر جديد تتحدد فيه العلاقة

بين الحاكم والمحكومين على أسس جديدة ، ومفاهيم جديدة
تختلف عن تلك التي كانت قائمة في العصر الوسيط .. ؟

● ولكن أى تحرر كان يريده المصريون .. ؟

● وماهو مفهوم الحرية الذى ينشدون .. ؟

هذا هو السؤال الصعب الذى تحار فى فهمه العقول .. ولكى
نكون منصفين مع أبائنا وأجدادنا ، ولكيلا نقسوا فى أحكامنا
عليهم ، يجب أن نضع فى اعتبارنا اختلاف المفاهيم بين عصرنا
وعصرهم ، إذ من الخطأ الكبير أن نحكم على عصرهم بآراء
عصرنا .. ومن الظلم والاحجاف أن نحاسبهم بتقاليد عصرنا ،
التي تضع اعتبار الاستقلال الوطنى فوق كل اعتبار ، ولم تكن مثل
هذه المفاهيم شائعة أو مطروقة فى زمانهم ، ولعل أوضح دليل هو
تصرف الزعيم عمر مكرم الذى حمل لواء الثورة .. ولكنه انتهى بها
الى احضان السيادة العثمانية ، وكان فى كل مافعل منسجما مع
افكار عصره .. معبرا عن آراء مواطنيه التي لا ترى الأمان إلا فى
ظلال السلطان ، ولا تتصور الانفصال عنه .

وإذا كان الاستاذ الراحل قد ارتفع بالشعور القومى المصرى
فى ذلك العصر الى مرتبة نظيره فى فرنسا وماحدثه من ثورة
استقلالية كبرى ، فإن الدكتور حسين مؤنس يحذرنا من الاسراف
فى هذا التقدير ، لأن المصريين لم يكونوا يطلبون الحرية
والاستقلال كما نفهمهما الآن ، ولم يكن عمر مكرم نفسه يفهم الحرية
بأكثر من انها رفع المظالم وتخفيض الضرائب .

ويرى الدكتور مؤنس أن عمر مكرم لم يكن فريدا فى فهمه هذا ..
بل كان مثله فيه كمثّل كل الوجهاء وذوى اليسار والسطوة من أهل
البلاد ، فمهما بلغت مطامعهم لم يكن أحد منهم يفكر فى أن يتولى
بنفسه حكومة البلاد ، بل كان أقصى أمانيتهم أن يتقربوا إلى اولى
الأمر ، وأن يحظوا منهم بالعطف والرعاية ، وتلك نتيجة طبيعية
للموضع السياسى الذى وجد الشعب المصرى نفسه عليه ، فى
ظل الحكومات التي تواترت عليه من قديم الزمان ، إذ اضعف فيه
ثقته بنفسه ، وجعله يخشى المسؤولية ولا يقدر على اعباء
الحكم ، فيكتفى بأن يَكِلَهُ الى الأجانب ويتولى هو المعاونة
والمساعدة ، وهذا مافعله عمر مكرم .. فقد ترك الأمر طواعية
لمحمد على وسلمه كل مقومات الحكم ، كأنه كان يشعر فى نفسه
بأنه غير كفاء له .

نجم الزعامة المصرية

كان

السيد عمر مكرم أقوى شخصية مصرية ظهرت على المسرح السياسى فى مطلع القرن التاسع عشر، ومع ذلك لم يفكر فى

تنصيب نفسه حاكما على مصر، والعلماء الذين صعدوا معه الى القلعة فى مايو ١٨٠٥ لخلع الوالى العثمانى خورشيد باشا، لم يخطر ببالهم ان يضعوا الصولجان فى يد ذلك الزعيم الصعيدي الاسيوطى الأزهرى، ووضعوه فى يد الضابط المقدونى المولد، العثمانى النشأة: محمد على، فضيعوا على مصر فرصة العمر، وحكموا عليها بان ترزح قرنا ونصف قرن تحت نير اسرة اجنبية تضاف الى سلسلة الاسر التى حكمت مصر من قلاوونية وايوبية وفاطمية وإخشيدية وطولونية.. وقبل كل هؤلاء كان حُكم الرومان، وقبل الرومان كانت الاسر البطلمية الاغريقية التى استوطنت مصر بعد فتح الاسكندر لمصر عام ٣٣٣ قبل الميلاد. وبين المقدونى الأول والمقدونى الحديث واحد وعشرون قرنا عاشتها مصر تحت حكم الأجانب، ولم يستطع زعيم مصرى أن يخرق الستار الحديدى ويجلس على عرش بلاده.

إياك أن تقع فى شرك الذين يعلقون هذه الظاهرة على مشجب الاسلام، بحجة أنه يجمع بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية فى شخص الحاكم، وأن الرعية عليها أن تسمع وتطيع بصرف النظر عن جنسية الحاكم ولونه.. وأقول لك إن الاسلام يرى من هذه الأكاذيب التى روجها المرجفون لإخضاع الشعوب وتطويعها لحكم الجبابرة والطغاة.. والاسلام لم يقل ان حكم مصر خلال لكافور الاخشيدى وابن طولون المنغولى وخوش قدم الالمانى الاصل.. وحرام على ابنائها..!!



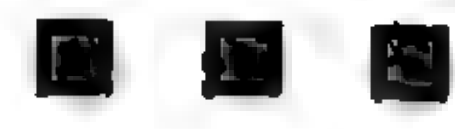
لو تتبعنا تاريخ هذه الأسرات والدول، فسوف تكتشف بينها فجوات ضعف وانحلال كان من الممكن أن يسدها مصرى أصيل. مثلما حدث فى اعقاب جلاء الفرنسيين عن مصر وعودة الأتراك إلى حكمها وماحدث من صراع دموى بينهم وبين المماليك.. فى هذه الفترة المضطربة ظهر نجم الزعامة المصرية ممثلا فى شخص

السيد عمر مكرم .. ومع ذلك لم يفكر المصريون في تنصيبه حاكما عليهم .. الأمر الذى يشكل علامة استفهام كبيرة ..؟؟
ولقد حاولت أن أتمس الجواب فى كتابات الباحثين والمؤرخين فلم أجد عند الاستاذ الراحل مايشفى الغليل ، وهو برغم إعجابه الشديد بالسيد عمر مكرم ، وبرغم مبالغته فى تقدير حجم الشعور القومى الذى بزغ اثناء تواجد الحملة الفرنسية فى مصر ، فإنه لم يشرح لنا سر انصراف الحركة الوطنية الوليدة عن ابنها البار التقي النقى .. واقبالها على الضابط المقدونى المجهول الأصل .. !

الدكتورة نعمات أحمد فؤاد ، فى كتابها القيم « شخصية مصر » حاولت أن تقدم تفسيراً خلاصته أن الموقف السياسى فى تلك الفترة الدقيقة كان يتطلب معرفة القوى الموجودة فى الساحة ووزنها بميزان دقيق ، كما يتطلب مهارة فى اللعب بها ، ومعها ، وقد عرف التاجر المقدونى من أين تؤكل الكتف ، ولم يكن علم هذا عند ابن البلد الطيب عمر مكرم .. وتضيف الى ذلك انبهارنا التقليدى بالغريب ..

أما الدكتور عبد العزيز الشناوى استاذ التاريخ الاسلامى .. فيقدم لنا فى كتابه عن عمر مكرم تفسيراً من خلال الظروف الثقافية والفكرية التى كانت تسود المجتمع المصرى يومئذ ، فالمجتمع كان مجتمعاً دينياً ، ولم يكن ينظر الى السلطان العثمانى على أنه حاكم أجنبى دخيل مستعمر ، بل نظر إليه على أنه سلطان الاسلام . وكان سلطان تركيا سعيداً جداً بهذه النظرة المقدسة ، فجعل من الدين ستاراً يخفى وراءه اغراضاً استعمارية ، والدين منها براء ، وكان الشعب المصرى متشبعاً بفكرة الوطن الاسلامى اكثر من تشبعه بفكرة الوطن القومى ، وبعبارة اخرى كانت العاطفة القومية ممزجة متشابكة مع العاطفة الدينية بحيث يصعب الفصل بينهما ، وكانت السياسة العليا للدولة العثمانية منذ غزو مصر فى عام ١٥١٧ تقضى بان يكون والى مصر عثمانياً صرفاً ، بمعنى أن يكون عثمانى المولد والنشأة واللسان والعقلية ، فإذا تم اختيار عمر مكرم أو غيره من زعماء البلاد واليا لمصر ، لكان معنى ذلك - فى ضوء مفاهيم المجتمع الدينى - ثورة على النظام الذى اخذت به الدولة ، ونقضاً لمبدأ أساسى وضعه

سلطان الاسلام وخروجاً على طاعته ..



وكان من الممكن أن يكون هذا التفسير مقبولا لو أن الشعوب التي حكمتها الامبراطورية قد استسلمت نهائيا ، واستنامت لتلك المفاهيم التي أشار اليها الأستاذ الفاضل ، ولكن الذي حدث أن الشعوب العربية لم تكف عن الشغب والتمرد والعصيان في مصر وسوريا ولبنان .. وثورة الدروز في القرن السابع عشر معروفة .. وفي مصر وجدنا في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر من يقود جيشا ليضم سوريا ، ويعلن الانفصال عن الامبراطورية ، وأعني بذلك حركة علي بك الكبير ، فالخروج على سلطان الدولة العثمانية كان أمرا شائعا .. بل أن محمد علي نفسه لم يكد يستقر على عرش مصر حتى شق عصا الطاعة على سادته ، وقاد جيشا مصرية واسطولا مصرية ليؤكد بهما عرش الأستانة .. فما المانع من عصيان الدولة العلية ونقض مبادئها بتعيين مصري على عرش مصر .. ؟؟

مهرجان الدم



يوم أول مارس ١٨١١ موعدا لسفر الحملة المصرية بقيادة الأمير طوسون لإخماد الحركة الوهابية في الحجاز ، وخرج شعب القاهرة كعادته في هذه المناسبات ، الى الشوارع المحيطة بالقلعة لتوديع الجيش وسط أهازيج الفرح ودقات الطبول ، ولكن صيحات الفرح تحولت الى صرخات استغاثة ، وطفى صوت الرصاص على دقات الطبول ، وتحول الموكب السعيد الى مهرجان للدم .

في صباح ذلك اليوم تَصَدَّرَ محمد على قاعة الاستقبال الكبرى في قصره بالقلعة ، وتوافد عليه العظماء مهنتين مباركين ، وانتهازها المماليك فرصة لإظهار ولائهم للعهد الجديد ، فقد خمدت الحروب الطاحنة التي دارت رحاها في صعيد مصر بين فلولهم وقوات محمد على ، ويئس المماليك من احراز نصر حاسم فهبطت عزيمتهم و اعربوا عن رغبتهم في إلقاء السلاح ، وتظاهر محمد على بقبول الصلح فأعطاهم الأمان ، وسمح لهم بالعودة الى القاهرة ليعيشوا في قصورهم بين حريمهم وغللمانهم حياة الرغد واللهو والفجور ، ولم يقنع المستبد الداخلي بهذا الاستسلام ورأى ان الحل الوحيد هو استئصالهم من الجذور ، حتى لا تبقى امامه قوة مناوئة تصرفه عن الهدف الأكبر وهو الانفراد بحكم مصر .



ذهب البكوات المماليك الى القلعة يرفلون في ثيابهم المزركشة الفضفاضة وقد تمنطقوا بالسيوف الذهبية البراقة دون البنادق ، واستقبلهم محمد على بالبشر والترحاب وابدى لهم من طرف لسانه جلاوة أسكرتهم ونزعت من نفوسهم كل ريبة ، وهم الذين تربوا منذ نعومة اظفارهم على الشك والمكر والخداع ، ولكنهم في هذا المضمار كانوا مجرد تلاميذ في حضرة الداهية الاعظم الذي قراوا عليه يوما صفحات من كتاب ميكافيللي فسخر منه وقال : أنا أعرف أكثر منه .. !

ودوى النفير إيذاناً بتحريك الجيش ، فانتصب محمد على

واقفا ، ونهض الأمراء المماليك يستأذنونهم فى الانصراف ، فأوحى اليهم أنه سيكون أكثر حبورا لو أنهم شاركوا فى المهرجان كي يراهم شعب القاهرة وهم فى صحبة الجيش ، وتلقف المماليك الطعمَ شاكرين ، واعتبروا مطلبه زيادة فى الكرم وحسن النوايا ، وبدأ الموكب سَيرَه حسب الخطة المرسومة : فى المقدمة جوق الطبول والموسيقى ثم طليعة الفرسان ، وبعدها كتيبة الجنود الألبان بقيادة صالح قوش أحد أربعة رجال اشتركوا مع محمد على فى تدبير المؤامرة ، وبعدهم جموع البكوات المماليك على صهوات جيادهم المظلمة ، وتهادى الموكب من باب القصر ثم انحرف يسارا ليجتاز طريقا ضيقا وعِرا منحوتا فى الصخور ويتدرج فى الانحدار حتى باب العزب الذى يفضى إلى ميدان الرميّة (صلاح الدين حاليا) . وعبرت الفرق الأولى باب العزب ، ثم انغلق الباب غلقا محكما ، وفى سرعة خاطفة تسلق الألبان بأسلحتهم النارية قمم الصخور المتاخمة للطريق ، بينما كانت جموع المماليك تتقدم نحو الباب ولا يدرون شيئا مما يجرى حولهم ، وفى نفس الوقت كانت صفوفهم الخلفية تواصل سيرها حتى إذا اكتمل عددهم انغلق الباب الذى دخلوا منه فباتوا محصورين فى هذا الخندق الصخرى الضيق ..

* * *

وفجأة .. دوت طلقة نارية فكانت إشارة بدء المذبحة ، وبعدها انفتحت أفواه البنادق كالسيل المنهمر يحصدهم حصدا فلا يستطيعون فكاكا ، وصدمتهم المفاجأة وانسدت فى وجوههم أبواب النجاة من هذا الجحيم المستعر ، وتلاطمت خيولهم وساعد دوى الرصاص على إثارتها فازدادت هياجاً كأنها حُمِرَ مستنفرة فَرَّتْ من قَسْوَةِ .. وأخذت الخيل تلفظ ساداتها عن ظهورها وتدكهم بأقدامها دكا وكأنها تنفذ دورا مرسوما لها فى المؤامرة ، ومن حاول منهم تسلق الصخور عاجلته رصاصة يهوى بعدها إلى الحفرة صريعا أو جريحا فتدهسه الخيل النافرة ، أما الوحيد الذى نجا بحياته فهو أمين بك الذى كان فى مؤخرة الركب ، فما إن سمع دوى الرصاص حتى ركض بجواده نحو أسوار القلعة ثم لكز الحصان بقوة فهوى به إلى الوادى السحيق وتهشم الجواد ونهض الأمير فأطلق ساقيه للريح فى صحراء المقطم ، ولم يكف عن الجرى حتى وصل لبنان لأنذا بأميرها بشير الشهابى .

على موائد المنام

لم تكن مذبحة القلعة هي فصل الختام في المأساة المروعة التي خطط لها محمد علي بإتقان ، فالبكوات المماليك الذين ذهبوا الى احتفال القلعة وحصدتهم رصاص الألبان كانوا ٤٠٥ فقط ، أما بقية المماليك فكانوا - وقت المذبحة - آمنين في قصورهم المنبثة في الجمالية والأزبكية والناصرية ولا يدرون شيئا مما جرى لزعمائهم ، فما إن سكن غبار المذبحة حتى انقض الجند الألبان على قلب القاهرة يذبحون المماليك في عقر دورهم ويستحيون نساءهم ، وينهبون أموالهم . كانت تعليمات الإبادة صريحة حتى لا يبقى على ظهر الأرض من المماليك دينار ، ولقد نفذ الألبان المهمة الموكولة اليهم وقد تملكته شهوة السلب والانتقام من أعدائهم الألداء ، حتى باتت القاهرة في ذلك اليوم المشئوم أشبه بمدينة مفتوحة أمام غزوة تترية ، وعاث الجند فسادا في المدينة الآمنة ، ولم يسلم المصريون من هذه المحنة القاسية ، فأصابهم بعض ما أصاب المماليك من عمليات النهب والسلب وهتك الأعراض ، ورغم أن أهل القاهرة سارعوا الى اغلاق حوانيتهم ولجأوا الى بيوتهم بمجرد سماعهم نبأ المذبحة ، إلا أن الوحوش الكاسرة لم تفرق بين قصور المماليك وبيوت المصريين ، فاستباحوا كل ما تصل اليه أيديهم واستمرت الفوضى ثلاثة أيام بلياليها ، ولم تتوقف إلا بعد أن نزل محمد علي بنفسه الى شوارع المدينة ، وتمكن من كبح جماح جنوده واعاد الانضباط الى المدينة التعيسة . وفي نفس الوقت الذي دارت فيه عمليات الإبادة في القاهرة ، كانت هناك عمليات مماثلة في الاسكندرية وبقية المدن التي يتواجد فيها المماليك ، ولم يفلت منهم إلا من أسعده القدر بالهروب الى الصحراء بحثا عن كهف مظلم أو قبر مهجور ياوى اليه .



وانطوت الى الأبد من تاريخ مصر صفحة المماليك بعد خمسة قرون أو تزيد عاشوها في احضان مصر المحروسة ، يتقلبون في اعطاف نعيمها وينهلون من رضاب نيلها ، أولئك هم الصعاليك الذين جاعوا الى مصر غلمانا يباعون في أسواق النخاسة ، فما هي

إلا عشية وضحاها حتى أصبحوا ملوكا يدين الناس بالطاعة لهم ،
ويدعون لهم بالنصر والعز والتأييد . وقن الدعاء للحاكم - إن لم
تكن تعلم - فن مصري قديم أتقنه المصريون منذ دالت دولتهم ،
وخبا عزهم ، وأصبحوا غرباء في ديارهم ، ثم باتوا كالايتام على
موائد اللثام .. ولكن هؤلاء اللثام لم تكن صفحة حياتهم خالية من
ومضات المجد والعظمة ، فهم الذين دافعوا عن مصر والشرق
الاسلامي يوم اطبقت عليه جحافل المغول من الشرق ، وجيوش
الصلبيين من الغرب ، وهم الذين فتنوا بجمال العمارة ، وتلك
اثارهم تدل عليهم في المساجد والمدارس والأضرحة والأنسلة .
ولو سرت يوما في القاهرة المعز ، فاعلم ان كل ما تقع عليه عينك من
اثر عظيم - بما فيها الأزهر نفسه - إنما من وحي عشقهم للعمران
والتشييد .



فوارحمتاه على أولئك الصناديد الذين تربوا على صهوات
الجياد ، وانصهروا في غبار المعارك ، ولم يعرفوا إلا لغة الحرب ،
فأذلوا كبرياء هولاء في عين جالوت ، وأسروا لويس التاسع في
المنصورة ، وحرروا القدس من دنس الصليبيين ، وأزالوا آخر
قلاعهم في عكا ، ومسحوا وجودهم عن خريطة الشرق الاوسط .
وواأسفاه عليهم حين خلدوا الى النعيم واللهو ، والمجون ،
وانحبسوا في مخادع الحريم والغلمان ، فلانت قناتهم ، وذابت
صلابتهم ، وانطفأ وهجهم ، وصدئت سيوفهم من طول مانامت في
اغمارها ففقدوا مبرر وجودهم ، ولم يبق منهم سوى ثياب مزركشة
مضحكة ، وخيول مطهمة ، وسيوف مطعمة بالماس والزمرد ،
وكلها أشياء تصلح للعرض في المتاحف ولا تصلح لمواجهة
تطورات العصر الحديث .

وقبل أن يفنى الممالك على يد محمد علي ، كانت عوامل الفناء
الذاتي قد حكمت عليهم بالموت البطيء ، لقد ظنوا ان العالم
سوف يتوقف عند اللحظة التي شهدت امجادهم ، وتقوقعوا داخل
شرنقة الغرور والاستعلاء والجهل ، وماردوا أنهم صنعوا اكفانهم
بايديهم ، ودخلوا مرحلة الفناء البطيء حين تجاهلوا حركة
التاريخ .. فلما أجهز عليهم محمد علي لم يجدوا أحدا يبكي عليهم
أو يأسف على ماساتهم .

إنها عبرة التاريخ لمن يريد أن يعتبر .

عبثٌ مأمور

محمد بك الدفتردار احد السواعد القوية التي اعتمد عليها محمد علي في تثبيت حكمه وتشديد قبضته على الشعب المصري ، وقام

كان

في هذا السبيل بدور لا يقل كفاءة عن الادوار التي قام بها ابراهيم باشا أكبر أبناء الوالى ، والكتخدار محمد لاطوغللى نائب الوالى ، وصالح قوش بطل مذبحة القلعة ، وغيرهم من اركان النظام الجديد ، وكلهم جاءوا برفقة محمد علي ، جنودا فى جيش الاحتلال العثمانى الذى وصل مصر فى فترة الفوضى التي اعقبت خروج الحملة الفرنسية ولكنهم لم يخرجوا من مصر ابدا .. واصبحوا سادة البلاد والمتحكمين فى مصيرها على مدى قرن ونصف قرن من الزمان .

وكان محمد الدفتردار وحشا كاسرا يحمل بين جنبيه قلبا صخريا لا تعرف الرحمة أو الشفقة سبيلا اليه ، كان عاشقا للدماء ، يطرب لمشهد الرؤوس وهي تطير فى الهواء ، ولا يتورع عن ارتكاب ابشع المذابح لأوهى الأسباب ، فكان مجرد ذكر اسمه يثير الفزع والرعب فى نفوس سامعيه . وكان محمد علي يستخدم هذا النوع من البشر لفرض سيطرته وإحكام قبضته على ربوع مصر ، ومنع المصريين من التمرد على نزعتة الاستبدادية ، فجعله من خاصته المقربين ، ولكى يضمن ولاءه الى الابد زوّجه ابنته زهرة هانم ، فاصبح واحدا من اعضاء الأسرة المالكة ، وحدث أن كان الدفتردار يطوف على بعض القرى عندما تقدم منه فلاح بائس عارضا شكواه فقال : لقد تاخرت عن سداد الضريبة المستحقة على قدرها ستون قرشا ، ولكن ناظر الارض أتى إلا الدفع ، فاستولى على بقرتى الوحيدة وأمر جزار القرية بذبحها ثم قسمها ستين جزءا وأمر بتوزيعها على الفلاحين بواقع قرش واحد للجزء ، وأعطى الجزار رأس البقرة لقاء عمله ، وبعد أن جمع المبلغ مضى وتركنى دون أن أتذوق حتى ولو قطعة واحدة من لحم البقرة التي كنت اعتمد عليها فى زراعتى .. وكانت تساوى ضعف المبلغ الذى جمعه .

فلما فرغ الفلاح من قصته مضى الدفتردار الى القرية ، واطلق

المنادى يطلب من أهلها التجمع فى الجُرن . والتف الفلاحون فى شبه حلقة ، بينما بعث الدفتردار فى استدعاء الناظر والجزار الذى ذبح البقرة ، ثم أمر الجند بتكبير الناظر بالحبال والقائه فى وسط الحلقة ، وتوجه بالحديث الى الجزار قائلاً : كيف سمح لك ضميرك بذبح بقرة هذا الفلاح المسكين وهى كل ما يملك من حطام الدنيا ؟ فارتعد الجزار ولكنه تمالك نفسه وقال للدفتردار : انى يامولاي ، عبد مامور .. ولم افعل سوى ما امرنى به الناظر .. فسكت الدفتردار برهة كأنها دهر والقى بسهام نظراته النارية على الناظر المطروح ارضا ، وقال للجزار : لو امرتك بان تذبح الناظر مثلما ذبحت البقرة .. فهل تفعل .. ؟ فقال الجزار على الفور : لقد قلت يامولاي انى عبد مامور ، اطيع الأوامر التى تصدر الى من سادتى .. عندئذ انتصب الدفتردار واقفا وصرخ فى وجه الجزار : اذن فانى امرك أن تذبح هذا الوغد .. فخف الجزار مسرعا واخرج السكين من جيبه ، وانقض على رقبة الناظر فحزها حتى فصل راسه عن جسده .. وساد الوجوم أهل القرية .. وجمدت الدماء فى عروقهم وظلوا واقفين مذهولين امام هذا المشهد الرهيب .. وبعد ان فرغ الجزار من مهمته نهض منتظرا باقى الاوامر . فقال له الدفتردار : والآن امرك أن تقطع جثته ستين إربا .. ماعدا الراس .. ومضى الجزار فى تنفيذ الامر بهمة ونشاط حتى فرغ من تقطيع الجثة ستين إربا .. وهنا التفت الدفتردار نحو اهالى القرية صارخا : على كل منكم ان يشتري قطعة ويدفع قرشين .. وصدع الاهالى بالامر .. اخذ كل منهم قطعة من لحم الناظر ووضع قرشين . فلما تجمع مبلغ مائة وعشرين قرشا تناولها الدفتردار . ودفع بها الى الفلاح المنكوب ليشتري لنفسه بقرة جديدة .. ثم التفت الى الجزار وقال : « كما انك اخذت راس البقرة جزاء لك على تعبك ، خذ بالمثل راس الناظر جزاء لك على تعبك فى ذبحه وتقطيعه » وانطلقت منه ضحكات فظيعة كأنها زلزال مدمر .. ثم نهض وغادر القرية ومن خلفه جنوده .. بينما أهل القرية ذاهلون .. وكانهم يشهدون كابوسا كريها ..

لقد ظن هذا الوحش البشرى انه اقام عدلا ، ومحا ظلما .. !! ومادرى ان العدل الذى يتحقق عن طريق الإرهاب والعنف هو عين الظلم .

سياسة بلا أخلاق

كان

أمير البحر أحمد فوزى باشا قائدا للأسطول التركي في الوقت الذي بلغ الصدام فيه ذروته بين مصر وتركيا . كان محمد علي قد اذاق الجيوش التركية مرارة الهزائم المتوالية في الشام والأناضول ، وباتت القوات المصرية على مرمى حجر من عاصمة الامبراطورية العثمانية فزلزلت دعائمها وهددت بزاولها . وفي هذا الوقت الحرج مات السلطان محمود - سلطان الاتراك - وخلفه غلام في السابعة عشرة اسمه عبد المجيد ، اسلم زمام الدولة إلى خسرو وعيّنهُ صدراً أعظم . والمصريون يذكرون هذا الرجل الذي جاء إلى مصر واليا من قبل الدولة العلية مع بداية ظهور محمد علي ولكنه فشل في اقتلاعه من مصر ، فعاد إلى بلاده خائبا وهو يقطر حقدًا على محمد علي .

وكما جرت عليه العادة في دول الشرق منذ القدم ، فإن فترات الانتقال من حاكم إلى حاكم تكون نعمة على البعض ، مثلما هي نكبة على البعض الآخر ممن لا يكون هواهم مع النظام الجديد ، فتعمل الدسائس والمؤامرات عملها في الايقاع بهم وتصفيتهم جسديا وسياسيا ، وكان القبودان أحمد فوزى باشا من هؤلاء الذين يتوقعون الشر من جانب خسرو باشا بسبب (خصومة) قديمة بينهما . لذلك لم يكد فوزى باشا يتلقى أمر استدعائه إلى الأستانة حتى أوجس في نفسه خيفة ، وأدرك أنه إما مقتولا وإما معزولا . فأشار عليه بعض أعوانه بفكرة اللجوء إلى مصر وتسليم الأسطول التركي إلى محمد علي غنيمة خالصة فينال حظوته ويضمن لنفسه موقعا أثيرا في دولة النجم الصاعد ، واستحسن الرجل الفكرة فأقلع بالأسطول الضخم سرا من مياه الدردنيل إلى الاسكندرية وعلى ظهره أكثر من ٢١ ألف بحار وجندى . واستقبل محمد علي الأسطول التركي بالجفاوة والترحاب ، فبانضمامه إلى البحرية المصرية أصبحت مصر أقوى دولة بحرية في البحر الأبيض المتوسط . ولقى فوزى باشا عند سيده الجديد الحظوة التي كان يتوقعها .

ولكن الرياح لم تجر بما كان يشتهي أمير البحر التركي ، ولا بما

كان يتمنى محمد على ، فقد لعبت الدول الأوروبية - برعامة انجلترا - لعبتها المعروفة لإجهاض نهضة محمد على وقصصة اجنحته التي امتدت الى الحجاز وفلسطين وسوريا والمورة والأناضول ، واسفرت المؤامرة الأوروبية عن إبرام معاهدة لندن التي اعادت الجيوش المصرية الى معاقلها الأصلية . وبعدها اصدر السلطان العثماني فرمانا ينظم شكل العلاقة الجديدة بين مصر ودولة الخلافة ، وكان من بين بنوده إعادة الاسطول التركي والعفو عن جميع رجاله باستثناء القبودان احمد فوزى باشا ، فكان لابد من تسليمه حتى يلقي جزاء خيانتة .

واسقط في يد محمد على ، فلا هو يستطيع مقاومة امر السلطان ومن خلفه الدول الأوروبية المتحفزة ، ولا هو يستطيع تسليم الرجل الذي التجأ إليه فتضيع هيبة امام أتباعه ومعظمهم من الترك ، وشعر السلطان بحرج موقف محمد على وأراد ان يسهل عليه الأمر ويخرجه من المازق فبعث إليه بأنه ليس من الضروري تسليم القبودان الخائن حيا .. فالمهم ان يدفع ثمن خيانتة سواء في مصر أو في الأستانة .. فكلها بلاد السلطان ، وفهم والى مصر مغزى الإشارة فنهض من فوره إلى خزانته الخاصة وأخرج منها قنينة سموم صغيرة واستدعى أحد خاصته واعطاه القنينة وكلفه بمهمة التفاهم مع فوزى باشا لخراج والى مصر من ورطته . وذهب الرسول الى قصر فوزى باشا وأخذ يلاطفه ويحدثه حديثا عن متاعب الحياة الدنيا وكيف ان متاعها زائل .. وان النعيم الحقيقي في الحياة الآخرة وان ماعند الله خير وأبقى وأنه يحسن بالمرء ان يكون مستعدا لمقابلة وجه ربه الكريم في أية لحظة يشاء الله فيها ان يستدعيه اليه . وما أسهل الموت إذا جاء للانسان في جرعة ماء او فنجان قهوة .. !! وفهم القبودان معنى الكلام ، فقام فتوضأ وصلى العصر وختم الصلاة بالدعاء والاستغفار .. ثم التفت الى فنجان القهوة المسمومة فتجرعها في صبر واستسلام وهو يهذى بالتركية : قسمت .. قسمت .. !!

شارع سليمان باشا

يُذكر تاريخ « الجهادية » المصرية إلا مقترنا
باسم محمد علي الكبير مؤسس مصر الحديثة
ومعه سليمان باشا الفرنساوي ساعده الأيمن
في بناء أول جيش مصري صميم منذ انحلت الفيالق
المصرية في أواخر عصر الفراعين وسقوط مصر تحت سناك
الغزاة .

الفان من السنين عاشها المصريون محرومين من شرف
الجنديّة ، لا يحملون سلاحا يدافعون به عن وطنهم ، فقد أراد لهم
حكامهم أن يحملوا - فقط - الفئوس . حتى باتت كلمة « فلاح »
مرادفة لكلمة « مصري » في قاموس الشراذم الأجنبية التي تكالبت
على مصر كمائتكالب الأكلة على قصعتها .. !
بقي هذا الحال المهين إلى أن ظهر محمد علي ، على مسرح
الحياة المصرية ليحرك ركودها ، ويدفع الدماء الفتية في عروقها
التي تجمدت بفعل القهر والطغيان والجهل والانفلات .. ورأى هذا
الثعلب العبقري أن أول خطوة في بناء دولة مصر العالمية إنما
تبدأ من بناء جيش نظامي حديث على نمط الجيوش الأوروبية التي
تعالى صليلها خلال الحروب النابليونية ، وجرب محمد علي أن
يجعل من (الباشبوزق) وهم اخلاط من الارناؤوط والشركس
والدلاة - نواة الجيش النظامي ، ولكن هل يستطيع من نشأ على
الفوضى والشغب والتمرد والخيانة والغدر أن يخضع لأصول
الطاعة و النظام والضبط والربط واحترام القيادة .. ؟
مستحيل ...

وفشلت التجربة فشلا كاد يطيح بمركز محمد علي نفسه ..
فانتجعت انظاره الى الفلاحين ..
هل استقرأ محمد علي نبض التاريخ فتذكر أمجاد الجيش
المصري أيام كان يصول ويجول في تخوم الشرق تحت رايات
احمرس وتحوتمس ورمسيس .. ؟

لا اظن .. فلم يكن عزيز مصر من أولئك الحكام الذين يحبون
الثقافة واستقراء التاريخ ، ولكن من المؤكد أنه كان خبيرا في
كشف معادن الرجال .. فادرك بفراسته أن هذا الفلاح الخامل سوف
يأتي بالاعاجيب إذا تهيأت له الظروف الصالحة ..

وبدا محمد على من نقطة الصفر ..
وساقت إليه الأقدار ضابطا فرنسيا من بقايا حروب نابليون
اسمه الكولونيل (سيف) فعهد اليه العزيز بمهمة تكوين النواة
الأولى من الضباط الذين سوف يعاونونه على تدريب الجنود
المصريين . واختار له ٥٠٠ من خاصة مماليكه ليبدأ بهم ، واختار
له اسوان لتكون (وكر) لهذه المهمة العويصة بعيدا عن مؤامرات
الباشبوزق ومقاومتهم لكل جديد . واستغرقت عملية التدريب ثلاث
سنوات ذاق خلالها (سيف) الأمرين لتطويع هذه العناصر
الفوضوية وتهذيبها .. واعتنق (سيف) الاسلام وأصبح اسمه
(سليمان) فزال الحاجز النفسى بينه وبين تلاميذه الضباط وظهر
لهم من ضروب الشجاعة والصبر وسعة الصدر ما جعل حقدهم
عليه ينقلب الى حب واحترام واجلال .



حدث مرة أن دبر تلاميذه مؤامرة لاغتياله اثناء التدريب على
ضرب النار ، فاطلق احدهم عليه رصاصة مست اذنه وأطاحت
بقبعته وبدا من أن ينتقم سليمان من القاتل ، أمسك بالبندقية
واتخذ مكان القاتل في الصف وأخذ يصوب الرصاص نحو الهدف
وهو يردد : هكذا يكون التصويب ياغبى .. ! وكان من الطبيعى أن
تترك هذه التصرفات النبيلة أثرها فى تلك النفوس الصخرية ،
فاذابت من جمودها وغرورها .

وبعد تكوين الدفعة الأولى من الضباط بدأت عملية البحث عن
الجنود ، وكان من الطبيعى أن تلقى دعوة التجنيد نفورا وكراهية
من المصريين لبعد المسافة الزمنية بينهم وبين هذا الواجب
الوطنى ، فضلا عن الطريقة البشعة التى سلكها زبانية محمد على
لجمع الفلاحين . إذ كانوا ينقضون على القرى الآمنة كالوحوش
الكاسرة ويأسرون كل من يقع فى أيديهم من الرجال والنساء
والأطفال ويسوقونهم فى الحبال إلى معسكرات التجنيد فى
المدن .

ولكن المشروع مضى فى طريقه المرسوم ، وبقي سليمان باشا
الفرنساوى على رأس الجيش يعلم ويدرب وينظم وينشئ
المدارس الحربية ويستدعى الخبراء من الخارج ويرسل البعثات
إلى أوروبا لتتخصص فى الفنون العسكرية ، ولم يكن سليمان باشا

أقل من سيده أعجابا بالفلاح المصرى . ويؤثر عنه قوله « إن العرب (يريد المصريين) هم خير من رأيته من الجنود ، فهم يجمعون بين النشاط والقناعة والجلد على المتاعب مع انشراح النفس وتوطئتها على احتمال صنوف الحرمان . وهم بقليل من الخبز يسرون طول النهار يحدوهم الشدو والغناء ، ولقد رأيته في معركة (قونية) يبقون ساعات متوالية في خط النار محتفظين بشجاعة ورباطة جأش تدعوان إلى الإعجاب دون أن تختل صفوفهم أو يسرى إليهم الملل أو يبدو منهم تقصير في واجباتهم وحركاتهم الحربية » .

وظل سليمان باشا الفرنساوى يواصل مهمته الجليلة حتى عصر سعيد باشا ، ودخل في نسيج المجتمع المصرى ، فتزوجت إحدى بناته بمحمد شريف باشا (أبو الدستور) فأنجب منها فتاة تزوجت عبد الرحيم صبرى باشا وأثمر هذا الزواج فتاة هى ملكة مصر السابقة (نازلى) أم الملك الراحل فاروق .

وتقديرا من المصريين لهذا الرجل الذى يرجع اليه الفضل في بناء أول جيش مصرى صميم ، أقاموا له تمثالا في الميدان المسمى باسمه وأطلقوا اسمه على أحد شوارع القاهرة ، فلما قامت ثورة الجيش في يوليو ١٩٥٢ أطاحت بالتمثال وألقت به في ساحة المتحف الحربى ، ونزعت اسمه من الميدان والشارع وأطلقت عليهما اسم طلعت حرب ، ومع ذلك لا يزال المصريون يفضلون استعمال اسم (شارع سليمان) ربما لأنه أسهل .. وربما وفاء منهم لذكرى هذا الرجل العظيم .

قتيل بنها العسل

كان

عباس الأول أسوا ملوك أسرة محمد علي . بل أسوا الحكام الذين توالوا على ملك مصر .. كان يجمع بين الجهل والغباء .. وتنطوى نفسه على شردفين نحو كل الناس بمن فيهم اهله والمحيطون به ، حتى انفض من حوله معظم أفراد الأسرة العلوية هربا برفاقهم من أن تنالها سيوف الوالى .

حكم عباس الأول مصر ست سنوات كانت ديجورا داكنا ليس فيه خيط نور .. وقد تولى الحكم فى حياة جده محمد علي ، بعد وفاة عمه البطل المغوار ابراهيم باشا .. ورغم أن عمه سعيدا كان من أولاد محمد علي - إلا أن نظام الوراثة الذى فرضه الانجليز والعثمانيون على محمد علي بمقتضى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، كان يقضى بأن يكون الحكم لأكبر أفراد الأسرة سينا .. وشاء الحظ العاثر أن يكون كبير القوم أجهلهم وأغباهم .. وهذا أكبر دليل على فساد نظام توريث الحكم .. فمن يضمن ألا يكون الوريث فاسدا متلافا يبدد ثروة لم يتعب فى جمعها ، ويهدم ما بناه أسلافه .. ! وهذا ما فعله عباس ، إذ أغلق المدارس والمصانع والمؤسسات التى بناها جده .. واستدعى البعثات التى كانت تتلقى العلم فى أوروبا .. واستدار نحو العلماء الذين رباهم محمد علي .. ومنهم رفاعة الطهطاوى - فشئت شملهم ونفاهم إلى أقاصى السودان ليأمن « علمهم » .. !



وكان عباس الأول مثل الخفافيش .. يكره النور .. ويستوحش من الناس ، ولا يتحرك إلا فى الظلام .. فهجر القاهرة وأقام لنفسه عدة قصور فى بطون الصحراء ، كان أضخمها قصر فى العباسية - وكانت فى ذلك الوقت صحراء موحشة - كما بنى قصرا فى صحراء السويس ، وقصرا فى العطف ، وقصرا على النيل فى بنها العسل .. وهو القصر الذى لقي فيه مصرعه .. وكان يأوى إلى تلك القصور ليبتعد عن الناس ولا يحيط به الا شرذمة من العبيد والغلمان ..

وقد اختلفت الروايات فى مؤامرة مقتل عباس ، فمن قائل إن

عمته الأميرة زهرة - أرملة محمد بك الدفتردار - هي التي دبرت المؤامرة من منفاها في تركيا . وكانت تعرف شغف ابن أخيها بالغللمان فدست له غلامين جميلين كلفتها بالسفر الى مصر والتحايل على الالتحاق بخدمته وقتله ، فلما جاء الغلمان الى القاهرة عرضا نفسيهما في سوق الرقيق ، وكان لعباس وكيل مت صص في شراء الغلمان المُرد .. فما إن وقع بصره عليهما حتى اشتراهما والحقهما بخاصة الأمير .. وكان من عادة عباس أن ينام في حراسة غلامين ، فلما جاء الدور على هذين الغلامين انتظرا حتى غط في النوم ثم دخلا عليه واخمدوا أنفاسه ثم أسرعوا الى الهرب الى الاسكندرية ومنها الى استانبول قبل اكتشاف الجريمة وهناك قبضا ثمن المهمة من عمة الأمير .

وهناك رواية أخرى تقول ان مقتل عباس كان جزءا من مؤامرة من مؤامرات القصور التي كانت شائعة في ذلك العصر . وخلاصة القصة ان عباس كان يصطفى بعض عبيده المقربين ويفرق عليهم الرتب العسكرية والاراضي الشاسعة على غير كفاءة يستحقونها ، وكان على رأس هذه الشرذمة مملوك اسمه خليل بك درويش ، ولكنه بدافع الغطرسة والغرور أساء معاملة رؤوسيه فاستطالوا عليه بالغمز واللمز ، وخاصة أنه كان جميلا صغير السن ، فشكاهم الى مولاه فامر بجلدهم وتجريدتهم من الوظائف العسكرية والحقهم بخدمة الاسطبلات . ولجأ هؤلاء المنبوذون الى مصطفى باشا امين خزانة الأمير ليتوسط لهم عنده ، فانتهاز فرصة قدوم الوالى الى قصر بنها ومعه أحمد يكن باشا وابراهيم باشا الألفى محافظ القاهرة ، ورجاهما التوسط لدى الوالى ليعفو عن اتباعه ، فاستجاب عباس لهما وعفا عنهم وأعادهم الى مناصبهم فجاءوا الى بنها ليرفعوا له تشكراتهم وهم يضمرون قتله ، فاتفقوا مع غلامين من خاصة عباس كانا يحرسانه وهو نائم ففتحا لهم الباب ودخلوا غرفة الأمير فشعر بهم وحاول المقاومة .. ولكنهم تكالبوا عليه حتى تمكنوا من خنقه ثم لاذوا بالفرار .. فلما كان الصباح ولم يستيقظ الوالى في موعده دخل عليه يكن باشا والألفى باشا فوجداه مخنوقا في فراشه ، فكتما الخبر ثم نقلوا جثمانه الى القاهرة وهناك أعلن خبر قتله ، فتنفس الناس الصعداء .. وأحسوا بارتياح شديد كان كابوسا ثقيلا انزاح من فوق صدورهم .

النبأ السعيد

اشتدت وطأة المرض على والى مصر محمد سعيد باشا ، نصحه أطباء أوروبا بالعودة الى بلاده ليلفظ فيها أنفاسه بدلا من البهدلة

لها

فى بلاد الفرنجة .. واستجاب سعيد لنصيحة أطبائه وعاد إلى قصره بالاسكندرية ينتظر ملك الموت بين لحظة وأخرى ، ولم يكن اسماعيل - وريثه على العرش - اقل استعجالا لنهاية عمه حتى يستريح من الآلام المبرحة ، ويقفز هو إلى عرش المحروسة ، وذاعت اخبار احتضار الوالى فى انحاء البلاد ، وبدأت الأنظار تنصرف عن الشمس الغاربة فى مياه الاسكندرية وتتجه نحو قلعة القاهرة حيث يقيم الوالى المنتظر ، وأخذت زرافات المنتفعين والوصوليين ومحترفى السلطة تتحرك نحو القلعة ترقب النجم الصاعد .. وتحجز لنفسها مكانا فى دولة اسماعيل المقبلة .

● ● ●

وكان من عادة ذلك الزمان ان يتعطف الحاكم الجديد بالإنعام برتبة البكوية على أول شخص يحمل إليه نبأ الولاية ، أو برتبة الباشوية إن كان يحمل رتبة البكوية ، فضلا عن صرة من العملات الذهبية ، وكان رئيس مكتب التلغراف بالقاهرة - ويدعى بسى بك - يعرف هذا التقليد فكان أشد الناس تحرقا إلى تلقى نبأ موت الوالى سعيد فيكون أول من يزف (النبأ السعيد) الى اسماعيل .. وظل الرجل مرابطا فى مكتبه لا يغادره ليلا ولا نهارا .. وبين الحين والآخر يتصل بزميله رئيس مكتب تلغراف الاسكندرية يستعجله الخبر ، ومرت الأيام والليالي ، والمسكين لا يذوق طعم النوم حتى أوشك على الانهيار ، ثم خطر له ان يتمدد لبضع دقائق يختطف فيها قسطا من الراحة حتى يتمكن من مواصلة العمل ، فاستدعى معاونه - وكان رجلا خبيثا - وقال له : انت تعرف طبعا ياعزيزى أهمية خبر وفاة الوالى وتعرف انه سيعود علينا بالخير العميم ..

قال معاون فى بلاهة : أجل أعرف ياسيدى ..

قال بسى بك : وتعلم اننى لم أذق طعم النوم منذ أيام ..

قال معاون : أجل أعلم ..

قال بسى بك : إذن سوف ادخل الى مكتبى لأغفو قليلا .. إذا جاء النبا السعيد فما عليك إلا ان توقظنى فورا .. وستكون لك عندى مكافأة ٥٠٠ فرنك ..



وقبلَ المعاون الغرض ، ودخل بسى بك الى مكتبه وهو بملايس الشغل فاستلقى على أريكة جلدية قديمة ، وراح فى سبات عميق .. وماهى إلا دقائق حتى تلقى المعاون نبأ موت الوالى سعيد ، فأمسك بالبرقية وفتح باب غرفة رئيسه فوجده يغط فى النوم وأصوات شخيرته تزلزل أركان الغرفة ، فاوحد عليه الباب وانطلق من فوره الى القلعة ، وكشف للحراس عن مهمته فذهبوا به الى القصر وأدخله رجال البلاط الى القاعة الرئيسية حيث كان اسماعيل يترقب وصول النبا السعيد .. وتقدم الموظف جائيا على ركبتيه وهو يرفع البرقية الى الوالى الجديد .. فما إن قرأها اسماعيل حتى طفرت من عينيه دموع الفرح .. وسقطت البرقية من يده فالتقطها المعاون وهو لا يزال جائيا فى انتظار المكافأة - وأقبل رجال البلاط والحاشية يزفون التهاني الى ولى النعم .. وتلفت اسماعيل فوجد الموظف لا يزال راكعا شاهرا البرقية فى يده .. فتبسم ضاحكا من إصراره وقال له « انهض يابك » ونهض المعاون .. وقدم له احد رجال القصر الصرة الذهبية فأخذها .. ثم غادر القصر عائدا الى مكتب التلغراف وتذكر المكافأة الموعودة من رئيسه ، وبلغ به الجشع ان رفض التغاضى عنها بالرغم من انه أصبح من حملة العملات الذهبية ، فدخل على بسى بك وأيقظه من نومه وقدم إليه البرقية وكأنه تلقاها على التو .. ونهض الرجل وهو يهتز طربا .. وانهاه على معاونه تقبيلا ، وهم بالخروج فى طريقه الى القلعة ولكن المعاون ذكره بالمكافأة ، فأخرج المسكين كل ما فى جيبه من نقود مصرية وتركية وفرنسية ، ودسها فى جيب المعاون ، وانطلق من فوره الى القلعة والبرقية فى يده وهو يمنى نفسه برتبة الباشوية وبالصرة التى سترفعه من زمرة الموظفين التعساء الى صف الموسرين السعداء ، ولكن ما إن بلغ مشارف القلعة حتى سمع دوى المدافع ابتهاجا بتولية اسماعيل ، وبُهِتَ المسكين واقترب من احد رجال البلاط يستفسره النبا فأبلغه بما حدث من معاونه . وصعق الرجل من هول الخيانة التى ارتكبها

مساعده وقفل عائدا الى مكتبه حزينا كسييفا ناقما على الرجل الذي خدعه مرتين ، مرة عندما انفرد بصره الذهب ، ومرة عندما سلب منه المكافأة التي لا يستحقها ، فلما بلغ المكتب وحاول تعنيف معاونه الخبيث ، حذره الأخير من التناول عليه باعتباره (زميل) ويحمل نفس الرتبة التي يحملها هو .. فقد تساوت الرؤوس (ومفيش حد احسن من حد) .. واستفاق الرجل من هول الصدمة .. واخذ يلعن نفسه لأنه وضع ثقته بإنسان ليس أهلا للثقة .

حادث على النيل

زيارة السلطان عبدالعزيز ، خليفة المسلمين
وامبراطور الدولة العثمانية لمصر عام ١٨٦٣
حدثا جليلا لا تزال ذكراه ماثلة في

كانت

الشارع الذى يحمل اسم « عبد العزيز » والممتد بين ميدان العتبة
وميدان عابدين ، وظل احد اهم شرايين الحركة التجارية فى
القاهرة حتى منتصف القرن الحالى . وكانت هذه اول زيارة يقوم
بها سلطان عثماني لمصر منذ افتتاحها سليم الاول بقائم سيفه عام
١٥١٧ ، وتحولت مصر من يومها الى اية تركية يحكمها وال قادم
من الآستانة ، بعد أن كانت دولة مستقلة ذات نفوذ وسلطان يمتد
شمالا إلى حلب ، وجنوبا إلى منابع النيل ، وشرقا الى اليمن
والخليج .

وقد اراد الخديو اسماعيل ان يجعل من زيارة سيده الخليفة
فرصة يشاهد خلالها معالم الحضارة المصرية الحديثة ، وفي
طليعتها قطار السكة الحديدية الذى استقله السلطان هو
وحاشيته من الاسكندرية الى القاهرة ، فانبهروا به انبهارا عظيما ،
إذ كانت المرة الاولى التى يرى فيها السلطان مثل هذه الاعجوبة
التى تتحرك على قضبان من الحديد ، وتختصر المسافات وتطوى
الزمن ، فى عصر كانت السيادة فيه للبغال والخيول ، وأخذ
السلطان هو وأمراء البيت العثماني يتفقدون اجزاء القاطرة ،
ويسألون عن كل صغيرة وكبيرة ويستمعون الى شرح مفصل من
مهندس القاطرة وسائقها عن كيفية حركتها .. وايقافها . ثم
يستمعون فى شغف الى صفارتها الحادة التى تنطلق لتنبه الناس
إلى حركتها فيفسحون لها الطريق .

فلما جاء موعد تحرك القطار استقل السلطان صالونه الخاص ،
بينما جلس الخديو فى مقعد مجاور ليكون تحت إذنه فى أية
لحظة . وركب باقى الأمراء العثمانيين والمصريين فى عربات
القطار الذى أخذ يقطع سهول الدلتا الممتدة عبر الأفق . وأخذ
السلطان يرسل الطرف بعيدا بعيدا إلى الحقول الخضراء تتخللها
القنوات والترع .. والفلاحون المصريون أنصاف عرايا ، وقد
انحنوا أصلا بهم على الطين . انهم نفس الفلاحين الذين اجتاحتهم

جيوش الاسكندر وقمبيز وقيصر ولويس التاسع وسليم الأول ..
فما نالت من صلابتهم ووداعتهم وارتباطهم الوثيق بالأرض التي
خرجوا منها .. لقد اندثر الطغاة ، والمتجبرون أو ذابوا في طين
مصر بمن فيهم الأتراك . وبقي المصريون يفلحون الأرض
ويستخرجون السنابل وينشرون الأمن والسلام على العالم .



فلما بلغ القطار كوبرى كفر الزيات أبدى السلطان عبد العزيز
هو وحاشيته إعجابهم ببنائه ، وأخذوا يعظمون من شأنه ،
ويبالغون في تقدير نفقاته ، ولكن اسماعيل قال للسلطان إن
تكاليف بنائه لم تتجاوز سبعة ملايين فرنك ، وأخذ البرنس حليم ،
أصغر أنجال محمد على ، يروى للضيوف قصة نجاة من الغرق
قبل خمس سنوات ، حين سقطت به العربة من الكوبرى حتى
غاصت في النيل ، وكان يشاركه فيها الأمير أحمد رفعت ابن أخيه
البطل الشهير إبراهيم باشا ، والوريث الشرعى للعرش بعد
الوالى سعيد ، ولكن رفعت لم يتمكن من الإفلات من العربة بسبب
بدانته المفرطة فمات غريقا . وبذلك انتقلت وراثة العرش تلقائيا
إلى أكبر الأمراء سنا : اسماعيل .

ومن المؤكد أن اسماعيل لم يكن مبتهجا ، وهو يستمع إلى
تفاصيل هذه المأساة التي كانت تثير الأقاويل حول دور اسماعيل
في تدبيرها كي ينفسح أمامه الطريق إلى العرش ، وقد اختلفت
الروايات بشأن تفسير هذا الحدث ، فمن قائل أن الكوبرى ترك
مفتوحا سهوا فلما بلغ القطار بداية الكوبرى لم يتمكن السائق من
إيقافه فانزلق بركابه حتى غاص في قاع النيل ، ولكن إلياس
الأيوبى المؤرخ المتخصص في تاريخ عصر اسماعيل يرفض هذه
القصة ، لأن كوبرى كفر الزيات لم يكن قد تم إنجازه نهائيا وقت
وقوع الحادث . ويفضل الأخذ برواية بعض الكتاب الغربيين
الذين أرخوا لهذا الحادث ومنهم « ماك كون » و« إدون دى ليون »
وخلاصة القصة أن القطارات كانت في ذلك الوقت تجتاز النيل عند
كفر الزيات فوق معدية تنقل عرباتها ثلاثا ثلاثا .. وكانت مصلحة
السكة الحديدية تترك للركاب حرية الاختيار بين النزول من
العربات أثناء نقلها إتقاء للخطر ، أو العبور فيها ، ولكن
الأميرين : حليم ورفعت - وكانا في عربة واحدة - أبيا النزول من

العربة وفضّلا البقاء فيها أثناء العبور فوق المعديّة ، وبالغ العمال المكلفون بدفع العربة في دفعها بقوة إظهارا لنشاطهم وشهامتهم وغيبتهم .. فتدحرجت العربة وانزلقت وغرقت بمن فيها . وكان الأمير رفعت بدينا فلم يستطع الوثوب من نافذة العربة الى الماء فأخرج منها ميتا مخنوقا ، وأما حليم فكان خفيف الجسم فإنه وثب من النافذة إلى الماء واجتازه سباحة .



أما الشبهات التي تنثور حول تامر اسماعيل ، فمنشؤها أن اسماعيل كان من المفترض أن يشارك الأميرين مركبة الموت . فقد كان الأمراء الثلاثة يقضون الليلة السابقة في ضيافة الوالى سعيد باشا بالاسكندرية ، وكان برنامج الرحلة يقضى بأن يعودوا معا للقاهرة بالقطار ، ولكن اسماعيل تخلف فجأة عن مصاحبتهم وأعرب عن رغبته في البقاء بالاسكندرية لبضعة أيام .. وكان تخلفه هذا مثيرا للشكوك والظنون . ولم يستطع اسماعيل أن يمحو هذه التهمة التي علقت به وكانت سببا في حدوث القطيعة بينه وبين عمه حليم ، الذي خسر المعركة وأفلح اسماعيل في نفيه من مصر ، ولا شك أن هذه الشكوك شجعت اسماعيل على تغيير نظام وراثة العرش ، فاستغل وجود السلطان في ضيافته ، وقدم اليه الرشاوى والهدايا الفاخرة حتى انتزع منه فرمانا يجعل ولاية العهد في أكبر أنجال الخديو .. فكان أغباهم واضعفهم واتعسهم : محمد توفيق .

ثائر من الأزهر

الخدّيو اسماعيل بعض مشايخ الأزهر ضمن عليه
المصريين الذين يتشرفون بالمثل أمام
السلطان عبدالعزيز خلال زيارته التاريخية

وضع

لمصر المحروسة ، ووقع الاختيار على أربعة من أكابر العلماء لكي
يستقبلهم السلطان في قصر القلعة ولايتبادر إلى الذهن أن هذا
اللقاء يعنى أن يجلس السلطان مع العلماء ويتبادل معهم الحوار
في شؤون الاسلام والمسلمين ! لم يكن اللقاء يتضمن شيئا من ذلك
لأن خليفة المسلمين لم يكن يعرف كلمة عربية واحدة ، وأن
المقابلة لم تكن تتعدى دخول العلماء القاعة السلطانية لإلقاء
التحية على السلطان ثم يعودون من حيث أتوا وهم ركوع .. !
وكانت المشكلة التي اقلقت اسماعيل هي كيفية تعليم المشايخ
الأربعة أصول وقواعد المثل بين يدي خاقان البرّين وملك
البحرّين وخادم الحرمين الشريفين ، وكان البروتوكول التركي من
التشدد بحيث يلزم الداخلين على السلطان - بمن فيهم شيوخ
الاسلام - بالانحناء وتطويح الأيدي حتى تلامس الأرض ثم رفعها
الى مستوى الرأس .. ثم التقهقر نحو الباب وهم على هذه الحال
المهينة ، وطلب الخديو من قاضي القضاة التركي أن يتكفل
بتدريب الشيوخ الأربعة على هذه الحركات البهلوانية ، فافهمهم
فضيلته أن المقابلة ستكون في قاعة يقف السلطان في صدرها على
منصة مرتفعة عن الأرض قليلا ، بينها وبين باقي القاعة حاجز
مفتوح من وسطه ، وأنه ينبغي لهم إذا مابلغوا الباب ووقعت
أعينهم على جلالته أن ينحنوا انحناء عظيمًا ويسلموا بكلتا
اليدين حتى تمس الأرض ، ثم يتقدم كل منهم نحو فتحة الحاجز
بخطوات موزونة حتى إذا صار أمامها كرر الانحناء والتسليم
ووقف ، ويرد السلطان عليه تحيته ، فيعيد حينئذ الانحناء
والتسليم مرة أخرى ، ثم يرجع متقهقرا ووجهه إلى السلطان إلى
أن يبلغ باب الخروج فيكرر الانحناء والتسليم ثم ينصرف مثلما
دخل حتى يتوارى عن نظر السلطان .

فلما استغرب العلماء أن تقتصر المقابلة على تلك الحركات من
الانحناء والتسليم قال لهم القاضي التركي إن الأمر لكذلك . فقالوا

« قد فهمنا » . فلما جاء دورهم فى المقابلات دخل ثلاثة منهم وفعل كل منهم ما علمه القاضى أن يفعل ، وكان الخديو واقفا خلف السلطان وعينه تراقب تحركاتهم ويحمد الله أنهم أدوا أدوارهم بإتقان .



فلما جاء الدور على الشيخ العدوى دخل وانحنى عند الباب مثل السابقين . ولكنه سرعان ما رفع قامته وأخذ يمشى نحو لسلطان بخطى وثيدة . وحذاؤه الثقيل يدك البلاط المرمرى ، ولم يعاود الانحناء أو التسليم ، وفزع اسماعيل من تصرف الشيخ الذى خرق البروتوكول وأخذ يبحث عن ينقذ الموقف قبل أن يحدث ما يغضب السلطان ، ولكن الشيخ العدوى مضى فى طريقه نحو الخليفة حتى وصل الى الحاجز فجأوزه .. وصعد الى المنصة التى يقف عليها السلطان - واسماعيل يتوارى ذعرا - ونظر الشيخ العدوى الى عبد العزيز بعين ثابتة وقال « السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله » فوثب قلب الخديو من جرأة الشيخ ولولا مهابة السلطان لركل الشيخ وطرده ، ولكن الخليفة ابتسم بلطف ورد على الشيخ السلام ثم انحنى امامه انحناء خفيفة ، حينئذ انطلق لسان الشيخ من عقاله وأخذ يخاطب السلطان فيما يجب عليه نحو رعاياه بصفته كبير الحكام وبصفته مسئولاً عن شئون الرعية ، وأكد له أن ثوابه عند الله تعالى سيكون بمقدار ثقل المسئولية وحسن أدائه لها ، كما أن عقابه عند الله على قدر إهماله الأمانة .

عندئذ امتقع لون الخديو اسماعيل ، وأخذ يلعن الساعة التى اختار فيها هذا الشيخ (المجذوب) .. ويسب من أشار عليه باختياره .. وأخذ يتوقع أن يحاسبه السلطان على تصرف الشيخ العدوى حساباً عسيراً .. ولكن المفاجأة أن ملامح الارتياح بدت على وجه عبد العزيز .. فلما فرغ الشيخ من خطبته ختمها بالسلام الذى بدأها به ، ثم انحنى أمام السلطان وأقفل عائداً بوجهه لا يظهره كما فعل الآخرون . وسبحته فى يمينه .. فلما خرج الى البهو وجد زملاءه فى انتظاره وهم يتميزون غيظاً ويلومونه على فعلته وينذرونه باوخم العواقب فقال لهم : « ولماذا أنتم منزعجون .. ! أما أنا فقد قابلت امير المؤمنين ، وأما أنتم فكانكم

قابلتم صنما ، وكانكم عبادتم وثناً .. » .
ثم التفت السلطان إلى اسماعيل يسأله : من الشيخ ؟ فبادر
اسماعيل يعتذر ويقول : انه من أفاضل العلماء ولكنه أبله
ومجذوب !! فقال السلطان « لا .. انه ليس مجذوبا .. وإنى لم
انشرح لمقابلة أحد انشراحى الى مقابلته .. » وأمر للشيخ
العدوى بخلعة سنية وألف جنيه جائزة .



ولقد كذب اسماعيل ، وصدق عبد العزيز ، فلم يكن الشيخ
العدوى مجذوبا ولا مجنونا كما أراد اسماعيل ان يصفه ، ولكنه
كان عالما يعرف قدر نفسه وقدر العلم الذى يحمله بين جنبيه ،
وقدر الأمانة التى تفرض عليه ان يكون شجاعا فى حضرة أمير
المؤمنين .. وهذه القصة التى نقلها المؤرخ إلياس الأيوبي عن
السيد محمد عاشور الصدفى سبط الشيخ العدوى تؤكد صدق
مانزعم .. ولعل الموقف البطولى الذى اتخذه الشيخ العدوى
أثناء الثورة العرابية كان أصدق دليل على شجاعته ، لقد جرفته
أحداث الثورة وشارك فى كل مراحلها مناوئا للظلم والاستبداد .
وبعد ضرب الاسكندرية وانحياز الخديو توفيق الى الانجليز كان
العدوى احد الشيوخ الذين أصدروا فتوى اعلنوا فيها مروق
الخديو عن الدين لخروجه على الاجماع الوطنى ، ووقوفه فى
صف الأعداء .. وبعد فشل الثورة عانى الشيخ العدوى مثلما
عانى كل المخلصين الشجعان السجن والضرب والاهانات ..
وعرفته غرف السجون والمعتقلات ثم قدم الى المحاكمة فحكمت
إحدى المحاكم بتجريدته من جميع الرتب وعلامات الشرف
والامتنياز . فخلعها الشيخ راضيا .. وبقيت له أعلى المراتب فى
نفوس الناس ، وسيظل اسم الشيخ العدوى رمزا لكرامة العلم
وشجاعة العلماء فى كل عصر ومصر .

أفراح الأنجال

كان

الخديو اسماعيل مصابا بداء الفخفة وحب الظهور ، وهو داء وبيل له مفعول القمار إذا تمكن من انسان قضى عليه ودفعه الى بيع ثيابه ، وبرغم الأعمال المجيدة التي قام بها هذا العاهل المستنير ، فإن تصرفاته الخرقاء أكلت حسناته كما أكلت عرشه وألقت به طريدا منبوذا في العواصم الأوربية ، مثل أى مدمن بدّد ثروته من أجل المتعة القاتلة .

كان إسماعيل يستدين من الصعاليك والمرابين الأوربيين ليقم حفلات فاخرة يبهر بها أنظار ضيوفه ، ويخدعهم بثرائه الكاذب . وكان الأجانب أعلم الناس بحقيقة الوضع المالى للخديو المفلس ، فكانوا يأكلون من خيره ويصبون عليه اللعنات لسفاهته وحمقه ، وكان اسماعيل مشغوقا بإقامة الحفلات الأسطورية التي جعلت من ليالى ألف ليلة وليلة حقيقة لا خيالا .. وإذا كانت حفلات افتتاح قناة السويس أشهر مظاهر السفه الاسماعيلى .. إلا أن الحفلات التي أقامها بمناسبة « أفراح الأنجال » كانت أكثر بذخا وإسرافا .. وأشد خطرا على المسار الاقتصادى ، فقد أقيمت فى وقت انكشفت فيه الخزانة العامة وأوشكت على الافلاس ، ولكن اسماعيل تجاهل هذه الحقيقة المؤلمة ، وتمكن منه داء حب الظهور ، فاستجاب لرغباته المجنونة وأخذ ينثر الأموال ذات اليمين وذات الشمال وكأنه قارون فى زمانه .



فى منتصف يناير ١٨٧٣ قرر إسماعيل تزويج أربعة من أنجاله هم : توفيق « ولى العهد » وحسين وحسن وفاطمة ، وأراد أن يجعل من هذه المناسبة حدثا يتناقله الرواة وتحدث به الركبان ، ويفوق فى ابهته ونفقاته حادث زواج الأميرة قطر الندى بنت حاكم مصر خمارويه بن أحمد بن طولون ، بالخليفة العباسى فى بغداد ، فقد دامت أفراح الأنجال أربعين ليلة كاملة بمعدل عشرة أيام لكل فرح ، وطوال هذه الأيام تحولت القاهرة إلى مهرجان كبير تسطع فيه الأنوار حتى اختلط الليل بالنهار ولم يعد الناس يفرقون بين الصباح والمساء .. ! وتحولت القصور الخديوية فى القبة وعابدين وقصر النيل والجزيرة وغيرها إلى مراقص صاخبة

وحانات عامرة تقدم أطيب الطعام والشراب لعشرات الألوف من المدعوين الذين جاءوا يغترفون من نهر الملذات الذى أقامه إسماعيل .. !

ولقد أفاض مؤرخو عصر إسماعيل فى وصف البذخ والفخفة والإسراف الذى حدث فى أفراح الأنجال ، ويكفى أن تقرأ وصف زفة « شوار » الأميرة أمينة منذ خروجها من القصر العالى إلى قصر القبة حيث كان يقيم العريس « التعيس » محمد توفيق .. فقد سارت زفة الشوار عبر شوارع القاهرة تخفرها الفرسان بزى عربى بديع ، وآلى مشاة بأسره بملابس بيضاء ناصعة كالثلج ، تتقدمه جوقة موسيقية من أمهر العازفين ، وكانت الهدايا موضوعة فى أسبقة مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب على مخدات من القطيفة المزركشة بالذهب والماس ، يغطيها شاش فاخر يمسك بأطرافه أربعة عساكر فى كل عربة ، ويتبعهم ضباط بملابسهم الرسمية والسيوف مشهرة فى أيديهم . وكانت تلك الهدايا عبارة عن مجوهرات سنية ، وقلائد ماس ساطعة من النوع المعروف باسم « البرلنتى » ومناطق من الذهب الخالص ، واقمشة مطرزة باللؤلؤ عديم المثل ، وزمرد فى حجم البيض ، وملابس بيضاء مطرزة عليها رقم الأميرة باللالىء والحجارة الكريمة ، وأنية متنوعة من الفضة الصب الخالصة بكميات عظيمة ، وكان بين الهدايا المقدمة من « إسماعيل » لأكبر أبنائه سرير من الفضة الصب الخالصة ، شبيه بالذى أهداه الى الامبراطورة أوجينى اثناء اقامتها بمصر ، محلى بماء الذهب الابريز ، وعواميده الفضة مرصعة بالماس والياقوت الأحمر النادر والزمرد والفيروز .. ولم يختلف شوار الأميرات عين الحياة هانم وخديجة هانم وفاطمة هانم والهدايا المهداة إليهن ، عن شوار أمينة هانم .. الخ . ولم يكن احد من أهالى القاهرة الذين شاهدوا أفراح الأنجال يعرف من أين أتى حاكمهم الهمام بهذه الأموال الطائلة ! ولم يكن أحد منهم يجرؤ على طرح هذا السؤال .. فقد كان إسماعيل حاكما شرقيا لا يُسال عما يفعل .. ولكن لم تمض بضعة اعوام حتى كان إسماعيل يقف ذليلا خائرا أمام أصحاب الديون الأجانب الذين وقفوا ببابه ، وأخذوا بخنائه ، يطالبونه بأموالهم مضافا اليها فوائد تبلغ أضعاف ما أخذ. وكانت نهاية إسماعيل المفجعة .. وهى نهاية كل مسرف متلاف .

فرعون الصغير

كان

للخديو اسماعيل أخ من الرضاغة اسمه اسماعيل صديق ، لعب في حياة الخديو وفي حياة مصر كلها دورا خطيرا أثناء الأزمة المالية

الطاحنة التي أخذت بخناق البلاد ، وانتهت بضياع استقلال مصر ، وضياع مستقبل الأخوين. فالأول فقد عرشه ، والثاني فقد حياته في مأساة مرعبة بعد أن تربع على خزائن الأرض عشر سنين . أصبح خلالها الرجل الأول في الدولة - بعد الخديو - والمتصرف الأوحى في شئونها المالية والإدارية ، حتى خلعوا عليه لقب « الخديو الصغير » أو الصدر الأعظم المصرى . لم يكن اسماعيل صديق - كما يتبادر الى الذهن - من أبناء الطبقة الراقية التي كان الوزراء والحكام وقادة الجيش يختارون منها وتضم بقايا المماليك من ترك وشركس وكرد وارانأود فضلا عن شرانم الألبان الذين استقدمهم محمد على ، وجعل من هؤلاء وأولئك أركان حكمه وأنعم عليهم بالأراضى التي صادرها من أصحابها المصريين ، وإنما كان اسماعيل صديق من أبناء الفلاحين الذين فقدوا أرضهم ، وأصبحوا أجراء يعملون بالسخرة في الزراعة وحفر الترغ وشق المصارف ، فهو - كما وصفه مؤرخ معاصر - ابن فلاح صعلوك الأصل طالما مدَّ أجداده ، بل أبوه ذاته ، تحت الكرباح ، وأزرقَّت أرجلهم حتى دفقت دما من تعاقب السياط عليها ..



والروايات التاريخية لا تقدم لنا تفسيراً معقولا للظروف التي مكنت لهذا الفلاح المصرى المعدم من اختراق حاجز الفقر والصعود الى عالم الجاه والسلطان، فى وقت لم يكن يسمح فيه للمصريين بالخروج على النطاق المرسوم لهم . كل ما يذكره المؤرخون أن الوالدة باشا - خوشيار هانم زوجة الوالى ابراهيم باشا - شعرت بجفاف البانها بعد ولادة طفلها اسماعيل ، فسأقت إليها الأقدار فلاحه مصرية لقتولى إرضاع الوليد مع ابنها الذى أطلقت عليه اسم الأمير تبركا وتقربا . فنشأ الصبى فى دهاليز القصور الخديوية ، يتقلب فى أعطاف النعيم ، وينهل من ينابيع

العز ، وكان من الطبيعي أن تنشأ بين الطفلين عاطفة مشتركة امتدت عبر السنين ، فما إن تولى اسماعيل عرش الديار المصرية حتى أطلق يد أخيه يتصرف في أمورها على هواه . ومن حق القاريء العزيز أن يتوقع من هذا الفلاح أن يكون رفيقا بأهله وعشيرته ، رحيمًا بالطبقة التي ينتمى إليها أباه وأجداده ، وفيما للبلد الذي خرج من طينته ، ولكن العكس هو الذي حدث ، فإذا بنا أمام فرعون صغير يبطلش بالفلاحين ويتفنن في تعذيبهم ويرغمهم على هجرة الأرض التي يزرعونها لتنتقل ملكيتها إلى أخيه الخديو حيناً .. وإلى ملكيته الخاصة حيناً آخر .. وكان الرجل يتمتع بقدر هائل من الدهاء حتى وصفه بعضهم بأنه لم يكن له مثيل بين رجال الذكاء والتفنن في مصر ، ولكنه - للأسف - لم يستخدم قدراته للتخفيف من ويلات الشقاء التي كان يعانيها أبناء وطنه ، وإنما تحول إلى سوط عذاب ، حتى استطاع في خلال السنوات العشر التي تولى فيها وزارة المالية أن ينافس أمراء البيت المال في ثرائهم وبذخهم وترفهم وسفهم ، وعندما أوشكت شمس حياته على الغروب كانت ممتلكاته قد بلغت ثلاثين ألف فدان من أجود الأراضي العشورية ، وثلاثة قصور فخمة تحيط بها الحدائق الغناء في ميدان الاسماعيلية (التحرير حالياً) عدا قصر بديع على ترعة المحمودية بالاسكندرية ، تحتوي على أفخر الرياش والتحف . أما مجوهراته فقدرت بحوالي ٣٠٠ ألف جنيه انجليزي بأسعار ذلك الزمن ، وكان يمتلك حوالي ٣٠٠ جارية من مختلف الأصناف والأجناس ، ولكن في لحظة من لحظات الغضب الملكي .. ضاع كل شيء ..

شيخ المنسر

لم يكن اختيار الخديو اسماعيل لأخيه اسماعيل صدييق باشا لمنصب وزير المالية مجرد ، إرضاء لعاطفة الأخوة التي جمعت بينهما في مرحلة الرضاع ، وإنما كان الاختيار محسوباً بميزان المنفعة بين رجلين معدومي الضمير ، كان اسماعيل الخديو في حاجة الى رجل متفطن في السطو على الأموال وابتزازها بشتى الحيل ، ولا تثريب عليه أن يقتطع لنفسه نصيب الثعلب مادام أن نصيب الأسد مصوناً ومحفوظاً . وكان اسماعيل صديق هو ذاك الرجل الذى يتمتع بمواهب جهنمية فى تدبير المال اللازم بأخس الوسائل لإرواء عطش الخديو حتى يواصل سياسته البلهاء فى البذخ والسفه والظهور أمام الأجانب بمظهر الفخفة والعظمة .. ولو كانت خزانة البلاد أظهر من قلب المؤمن !

فى ذلك الوقت كانت البنوك الأوروبية قد أمسكت يدها عن إمداد الخديو بالقروض بعد أن لاحت عليه تباشير الإفلاس ، فلم يعد أمامه إلا أن يستدير الى الداخل .. ليفتك بالمصريين ويسطو على ما فى أيديهم من مدخرات قليلة جمعوها من شقاء العمر .. ولكن هذه العملية كانت فى حاجة الى جيش كبير من زبانية السلطة ورجال الإدارة ليتعقبوا الفلاحين فى عقر دارهم ويستخرجوا ما لديهم من أموال عن طريق القمع والارهاب ، وكان اسماعيل صديق يملك هذا الجيش بحكم منصبه القديم كمفتش عام على عموم القطر ، من واجبه تعيين المحافظين والمديرين والمأمير واتباعهم من العمد والمشايخ .. فلما أصبح وزيراً للمالية وقعت الطامة الكبرى إذ جمع فى يده كل الخيوط التى تمكنه من تنفيذ سياسته الجهنمية ، وبدأ (المفتش) ومن ورائه جهازه الإدارى مثل (شيخ منسر) يحط على قرى مصر فيسلبها المال والزاد .. ولا يتركها إلا قاعاً صفصفاً تضحج بالأنين .



وفى سبيل ابتزاز أموال الفلاحين تفتق ذهن المفتش عن أساليب لا تقل انحطاطاً عن أساليب الحواة ولا عبي الثلاث ورقات .. من ذلك أنه كان يبيع المحاصيل الزراعية للمرابين الأجانب وهى لاتزال شجيرات خضراء فى الحقول ويتعهد

بتسليمها لهم بعد جنى المحصول ، فإذا حل الموعد قامت الحكومة ببيع المحصول لتجار آخرين وقبضت الثمن .. فإذا احتج الأجانب إلى قناصلهم تولى (المفتش) تعويضهم بأن يشتري منهم المحصول الذى باعه لهم (على الورق) بسعر اعلى من السعر الأول مضافا اليه فائدة ٢٠٪! كل ذلك من أجل إرضاء نزعة الخديو المدمرة وحاجته المستمرة إلى المال .. فلما ضاقت السبل أمام الخديوى للحصول على مصدر جديد للمال ، ابتكر له المفتش وسيلة غريبة تتلخص فى إجبار الفلاحين على دفع ضريبة الاطيان لمدة ست سنوات مقدما مقابل الاعفاء من نصف الضريبة إلى الأبد .. وهو ما يعرف بقانون (المقابلة) . وكان الفلاحون يعرفون أن عهود الحكومة حبر على ورق وأنها مجرد حيلة لإرغامهم على تقديم الاموال الى الخديو الجشع .. ومن يمتنع يتكفل الزبانية بتأديبه حتى يتعلم أن العين لا تملو على الحاجب .. وأن الماء لا يجرى فى العالى .. وأن مشيئة الملوك لا ترد ..



والجرائم التى ارتكبها (المفتش) أكثر من أن تحصى ، ولكن اعظمها من وجهة نظر الوطنيين المصريين هى إيعازه إلى أخيه الخديو ببيع نصيب مصر فى أسهم شركة قناة السويس . وكان هذا النصيب يقارب النصف ، مقابل مبلغ يقل عن أربعة ملايين جنيه ، وهو الذى فاوَّضَ القنصل البريطانى فى الصفقة ، وهو الذى وضع خاتمه على الأسهم قبل أن يتسلمها القنصل ويودعها قاع سفينة كانت فى طريقها إلى إنجلترا ، وكانت تلك بداية الطريق المشئوم الذى انتهى بضياع استقلال مصر المالى وخضوعها للإشراف المباشر من جانب الحكومة البريطانية ، وكانت صفقة الأسهم آخر سهم فى جعبة الوزير المحتال ، ولكنها كانت آخر مسمار فى نعشه ، فما إن وصل الخبراء الانجليز الى القاهرة لإصلاح مالية مصر ، حتى كان أول مطالبهم اقضاء المفتش عن منصبه الخطير ، وتحتير الخديو اسماعيل ووجد نفسه أمام خيارين أحلاهما مرّ .. ولكن كان عليه أن يضحي بأخيه كى ينجو بنفسه .

سقوط فرعون

كانت

مصر بكل طبقاتها - فقراء وأثرياء وأمراء - تغلى بالنقمة على اسماعيل صديق باشا (المفتش) ويتحينون الفرصة للفتك بهذا الجبار الذى يتحكم فى مصائر البلاد والعباد ، ويختلس من الاموال ما ينوء بالعصبة اولى القوة .

كان مثل هامان فى طغيانه وسطوته واستهتاره .. وكان اشبه بقارون فى جشعه وطمعه وزهوه .. وكما سقط هامان وقارون وفرعون ، كان لابد أن يسقط المفتش ويلقى نفس المصير الذى لاقاه الطغاة والجبابرة ، فلا نفعتهم اموالهم ، ولا هم أفادتهم عزتهم ، وإنما مضوا غير مأسوف عليهم ، لم يخلفوا وراءهم إلا أسوأ الذكريات .

ومع أن النصيب الأكبر من أذى المفتش وقع على عاتق الفلاحين المصريين إلا أنهم بحكم ضعفهم التاريخى كانوا أقل قدرة على زحزحة الرجل عن موقعه العتيد ، وتكفلت جبهة الأمراء العلويين بالقيام بهذه المهمة العويصة لأسباب لا تمت بصلة الى المظالم التى عاناها المصريون ، وإنما لاستئثاره دونهم بالأسلاب والمغانم ، وجراته على منافسته لهم - وهو الفلاح الجلف - فى حياة البذخ والنعيم ، وتَفَوُّقه عليهم فى بناء القصور واقتناء الجوارى والمحظيات ، وكان أكثر الأمراء حقدا عليه أبناء الخديو الثلاثة : توفيق وحسين وحسن . الذين ساءهم قرب الرجل من أبيهم وحظوته عنده ، ودلاله عليه ، غافلين عن رسالته العظمى فى النصب والاحتيال والسطو والابتزاز لتوفير المال لأبيهم ، كانوا ينظرون الى قضية المفتش من زاوية ضيقة جدا ، هدفها إقصاء الغرباء عن وَلَى النِّعَم ، أما الخديو فكان يهمل هذه الدسائس الصغيرة ولا يقيم لها اعتبارا .

● ● ●

أما الخطر الأكبر على مصير المفتش ، فقد جاءه من جانب الانجليز الذين بات من حقهم الهيمنة على مالية مصر بمقتضى مرسوم أصدره الخديو اسماعيل لحماية مصالح الدائنين الاجانب ، واعلنت الرقابة الثنائية من انجلترا وفرنسا ، فتولى الرقيب الانجليزى الاشراف على ايرادات الدولة ، وتولى الرقيب

الفرنسى الإشراف على مصروفاتها .. وكان الرقيب الانجليزى « جوشن » يضمن عداء شخصيا للمفتش لأسباب قديمة .. فما إن بدأ يقلب فى الدفاتر حتى اكتشف انه ليست هناك ميزانية حقيقية !! وإنما المسألة لا تعدو أن تكون « ضيعة » خاصة يتحكم فيها الخديو وأخوه .. وأن الأخوين « اسماعيل » ليسا أكثر من لصين يقتسمان الأسلاب ، ولذلك رأى ان يبدأ بإزاحة اصغر اللصين . ولم يكن من اليسير على الخديو ان يستجيب لهذا المطلب ، لأنه يعرف جيدا انه شريك اصيل فى كل ما ارتكبه المفتش من جرائم وكوارث ، وإذا كان الانجليز يتغدون بالمفتش عند الظهر ، فسوف يتعشون بالخديو فى المساء .. فامتنع عن طرده ، عندئذ هدد الانجليز بتقديم المفتش الى المحاكمة بتهمة اختلاس ٤٠ مليون جنيه وجدوها فى الدفاتر .. وهنا فقط اقتنع بجدوى اختفاء المفتش من الحياة كلها وليس من الوزارة فحسب . كان يعلم ان اخاه لن يتورع عن كشف كل الاوراق وفضح المستور .. وإظهار حقيقة الخديو الذى تسبب فى تخريب بلده ووضعها فى هاوية الافلاس .

ونسى الخديو كل ما فعله أخوه من أجله .. ولم يفكر إلا فى النجاة بنفسه . ولمعت فى ذهنه على الفور فكرة التخلص من الرجل الذى أفنى حياته فى جمع المال الحرام وببنى مجده على أشلاء البؤساء والمعذبين ، ولم يغادر الحياة إلا وقد هوى مجده .. كأنه قبض الريح .

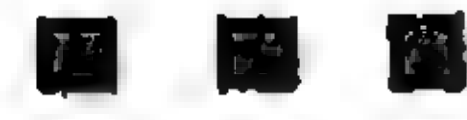
ذو الأصابع الفولاذية

كان

الخدّيو اسماعيل قد اتخذ قراره النهائي بالتخلص من أخيه في الرضاع اسماعيل صديق باشا (المفتش) قبل أن يفلت لسانه ويفضح المخازى التي ارتكبها الاثنان وتسببت في خراب خزّانة مصر . وتم ترتيب وسيلة الاعدام على النحو الذى كان متبعاً في ذلك العصر .. ففي صباح اليوم الموعد استدعى الخديو أخاه المفتش الى قصر عابدين ليصحبه في نزهة خلوية على ضفاف النيل ، وركب الاثنان العربة الخديوية المكشوفة على مرأى من الجميع وهما يتضاحكان .. وقد اعتبر المفتش هذا الرضاء السامى أكبر دليل على كذب الشائعات التى ترددت عن قرب نهايته . وعبرت المركبة كوبرى قصر النيل فى اتجاه قصر الجزيرة (فندق ماريوت حالياً) فلما توقفت أمام بوابة القصر تقدم الحرس فألقوا القبض على المفتش وساقوه الى الداخل وهو يصيح مستغيثاً بأخيه الذى عاد وحدّه إلى قصر عابدين . واستدعى الخديو المجلس المخصوص (أشبه بمجلس الوزراء) واستصدر منه قراراً بإبعاد المفتش الى دنقله بالسودان .

وحمل مصطفى باشا فهمى محافظ القاهرة (والد السيدة صفية زغلول) القرار ومضى الى قصر الجزيرة لإبلاغه الى المفتش وإقناعه بالتزام الهدوء والصمت . ولكن المفتش الذى تربى في احضان الدسائس والمؤامرات كان يعلم جيداً ان قرار اعدامه على وشك التنفيذ . وعبثاً حاول إقناع المحافظ بخطر التخلص منه باعتباره حاملاً لرتبة « المشير » العثمانية التى تحوّل دون محاكمة حاملها إلا فى الأستانة . ولكن متى كان الباب العالى يابّه لمثل هذه المؤامرات التى تجرى كل يوم فى القصور الملكية . وبعد قليل صعد المفتش بصحبة المحافظ الى سفينة نيلية كانت فى انتظارهما ، وألقى الحرس بالمفتش فى إحدى غرف السفينة التى أقلت باتجاه الجنوب ، بينما بقى المحافظ على ظهر السفينة فى انتظار تنفيذ عملية الاعدام بواسطة اسحق بك ، وكان رجال تركيا متخصصاً فى الإجهاز على ضحاياهم بطريقة فظيعة .. فقد كان يملك قبضتين فولاذيتين فيهما باليسرى على فم الضحية

ليكنتم انفاسه بينما يقبض باليمنى على الخصيتين فيعتصرهما
اعتصارا حتى يلفظ أنفاسه .



وما إن عبرت السفينة مقياس الروضة حتى تقدم اسحق بك
لتنفيذ مهمته . فدخل على المفتش وهو قابع فى ركن الغرفة كالفار
المدعور .. فقام بمهمته خير قيام . ولم يستغرق الأمر أكثر من
خمس دقائق ظن بعدها اسحق بك ان المفتش قد أسلم الروح ، فمدَّ
يده لانتزاع الخاتم الذهبى الذى يضعه المفتش فى سلسلة ذهبية
تحيط بعنقه .

ولم يعلم ان فى جسد الرجل بقية من حياة انتهزها للانتقام من
قاتله ، ففتح فمه كسمك القرش وقضم أصبع إبهام اسحق بك حتى
قطعه تماما .. وكانت تلك آخر انتفاضة فى جسد المفتش .. سكن
بعدها الى الأبد .. وعندها تقدم بعض الحرس ووضعوا جثته فى
جوال غليظ ومعه احجار ثقيلة ثم القوا به فى النيل حتى استقر
فى القاع .. عندئذ توقفت السفينة أمام ساحل المعادى ونزل
المحافظ مصطفى باشا فهمى حيث كانت فى انتظاره عربة خديوية
حملته الى قصر عابدين ليحمل الى مولاه خبر نهاية المفتش ..
بينما واصلت السفينة طريقها الى السودان . وهى ترسل الى
القاهرة كل حين برقيات مكذوبة تنشرها الصحف عن حالة المفتش
الذى لا يكف عن البكاء وطلب الصَّفح .. وشرب الخمر .

وبعد اسبوع من وصولها إلى دنقلة تطوع طبيب انجليزى
أفاق بكتابة تقرير يزعم فيه ان المفتش قد مات متأثرا من انفجار
الرائدة الدودية ، وأنه سمح بدفنه بعد ان وقع الكشف الطبى
عليه .. ولم تخجل الصحف من نشر هذا الخبر المكذوب ، وكان
الناس يقرأون الصحف ويبتسمون .. وكان الناس فى ذلك العهد
نادرا ما يبتسمون .

نوبار باشا

ربما

لا يعلم كثيرون من المصريين أن أول رئيس للوزراء في تاريخ مصر المعاصر كان رجلا أرمنيا مسيحيا هو نوبار باشا الذي لا يزال اسمه قائما على أحد الشوارع الرئيسية بوسط القاهرة وعلى إحدى الترع الكبيرة بمحافظة البحيرة . وكان نوبار أحد ثلاثة « رجال دولة » برزوا في عصر الخديو اسماعيل ، وكان لهم دور مؤثر في مجرى الأحداث طوال النصف الثاني من القرن الماضي ، والآخران هما : شريف باشا « أبو الدستور » ورياض باشا « نصير الاستبداد » . وسوف أتحدث عن الثلاثة بدءا بنوبار لأنه كان أسبقهم ظهورا على مسرح السياسة والحكم ، وأكثرهم إثارة للدهشة والتساؤل : إذ كيف تَسَنَّى لمثله أن يكون أول رئيس للوزراء رغم الفروق الدينية والجنسية ، وفي وقت كان الاعتبار الديني يوضع في المقام الأول . ولكن الدهشة تزول إذا عرفنا أنه من مواليد « أزميز » بتركيا .. أي أنه كان عثمانيا الجنسية، الأمر الذي فتح أمامه الباب للدخول في نسج الحياة المصرية والصعود إلى القمة من خلال نظام لا يعترف للعناصر الوطنية المصرية بحق المشاركة في شئون الحكم أو تولى المناصب القيادية في الدولة .



كان محمد علي - برغم الخدمات الجليلة التي أداها لمصر - تركي النزعة ، وينطوى على ازدراء لكل ما يمت إلى المصرية الصميمة بصلة ، وورث عن قومه كره اللغة العربية - لغة الفلاحين - فحكم مصر ولم يكلف خاطره تعلم العربية أو جعلها لغة الدواوين أو تعليمها أحدا من أبنائه ، وعاش ومات وهو يتكلم بالتركية . وحاكم هذا وصفه كان من الطبيعي أن يغض النظر عن العناصر المصرية ويحتضن العناصر التركية حتى لو كانت غير تركية أصلا ، ويكفي أن تتكلم التركية وتنتمي ولو شكلا إلى الدولة العلية ، وكان (بوغوص بك) أحد هذه العناصر التي استفادت من التقاليد التي وضعها محمد علي لشغل مناصب الدولة المصرية ، فهو من الأرمن الذين يكرهون العثمانيين كراهة

التحريم ، ولكن إتقانه للغة التركية فتح امامه السبيل للترقى فى مناصب الدولة حتى أصبح الوزير المقرب من ولى النعم .
وكان نوبار - ابن اخت بوغوص بك - قد تخطى مرحلة الصبا فى ازمير وذهب الى فرنسا ليستكمل تعليمه ، واعتزم الانخراط فى الجيش الفرنسى ، ولكن خاله نصحه بالمجئ الى مصر ليحرب حظه فيها بشرط ان يتعلم التركية ، فاستجاب لنصيحة خاله ثم جاء الى مصر فالحقه بقلم الترجمة ، وما هى إلا عشية وضحاها حتى كان ضمن حاشية محمد على الذى عينه سكرتيرا خاصا لابنه ابراهيم فلازمه فى كل جولاته ، واكتسب ثقته وثقة بقية الحكام من اسرة محمد على ، الذين عمل فى خدمتهم الى ان مات عام ١٨٩٩ فى عهد عباس حلمى الثانى .



والمؤرخون الذين تحدثوا عن نوبار يقولون إنه كان يتمتع بصفات مميزة ، أهمها الجدية والجد والكبرياء والأنفة والعزوف عن اللهو والمجون ، والامتناع عن نفاق الحكام وإرضاء نزعاتهم بالغش والخداع .

هذه صفات يصعب على صاحبها ان يحافظ على موقعه فى ظل حكام شرقيين يتصفون بالمزاجية والتقلب والبطش باقرب معاونيهم ، فكيف استطاع نوبار ان يحافظ على وجوده فى موقع الصدارة دون ان يفقد رأسه ؟

البعض يفسر ذلك بان نوبار كان يعرف اتجاهات الريح ، فلما أدرك ان شمس اسماعيل توشك على الغروب ، وأن خيوط الحكم سوف تنتقل حتما الى ايدى الانجليز ، تخلى عن سيده ولجا الى لندن يحرض الحكومة البريطانية على تادييب اسماعيل وتقييد سلطاته المطلقة عن طريق وزارة مسئولة متحررة من سيطرة الخديو وكانت وجهة نظر نوبار انه لا امل فى إصلاح الخراب الذى تسبب فيه اسماعيل إلا بالحجر عليه وتقييد حكمه المطلق . وتلاقت افكار نوبار مع رغبات انجلترا التى كانت تعمل على توطيد وجودها فى مصر عن طريق المشاركة فى الحكم وبسط نفوذها على الشؤون المالية .



ولم يكن نوبار يمانع فى مشاركة الانجليز فى الوزارة المصرية

المقترحة ، بل كان يؤيدها. ويبرر ذلك بأن المشاركة هي السبيل الوحيد لضمان استقلال مصر .. ومن الطبيعي أن يستفز هذا التبرير المشاعر الوطنية ، ولكن نوبار كان يعيش العصر الذي لا يعترف بحق المصريين ويرى أنهم غير أكفاء في تحمّل المسؤولية أو - على أبسط الفروض غير قادرين على مواجهة الحكم المطلق الذي يمثله اسماعيل . فكان عليه ان يؤدّب اسماعيل بالعصا الانجليزية . وخضع الخديو لأوامر الانجليز واصدر اول « دكريتو » بتشكيل الوزارة المصرية برئاسة نوبار باشا وتضم خمسة وزراء . منهم وزير انجليزى للمالية ويراقب الايرادات ووزير فرنسى للأشغال ويراقب المصروفات .. وبعد عشرة شهور فقط كان الخديو يغادر مصر طريدا منفيا .. وبقى نوبار ليواصل المشوار الذى اختطه لنفسه منذ كان صبيا يلعب فى حوارى ازمير ..

نيللى .. وتوابعها

يكتمل الحديث عن نوبار باشا دون الحديث عن الأرمن ، وخاصة الجالية الأرمنية التي استوطنت مصر ، وأصبح لها وجود بارز في بعض نواحي الحياة المصرية الحديثة .

لا

والأرمن شعب عريق ، كان لهم في التاريخ القديم دولة كبرى تسمى مملكة أسيا الصغرى ، تنسب الأساطير تأسيسها الى (حايك) من سلالة نوح ، ولكن دولة الأرمن لم تستمر طويلا بسبب الحروب والهجمات التي طوقتها من كل جانب ، وإذا كانت بعض الدول قد تفسخت وذهبت ضحية موقعها ، ووقوعها في بؤرة الصراع بين القوى العظمى - فإن دولة الأرمن كانت من هذه الدول التي أدركتها لعنة الموقع ، فتناوبت عليها جيوش الآشوريين والميديين والفرس واليونان والرومان ، وجعلوا منها ساحة للصدام ، حتى إذا بلغ الأتراك العثمانيون أوج قوتهم أجهزوا عليها وضموها الى إمبراطوريتهم ، وبعد الثورة البلشفية وضع الروس أيديهم على ماتبقى من بلاد الأرمن وجعلوا منها إحدى الجمهوريات السوفيتية التي لا تزال تحمل إسم « أرمينيا » . وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه الكوارث الى هجرة الأرمن من ديارهم ليبدأوا عصر الشتات والانتشار في العالم . ولكنهم ظلوا دائما محافظين على قوميتهم ولغتهم وديانتهم ومذهبهم ، يحملون معهم أينما ذهبوا ذكريات العز القديم ، والتطلع الى اليوم الذي يستعيدون فيه مجدهم الغابر . فهم يعيشون في المجتمعات الجديدة حياة (الغربة) بكل ماتعنيه من لوعة القلق والخوف من المجهول .. يختلطون ولكن لا يمتزجون .. ويعملون بجهد ونشاط دون الدخول في نسيج الحياة الجديدة أو التورط في تعقيداتها الاجتماعية والسياسية .

● ● ●

وكانت مصر إحدى الدول التي اجتذبت الأرمن منذ أواخر القرن الماضي .. ولكن أفواجهم زادت بعد المذبحة الرهيبة التي شنّها الأتراك ضدهم عام ١٩١٥ وراح ضحيتها مليون ونصف المليون أرمني (وهذا يفسر لك سر العمليات الانتقامية التي تقوم بها منظمات أرمنية ضد السفارات التركية) وشق الأرمن طريقهم في

المجتمع المصرى فى وقت ارتفع فيه شعار « مصر للمصريين » بعد ثورة ١٩١٩ ، ولذلك حرص الأرمن على عدم مزاحمة المصريين فى الوظائف الحكومية أو تملك الأرض الزراعية ، واتجهوا الى الأعمال الحرة التى تعتمد على القدرات الخاصة والمواهب المتميزة كالموسيقى والرسم والتصوير فانتقوا صناعة الآلات الموسيقية وتكوين فرق الجاز وكتابة النوت . وكلنا يذكر « أندريه رايدر » الذى تخصص فى توزيع الموسيقى لكبار الملحنين كعبد الوهاب ، وفى مجال الرسم كان لهم باع طويل فى تطوير فن الكاريكاتير ، ومن يطالع صحف الثلاثينات سيجد رواد هذا الفن من الأرمن وأبرزهم « صاروخان » الذى يحمل اسم مدينة أرمنية شهيرة .

وعلى أكتاف الأرمن نهضت بعض الصناعات المحلية ، ليس أهمها البسطرمة والسجق كما يحلو للبعض أن يتندر ، ولاننسى صناعة الزيوت والسجائر والدخان التى أنشأها ماتوسيان وكوتاريلى وكاسيمس ، وفى وقت ما كان أشهر التريزية ومصممى الأزياء ومصطفى الشعر من الأرمن ، وكذلك محلات بيع الأدوات الكهربائية مثل نرسييس تشاكجيان الذى يقع فى ميدان العتبة .



وتتركز الجالية الأرمنية فى حى الظاهر بالقاهرة ولهم نواديهم الرياضية النشطة ولهم كنيستهم الخاصة على المذهب الأرثوذكسى ، ولهم مدارسهم التى تعنى بتعليم أبنائهم لغتهم ، وهى لغة عريقة من فصيلة اللغات الهندو أوروبية ، ولا يتحدث بها غيرهم ، فهى عامل من عوامل الحفاظ على الشخصية القومية وحمايتها من الذوبان رغم توالى العصور وتناى الديار .

ولكن هذا الاستقلال الباطنى لم يمنعهم من التغلغل فى المجتمع المصرى ، والتأثر بالروح المصرية والتعبير عنها بالرسم والموسيقى والأغنية والتمثيل ، خصوصا عند الأجيال الحديثة التى ولدت فى مصر وتشربت روحها واكتسبت عاداتها وتقاليدها .. ولعل أوضح مثال لذلك مجموعة الفنانين : نبيللى وثوابعها (أختها الكبرى فيروز وبنات خالاتها لبلبة وميمى جمال) وكل منهن برعت فى التعبير عن الروح المصرية بدرجة يصعب معها اكتشاف الحاجز الرقيق بين القومية المستكنة فى الأعماق ،

والروح المصرية المكتسبة ، وهذا الكلام ينطبق بالطبع على السلالات الأرمنية الجديدة التي امتصت الواقع المصرى وتطبعت به .

وإذا كان نوبار باشا - رأس الشجرة الأرمنية فى مصر - قد عاش طفلة حياته فى مصر غريبا عن روحها ، يجهل لغتها ويأنف من الاختلاط بأهلها - فإن الأجيال الأرمنية الجديدة اندمجت فى الحياة المصرية عن طريق الزواج والتعليم والمعايشة اليومية ، وباتت جزءا من المجتمع المصرى الذى توافدت عليه عناصر متنوعة من شتى الأجناس على مختلف العصور ، فلم يلفظها مادامت قد امتزجت به ، وإنما يهضمها ، ثم يعيد تشكيلها على نسق فريد .. وذلك أحد أسرار الروح المصرية الأصيلة .

ميرابو .. مصر

اشتهر

«ميرابو» في تاريخ الثورة الفرنسية بصيخته الجريئة التي ألقي بها في وجه جنود الملك حين اقتحموا مجلس طبقات الأمة لطرد النواب دون أن يناقشوا القضايا المصرية التي كانت بين أيديهم . عندئذ صاح ميرابو : إننا هنا بإرادة الشعب .. ولن نخرج إلا على أسنة الرماح .. !! وأصبحت هذه العبارة من مفجرات الثورة .. فبعدها تعاقبت الأحداث الدرامية التي شهدتها فرنسا خلال ثورتها الكبرى .



وبعد ٩٠ عاما من هذه الواقعة ، كان في القاهرة نائب شجاع قال نفس العبارة في موقف مشابه تماما .. كانت البداية التي توالى بعدها فصول الثورة العربية . أما النائب - واسمه عبد السلام المويلحي - فقد كان يمثل طليعة المعارضة الوطنية التي برزت في مجلس شورى النواب الذي أنشأه الخديو اسماعيل عام ١٨٦٦ ضمن خطته الرامية الى إشراك المصريين في المسؤولية ، وكانت الحكومة المصرية برئاسة نوبار باشا ، وتضم وزيرين أحدهما انجليزى والآخر فرنسى ، تعد العدة لإعلان إفلاس مصر كحل أخير لأزمة الديون الأجنبية ، وعلمت العناصر الوطنية في مجلس النواب بما تدبره الحكومة في الخفاء فاعدوا مشروعاً مضاداً ، يلتزم بمقتضاه المصريون بتسديد الديون من دخلهم القومى ، بشرط تنظيم الشؤون المالية ، وإصلاح مفاصل الإدارة بعيداً عن تدخل الوزيرين الأجانب ، وشعرت الحكومة بما تعده المعارضة الوطنية فبيّنت النية على إجهاض المشروع ، واستصدرت مرسوماً خديوياً بفض المجلس قبل مواعده .

وفي صباح الخميس ٢٧ مارس ١٨٧٩ توجه رياض باشا ، وهو منتفخ الصدر ، الى قاعة مجلس النواب بالقلعة ، وماكاد يفرغ من تلاوة قرار فض الدورة ، حتى انبرى له النائب الجريء عبد السلام المويلحي قائلاً : كيف ينفض المجلس وهو لم ينظر بعد في القانون الخاص بالشؤون المالية .. ؟ ! إن الأهالى قد انابوا عن انفسهم نواباً للمحاماة عن حقوقهم .. فمن الواجب ان يعرض جميع ما يتعلق بالأهالى على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه .. ومن

المستحيل ان ينفذ المجلس .. وبهت رياض باشا لهذه اللهجة التي لم يتعود سماعها من مصري ينتمى أبوه الى طائفة التجار .. فقال متسائلا : ماذا تقول حضرتكم .. ؟ مستحيل فض المجلس .. ؟ كيف يكون فض المجلس مستحيلا بعد أمر خديوينا المعظم .. هل حضرتكم فاهم قيمة مسئولية ماتقولوه ؟ واتجه رياض باشا الى بقية الاعضاء لتخويفهم حتى لا ينضموا الى هذا النائب الجريء وقال : ماظن حضرات اخوانك يوافقون على ماتقول ..



وكانت المفاجأة الثانية عندما اندفع الاعضاء الوطنيون لشد أزر زميلهم وعلنوا تضامنهم معه فى كل مايقول .. وهم رياض باشا بالقيام ايذانا بانتهاء الجلسة .. وعندئذ صاح عبد السلام المويلحى قائلا : اننا هنا سلطة الأمة .. ولن نخرج من هنا إلا بقوة الحراب .. !!

عندئذ وجم رياض باشا لدى سماعه هذه العبارة التاريخية التي أعادت الى ذهنه أحداث الثورة الفرنسية فعاد الى مقعده صائحا : يعنى حضرتكم تقلدون نواب فرنسا الذين ثاروا على حكومتهم .. ؟ يعنى حضراتكم الآن بعمائمكم وجيبكم مثل نواب اوربا وامريكا .. ؟

ورد النواب الالهانة بعشرة امثالها .. وصاح احمد العويسى : ياباشا انت الآن تشتم نواب امتك التي تعطيك انت وغيرك مرتباتكم الشهرية ، وقال عبد الشهيد بطرس : إن كلامك هذا وقاحة .. والمجلس لا يقبل هذه الوقاحة من ناظر الداخلية بل يردها عليه . وقال احمد الصوفانى : اوافق العضو على رد الالهانة للناظر حتى يعلم أن فى البلاد أمة حية ولها نواب يدافعون عن كرامتها . وهنا قال عبد السلام المويلحى : اسمعت ياباشا .. ؟ ارايت عاقبة تسرعك فى الكلام ؟ اعلم أن المسألة ليست مسألة زى وثياب . بل مسألة نواب لهم عقول تفهم جيدا رغبات الأمة التي انابتهم عنها اليس من العيب وانت وزير فى وزارة يزاملك فيها وزير انجليزى وآخر فرنسى ، وهما فى الحقيقة خفيران عليكم وعلى الحكومة ، ثم تجمع امس - امام الوزيرين الأجنيين - اصحاب الجرائد وتقول لهم : إن الحكومة عزمت على فض مجلس

شورى النواب غدا ، فالحذر كل الحذر من أن تنشروا كلمة واحدة عن هؤلاء النواب فى جرائدكم لأنهم ناس جهلاء وهمج .. تقول ذلك عن نواب بلادك ، مصر العزيزة ، ونحن جميعا درسنا فى الأزهر الشريف ،

فقال الشيخ حسن عبد الرازق : إن مقاله المويلحى يعبر عن أفكارنا جميعا .. فصاح النواب : موافقون .. موافقون .. فلم يملك رياض باشا إلا أن يغادر قاعة المجلس وهو يهذى : إذن انا منسحب .. أنتم عصاة .. أنتم ثوار .. فقال المويلحى موجها كلامه إلى كاتب الجلسة : لا تحذف حرفا واحدا مما قيل فى جلسة اليوم ، حتى إذا نقلته الجرائد غدا ، علمت الأمة جميعا من هم الهمج : النظار .. أم النواب .. !!

واستجاب النواب لطلب المويلحى باعتبار المجلس فى حالة انعقاد دائم .. وتناوب الأعضاء على المبيت فى القاعة .. حتى اهتزت أركان الحكومة فاستقالت .. ثم توالى الأحداث التى أفضت الى الثورة .

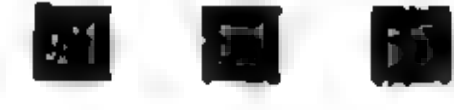
مجزرة همجية

في

الساعة السابعة من صبيحة الثلاثاء ١١ يوليو ١٨٨٢ أعطى الأميرال سيمور إشارة الضرب ، فانهالت قذائف الأسطول البريطاني على مدينة الاسكندرية كانت القنابل تنطلق بدقة واحكام ، فتصيب اهدافها اصابات مباشرة ، أما مدافع الحصون والطوابى المصرية فكانت ضعيفة خائرة متراخية ، فتسقط قنابلها في مياه البحر دون أن تصل إلى البوارج الانجليزية ، واستمر إطلاق الحمم حتى قبيل غروب الشمس ، وهي فترة كانت كافية لتدمير المدينة ، وتحويل أحيائها الآهلة إلى أطلال تتراكم فيها الجثث وتنقع البوم بعد أن فر سكانها وهاموا على وجوههم نحو الريف بحثا عن ماوى يقيهم نار الجحيم .

كانت مجزرة بشرية رهيبة ارتكبتها بريطانيا العظمى عقابا للشعب المصرى لأنه رفض الاستسلام للنقوذ الأوربى الذى تغلغل في أنحاء الديار المصرية ، وبات يشكل خطرا على روحها وشخصيتها وأخلاقها واستقلالها الوطنى ، كان حكام مصر من سلالة محمد على قد فتحوا ابواب البلاد على مصاريعها أمام الأجانب ومنحوهم امتيازات وحصانات جعلتهم بمنأى عن المساءلة إذا ارتكبوا أخط الجرائم ، ولم يكن هؤلاء الأجانب في مستوى الطبيب الشهير كلوت بك ، أو القائد العسكرى الكولونيل سيف ، وإنما كان معظمهم من حثالات البشر المكدرسين في الموانئ الأوربية من الأفاقين والمرابين وتجار الأعراض ، فلما تسامعوا عن الخير الوفير في مصر المحروسة شدوا إليها الرحال طمعا في الثراء الرخيص ، وامتهنوا أحقر المهن وانتشروا في خدمة الحانات والخمارات وبيوت الدعارة ، فلما كثرت النقود في أيديهم وظفوها في الربا ، واستطاعوا تملك الأراضي الشاسعة والعقارات الثمينة ، واستغلوا الامتيازات الممنوحة لهم في إذلال المصريين في عقر دارهم ، وكانت المحاكم القنصلية الأجنبية هي المختصة بنظر جميع أنواع المنازعات الخاصة بالأطليان ، ومنها الرهن ونزع الملكية . ولك أن تعجب أشد العجب إذا عرفت أن هذه المنازعات كان يطبق عليها ١٧ قانونا أجنبيا تطبقها ١٧ قنصلية ، ويقف وراءها وكلاء شداد غلاظ القلوب ماتت ضمائرهم

بفعل الطمع والجشع ، فكان على المصرى المسكين إذا خسر دعواه ضد الأجنبى أن يستأنفها أمام محاكم البلد التابع له هذا الخصم ، وإذا صدر على الأجنبى حكم بإخلاء أرض أو عقار لأحد المواطنين - كان الأجنبى يحتال على ذلك الحكم بالتنازل عن هذه الأرض لأجنبى آخر ، ويصبح على المصرى أن يقيم دعوى جديدة على الخصم الجديد .. وإزاء هذه الدورة الجهنمية كان المصرى يضطر إلى ترك حقه .. وبهذه الطريقة الخسيسة انتقلت الملكيات إلى الأجانب .. وأصبح المصريون كالأيتام على موائد اللئام .



فلما أفاق المصريون على هذا الخطر الداهم ، وقامت الحركة العرابية للحد من سطوة النفوذ الأجنبى ، انتفضت بريطانيا لتجهز الثورة بقوة السلاح ، وأوفدت أسطولها لتأديب المصريين حتى لا تقوم لهم قائمة ولا تراود خيالهم فكرة التحرر ، وجاء سيمور ليصحبها حمما على رؤوس أهل الاسكندرية فى ذاك اليوم المشئوم . ولقد وصف المسيو جون نينيه - عميد الجالية السويسرية وصديق المصريين - المجزرة بهذه الكلمات : « كانت البوارج الانجليزية تتقدم للضرب مثنى مثنى ، فى بطء ، ثم تصطف فى هوادة تجاه كل طابية مصرية ، وتصب عليها قنابلها حتى تدكها دكا ، وعندئذ تقترب منها تدريجيا وتنسف البطاريات والمدافع التى تكون قد انقلبت عن موضعها تحت تأثير قنابل الأسطول ، ثم تنثنى على الرماة المصريين فتحصدتهم حصدا بقذائف المتراليوزات المركبة على ساريات البوارج . ويجب أن نعترف بأن هذه مجزرة همجية لم يكن لها أى مسوغ ، وليس الباعث عليها سوى الشهوة الوحشية المتعطشة إلى القتل وسفك الدماء ، ولقد كان بوى أن أسائل أولئك الضباط الذين كانوا يباشرون الضرب ويقذفون قنابل المتراليوزات : هل يستطيعون حينما يعودون إلى بلادهم ويجلسون حول موائد الشاى فى بيوتهم أن يتحدثوا إلى ذويهم عن أثار القتل والتدمير ، التى خلفتها تلك المجازر البشرية ؟ إنى أشك فى ذلك ، فليت شعرى أى إهانة لحقت بالامة البريطانية من جراء هذا الجرم القبيح .. » .



وإذا كانت المجزرة قد حركت ضمير هذا السويسرى الشريف ،

فإنها لم تحرك ضمير العالم الأوربي الذي كان يتشدد بالحرية ، ويرطن بشعارات الإخاء والمساواة ، فقد وقفت كل الدول الأوربية تتفرج على المشهد وكأنها تتلهى برؤية إحدى حلبات المصارعة بين الأسود والعبيد في العصر الروماني ، حتى فرنسا الحرة تخلت عن شعاراتها ، ولم تجرؤ على أن تقول لغريمتها المتعجرفة « عيب » . وهرب الأسطول الفرنسي الذي كان يربط في مياه الاسكندرية قبيل الضرب ، هرب إلى بورسعيد بعد أن كثر له سيمور عن أنيابه ، وخابت آمال المصريين في فرنسا نصيرة الحرية والعدالة . بل حدث ما هو أدهى وأمر .. فقد اعتبرت الحكومة الفرنسية مجزرة الاسكندرية وماتبها من احتلال عسكري ، عملا من أعمال البطولة تستحق عليه بريطانيا التهنئة الحارة ، وكان جواب حكومة لندن على التهنئة : « إن انتصارنا هو انتصار أوروبي ، ولو انهزم الجيش الانجليزى لكان ذلك كارثة على كل الدول التي تحسب حسابا للتعصب الاسلامى » .

التعصب الاسلامى .. !!

انعم النظر في هذه العبارة الغريبة حتى يملكك الغيظ .. !
بريطانيا العظمى تحرك في نفس شريكاتها النعرة الصليبية المقيتة ، وترى في دفاع أمة صغيرة عن حريتها واستقلالها وكرامتها مظهرا للتعصب الدينى .. !! أما امتصاص دماء المصريين ونهب ثرواتهم ، وإذلال كرامتهم ، فهو عين التسامح الدينى الذى تريده الدول العظمى !
منطق غريب جدا .. ولكنه منطق الذئاب الضارية مع الحمل الوديع فى كل عصر .

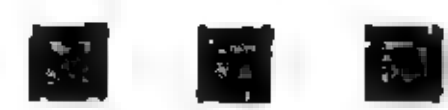
حرق الاسكندرية

الاستحكامات العسكرية في مدينة الاسكندرية قبيل ضربها في يوليو ١٨٨٢ قد بلغت درجة سيئة من التهالك والقدم ، فالحكام الذين استدانوا وأنفقوا الملايين على بناء القصور وإقامة

كانت

الحفلات وشراء الجوارى ، لم يفكروا في تجديد الحصون والطوابى وشراء المدافع الحديثة القادرة على مواجهة العدوان الخارجى . وبسبب هذا الضعف والاهمال لم تصمد الطوابى أمام النيران الهائلة التي صبتها قذائف الاسطول الانجليزى ، ولم يبق أمام الجنود المصريين الرابضين خلف المدافع الخائفة سوى الاستبسال والدفاع عن شرفهم وشرف بلادهم حتى الرمح الأخير . وكان الثمن غاليا .

يصف شاهد العيان جون نينيه صمود الجنود المصريين وكأنه يرسم لوحة زيتية رائعة لماساة دامية فيقول : « ماكان أبدع هذا المنظر .. منظر الرماة المصريين الذين كانوا قائمين على مدافعهم وهي مكشوفة في العراء وكانما هم في استعراض حربى لا يرهبون الموت الذى يكتنفهم ، إذ لم يكن لهم دروع واقية ولا متاريس ، وكانت معظم الحصون بلا سواتر ، ومع ذلك فهؤلاء الشجعان من أبناء النيل كنا نلمحهم وسط الدخان الكثيف كأنهم أرواح الأبطال الذين سقطوا فى حومة الوغى ثم بعثوا ليكافحوا العدو من جديد ويستهدفوا لنيران مدافعه ، وكان الأئمة يزورون الحصون ويشجعون المقاومة ، وقام الجميع بواجبهم من جند ورجال ونساء وصغار وكبار ، ولم يكن ثمة أوسمة ولا مكافآت تستحث أولئك الفلاحين على أداء واجبهم ، بل أن عاطفة الوطنية والثورة على الظلم التي استهدفوا لها كانت تستثير الحماسة فى صدورهم ، وهم أولئك الشجعان المجهولون الذين لم يفكر أحد فى الأهم . »



وفي اليوم التالى استأنف الاسطول البريطانى قصف المدينة الباسلة رغم أن الطوابى قد سكنت تماما بعد تخریبها ، ورفعت الرايات البيضاء ، وظهر جليا عزم الانجليز على احتلال المدينة بعد أن دكوا حصونها وحطموا كل وسائل دفاعها . وبينما كانت

طلائع قوات الغزو تطأ أرض الساحل السكندري ، اندلعت النيران فجأة في حي المنشية ، وماهى إلا ساعة أو بعض الساعة حتى انتشرت النيران في بقية الأحياء الشعبية والأجنبية ، وما إن حل المساء حتى كانت المدينة قد تحولت إلى شعلة من الوهج .

●● من الذى أمر بحرق الاسكندرية .. ؟

لايزال هذا اللغز موضع اهتمام الباحثين . وكان من الطبيعى أن ينصب الاتهام على رأس العربيين الذين أبوا أن يتركوا المدينة موطنًا سهلاً للغزاة ، ففعلوا ما فعله الروس فى موسكو عندما تقدمت إليها جحافل جيش نابليون فحرموه نعمة الأيواء فى مدينة أمنة ، وقال بعض الشهود إنهم رأوا عبد الله النديم - بعد الحادث - فى محطة سيدى جابر راكباً فى صهريج القطار وفى يده طبنجة وسمعوه يقول إنه قتل بها ثلاثة أشخاص وإن حرق المدينة كان بواسطة غاز أحضر بمعرفتهم وصُبَّ على الدكاكين والمنازل حتى يتم الحرق بسرعة .

وتكاد معظم المراجع التاريخية تجمع على أن الذى أمر بإحراق المدينة هو القائمقام سليمان سامى داود قائد الآلاى السادس الذى كان متمركزاً فى المدينة ولم يشترك فى القتال ، فقد أمر جنوده بإضرام النار فى المدينة على أمل أن يحول الحريق دون نزول الانجليز بها واتخاذها قاعدة حربية لزحفهم . ويصف الرافعى هذا العمل بأنه كان عملاً عقيماً يدل على الجهل بالخطط الحربية ، لأنه لم يعطل نزول الجنود الانجليز الى البر صبيحة اليوم التالى (الخميس ١٣ يوليو) كما يصف ذاك الضابط الكبير بأنه كان مشهوراً بالحمق والتهور وكان يعتبر نفسه « عرابى » آخر بالاسكندرية ، وقد صمم على ألا ينسحب الجيش من الاسكندرية إلا بعد أن يجعلها خراباً . ويتخذ الرافعى من هذا التصرف دليلاً على انعدام وحدة القرار بين القادة العربيين وينفى عن عرابى تهمة إصدار مثل هذا القرار الخطير .

ولقد أثبتت التحقيقات أن مسئولية إحراق المدينة وماتعرضت له من أعمال السلب والنهب لا تقع على عاتق القائمقام سليمان سامى داود وحده ، وإنما كانت هناك قوى أخرى اشتركت فى تخريب المدينة ، وفى ذلك يقول الإمام محمد عبده إن تهمة حرق الاسكندرية ينبغى أن توجه لأكثر من طرف ، فقد عثر على جثث

أروام بلباس عرب اثناء الحريق ، كما اشترك فيه عربان من أولاد
على ، ممن كانوا على صلة بالخدو توفيق ، ومنهم أهالي
الاسكندرية ومنهم اوريون بقصد المبالغة في طلب التعويضات .
ويقول شاهد العيان جون نينيه إن الحرائق الأولى شبت في
الأحياء الشعبية من قنابل الاسطول الانجليزى يوم الضرب ، ومن
فعل بعض الاوربيين الذين بقوا في المدينة بقصد النهب ، وبعض
الأشقياء الذين أطلق سراحهم من السجون ، اما حرائق الأحياء
الأوربية فهي من فعل عربان « أولاد على » الذين كانوا مجتمعين
حول البلد يعاونهم بعض عساكر الرديف وبعض الأروام ، ثم
بعض اصحاب الدكاكين من الأجانب ممن قصدوا الحصول على
تعويضات .



ورغم توزع المسؤولية على كل هذه العناصر ، إلا أن
المسؤولية وضعت في رقبة القائمقام سليمان سامى الذى نجح في
الفرار على ظهر قارب إلى جزيرة كريت وكانت تابعة للسلطان
العثمانى ، وبعثت سلطات الاحتلال البريطانى الى حكومة
استانبول تطلب القبض عليه وتسليمه إليها ، ولم يكن من حكومة
استانبول سوى الإذعان ، فالقت القبض عليه وبعثت به مخفورا
إلى مصر ، حيث قدم إلى المحاكمة العسكرية وحكم عليه
بالاعدام .

وكان سليمان سامى داود أحد ضابطين اثنين حكم عليهما
بالاعدام ، ونفذ فيهما الحكم بالرغم من تخفيف احكام الاعدام عن
قادة الثورة العرابية ، أما الضابط الثانى فله قصة أخرى .

الشهيد البريء

كان

من الطبيعي أن تسود الشارع المصرى روح الكراهية والعداء للأجانب بعد ضرب الاسكندرية واحتلال الانجليز لها . وكان المهاجرون من أبناء الاسكندرية قد انتشروا فى انحاء الدلتا يحكون للناس عن الفظائع التى وقعت لهم ، فثارت خواطر العامة ، وامتلات نفوسهم حقدا وغيظا ونقمة على الأوربيين الذين كان تواطؤهم مع الانجليز أمرا واضحا منذ بداية الأزمة ، وقامت جماعات من المتحمسين فى طنطا والمحلة الكبرى ومنوف تطارد الأجانب فى الشوارع وتعتدى على محلاتهم ، ولم تكن هذه التصرفات الهوجاء تحظى برضاء عقلاء القوم ، لما يعرفونه عن مخاطرها فى المستقبل ، فضلا عن منافاتها لروح السماحة المعروفة عند المصريين ، ونهض كبار الأعيان يفتحون بيوتهم لإيواء الأجانب وحمايتهم من الاعتداء ، وانفتح بيت أحمد المنشاوى باشا فى طنطا لاستقبال أكثر من ٣٠٠ شخص من الأوربيين فوجدوا فيه الحماية والأمان .

فى ذلك الوقت كانت المعارك دائرة بين الجيش البريطانى والجيش المصرى بقيادة أحمد عرابى باشا فى كفر الدوار ، وكان اللواء عبد العال حلمى باشا قائداً لجبهة دمياط ، قاوفا ياوره الخاص اليوزباشى يوسف أبو دية فى مهمة عاجلة إلى عرابى باشا فى كفر الدوار ، وأثناء توقف الضابط الشاب فى طنطا وجد شوارع المدينة قد تحولت إلى ساحة للشغب والفوضى ، فالأهالى يطاردون الأجانب فى غيبة من رجال الأمن . ولم يشأ الضابط الشهم أن يترك المدينة وهى على هذه الحال من الفوضى ويواصل مشواره إلى كفر الدوار ، وأبى عليه حسه الوطنى وإدراكه للمسئولية أن يقف متفرجا ويقول (وانا مالى) فمضى لقوه إلى مبنى المديرية فلم يجد مدير الغربية ابراهيم باشا أدهم فى مكتبه فى هذا الوقت العصيب . وقيل له إنه مريض وملزم الفراش فى بيته ، فمضى إليه فى بيته فوجده سليما وصحته زى البمب . فما كان من الضابط الشاب إلا أن انهال على الباشا المدير تقريبا وتوبيخا ، وغادر طنطا من فوره إلى كفر الدوار ، حيث حكى

لعرابى باشا عن قصة المدير المتمارض الذى لزم بيته تاركا
الفوضى تضرب اطنابها فى مدن الغربية ، وأبلغه ماسمعه عن
وقوع أحداث مشابهة فى المنوفية ، فانزعج عرابى انزعاجا
شديدا ، وأمر بالقبض على مدير الغربية ومدير المنوفية ،
وتقديمهما إلى محاكمة فورية أمام المجلس العسكرى المنعقد فى
القاهرة ، وأمر بإرسال أورطة من الجيش بقيادة الفريق راشد باشا
حسنى لإعادة النظام إلى مدن الغربية والمنوفية ، وأصدر
تعليماته إلى مصلحة السكة الحديدية بإرسال قطار خاص إلى
طنطا لنقل الأجانب الذين يرغبون فى السفر إلى الاسماعيلية
وبورسعيد بالمجان .



فلما انقلب الميزان ، وانهزم الجيش المصرى أمام جحافل
الاحتلال البريطانى ، خرجت الأفاعى من جحورها ، واستأسدت
الثعالب والذئاب ، وبدأت الحملة المضادة للانتقام من العناصر
الوطنية التى وقفت إلى جانب عرابى دفاعا عن استقلال الوطن ،
وفى إطار الانهيار الأخلاقى الذى عم البلاد تحول الخونة إلى
أبطال ، وانزوى الأبطال فى غياهب السجون ، وانقلبت قضية
المدير المهمل ابراهيم ادهم على أعقابها ، وخرج من سجنه ليوجه
الاتهام إلى الضابط الشاب يوسف أبو دية بأنه كان يحرض أهالى
طنطا على قتل الأجانب !! ولم يعدم المدير الهمام العثور على
بعض الساقطين من ذوى الذم الخربة ليشهدوا زورا أمام
المحكمة العسكرية بالاسكندرية بأن اليوزباشى أبو دية كان
يحرضهم على الفوضى والشغب .. ولم يكن لدى المحكمة
العسكرية وقت لتفنيذ هذه الدعاوى والتأكد من بطلانها ، فلم يكن
الوقت يسمح بمثل هذه الاجراءات القضائية . كان المطلوب سرعة
البت فى محاكمة العرابيين حتى يتفرغ الانجليز لتنظيم شؤون
الاحتلال .. وذهبت عبثا محاولات الضابط الشهم لإثبات كذب
الادعاءات التى افترها عليه المدير ، فحكمت عليه المحكمة
بالإعدام شنقا ، وسيق إلى السجن انتظارا لتنفيذ الحكم .



ومضت الأيام ثقيلة كئيبة حتى نشرت الصحف نبا الحكم
بالإعدام على الضابط البرىء يوسف أبو دية ، وثارَت ضماثر

بعض أهالى طنطا ، فقد أزعجهم أن يساق إلى حبل المشنقة ضابط
بتهمة التحريض على قتل الأجانب ، بينما شاهدوه بأعينهم وهو
يبدل قصارى جهده لوقف عمليات الاعتداء ، فتطوعوا بالذهاب
إلى مكاتب التحقيق بالاسكندرية ، وشهدوا بالحقيقة التى لمسوها
بأعينهم ، واستطاعوا إثبات كذب الشهادات المزورة التى قدمها
المدير ، واعدت هيئة التحقيق فتح ملف القضية واقتنعت بصحة
الوقائع الجديدة وكذب الأدلة التى استند إليها حكم الإعدام .
واعدت هيئة المحكمة تقريرها وانتهت فيه الى براءة اليوزباشى
يوسف أبو دية ، ورفعت تقريرها إلى وزير الحقانية طالبة
استصدار مرسوم من الخديو بالعفو على الضابط البرىء وأصدر
الخديو توفيق مرسوم العفو الذى حمله رسول خاص إلى
الاسكندرية . وثناء القدر العاثر أن يصل المرسوم إلى السجن بعد
خمس دقائق فقط من تنفيذ حكم الإعدام فى الضابط البرىء ، وقرا
مامور السجن مرسوم العفو ، بينما كانت جثة الضابط الشهيد
يوسف أبو دية تتدلى فى بئر المشنقة . ولم يتمالك الحاضرون
أنفسهم ، فاجهشوا بالبكاء بمن فيهم عشناوى نفسه .

أبو الدستور

كان

قاضى قضاة مصر عام ١٨٢٦ رجلا تركيا اسمه محمد شريف أفندى الشركسى ، وكان منصب قاضى القضاة من المناصب العليا التى تستأثر بها حكومة الخلافة العثمانية بحكم سيادتها على مصر رغم استقلال محمد على بمصر استقلالا فعليا ، وفى أثناء السنة التى قضاهما الشركسى أفندى بمصر انجب طفلا أسماه (شريف) ، ولم يلبث أن عاد به إلى الأستانة بعد انتهاء فترة خدمته بمصر ، وبعد سنوات عين الرجل قاضيا على الحجاز وفى أثناء ذهابه إليها عرج على مصر ليحظى ببركات ولى النعم محمد على الذى ما إن شاهد الصبى (شريف) حتى توسم فيه النجابة والذكاء وأدرك أنه سيكون له شأن وكان محمد على يتمتع بخاصية الفراسة فطلب من الأب إبقاء ابنه فى مصر ليتلقى تربية ملوكية مع أبناء الوالى ، ووافق الأب وترك الصبى وديعة فى كنف عزيز مصر ، والتحق شريف بالمدرسة العسكرية التى أنشأها محمد على فى الخانكة لتعليم أولاده أصول الضبط والربط ، وكان زملاؤه من أبناء العزيز : سعيد وحليم وحسين ، ومن الأحفاد اسماعيل ، فلما أتموا تعليمهم سافروا الى باريس ليلحقوا بمدرسة (الرسالة) التى أقامها محمد على لاستكمال تعليم المتفوقين من خريجي مدرسة الخانكة ، وهنا ظهرت ميول شريف لتعلم الفنون الحربية فالتحق بمدرسة (سان سير) وهى يومئذ أرقى المعاهد العسكرية الفرنسية وبعد تخرجه خدم فى الجيش الفرنسى سنتين فلما مات محمد على عاد إلى مصر وهو برتبة نقيب فدخل الجيش المصرى معاونا للكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) وتوطدت الصداقة بينهما حتى انتهت بالمصاهرة فتزوج الضابط الشاب ابنة سليمان .

وفى عهد الوالى سعيد تفتحت ابواب الترقى أمام شريف باشا فعينه رئيسا للحرس الخصوصى برتبة لواء ، وبعدها ترك الخدمة العسكرية وتفرغ للنشاط الدبلوماسى وساعدته على ذلك ثقافته الفرنسية فأصبح سفيرا متجولا وممثلا شخصيا للوالى فى المهام الخارجية فلما تولى اسماعيل ازدادت فرص الترقى أمام شريف حتى أضحى وزيره الأكبر وموضع ثقته لدرجة أن عينه (قائم مقام

مصر) أثناء غيابه في الخارج ، وكانت المرة الأولى التي يعين فيها نائب عن خديوى مصر من خارج الأسرة العلوية . هذا هو شريف باشا الذى ارتبط اسمه بكل الأحداث الجسام التى شهدتها مصر طوال ثلاثين عاما ، كان أجلها نشوب الثورة العرباوية ، وأفدحها وقوع الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ ، ولكن الشهرة الكبرى التى علقت باسم شريف إنما جاءت من ارتباطه بالدستور وبالحيوة النيابية وكلاهما خرج من أعطافه وبفضل مثابرته وإيمانه بالديمقراطية وبغضه للاستبداد .. والحكم الأتوقراطى وإصراره على حق المصريين فى ممارسة الأساليب الحديثة فى شئون الحكم .



كان من ثمرات هذا الكفاح النبيل أن شهدت مصر فى عام ١٨٧٩ تدوين أول دستور على أحدث المبادئ العصرية وأخذ شريف مسودة الدستور وذهب بها الى مجلس النواب الذى حاولت حكومة رياض الإطاحة به فأعاد شريف للمجلس اعتباره وطلب منه الاستمرار فى ممارسة مهامه النيابية احتراماً للقرار الذى اتخذته المعارضة الوطنية برفض حل المجلس ، وأعلن شريف أنه لن يوضع قانون ولن يعدل قانون - بما فيها القوانين الأساسية التى تقرر النظام الدستورى - إلا بقرار من المجلس ، وزيادة فى تكريم مجلس النواب وإضفاء صفة (اللجنة التأسيسية) عليه ، طلبت الحكومة من المجلس إقرار الدستور قبل عرضه على الخديو اسماعيل حتى لا يبدو وكأنه منحة من ولى النعم ومن المآثر التى سوف تذكر لشريف باشا إبد الدهر أنه ضمن هذا الدستور نصاً يخول لأبناء السودان حق انتخاب ممثليهم فى مجلس النواب تأكيداً للروابط التاريخية بين شطرى الوادى .



بعد كل هذا الا ترى أن شريف باشا يستحق عن جدارة لقب (أبو الدستور) .. ! إن النهج الذى نهجه هذا الرجل لا يزال ماثراً دهشة المؤرخين الذين سجلوا إصراره وصبره وانتزاعه حقوق المصريين السياسية من براثن اسماعيل وترداد الدهشة إذا تذكرنا أن شريف باشا لم يكن مصرياً أصيلاً ولا تربطه بالتراب المصرى وشيجة قديمة ، ولا تجرى فى عروقه قطرة واحدة من دماء

الفلاحين .. ! فما الذى دفعه الى سلوك هذا المسلك الوعر ليقف الى جانب الحقوق الدستورية للمصريين فى مواجهة السلطات الأتوقراطية التى كان يتمتع بها حكام مصر ومن يلوذ بهم من بقايا الترك والشركس والألبان .. وهو الذى ينتمى إليهم .. ؟ !

قصة مزعومة

قبل

أن أمضى فى الحديث عن شريف باشا ، أبى الدستور وراعى الحياة النيابية فى مصر الحديثة ، استأذن القارئ فى عرض هذه الحكاية التى تتصل بشريف نفسه ، وتلقى بعض الظلال على عملية ميلاد أول برلمان مصرى فى عام ١٨٦٦ وهو مجلس شورى النواب الذى أنشأه الخديو اسماعيل ليستكمل به ديكور الحضارة الأوربية فى مصر .

تقول القصة إنه قبيل انعقاد المجلس . لأول مرة ، اجتمع شريف باشا مع النواب (٧٥ نائبا) بالقلعة ، وألقى عليهم درسا فى أصول الاجراءات البرلمانية ، ومنها أن يشكلوا من بينهم حزبين : أحدهما يؤيد الحكومة ويجلس على مقاعد اليمين ، والثانى يمثل المعارضة ويجلس على اليسار ، وتظاهر النواب بأنهم استوعبوا الدرس ، فلما دخلوا القاعة جلسوا جميعا على اليمين ، فثار شريف باشا وأفهمهم أنهم بذلك يخرقون التقاليد ، ولكن النواب استنكروا طلبه وقالو له : كيف يخطر ببالك يا باشا أن يكون بيننا معارض لحكومة أفندينا وولى نعمتنا .. !! وتمضى القصة - امعانا فى السخرية - فتزعم بأن شريف باشا أصر على أن يجلس بعضهم فى مقاعد اليسار ، فما كان منهم إلا أن تحولوا جميعا الى مقاعد اليسار .. !!

● ● ●

فما رأيك - عزيزى القارئ - فى هذه النكتة التى يرددها بعض كتابنا حين يريدون التدليل على عظمة التطور البرلمانى المصرى المعاصر ، فلا يجدون أمامهم من سبيل سوى التحقير من شأن آباء الديمقراطية المصرية ، والتهكم على الرعيل البرلمانى الأول ، واطهاره بصورة الجاهل الذى لا يعرف الفرق بين مقاعد اليمين ومقاعد اليسار ولا يتخيل أن تكون هناك معارضة لحكومة ولى النعم .. !!

إنك لو عرضت هذه القصة على ميزان العقل - قبل عرضها على أدوات البحث التاريخى - فلن يستسيغها ، فمهما قيل عن وداعة المصريين وطيبتهم وصبرهم العريق وتمسكهم بالشرعية - وهو

قول فيه نظر - الا ان الامر لا يبلغ بهم حد البلاهة ، واستهجان قيام معارضة برلمانية ، ولو مصنعة ، بل المعقول ان تنشأ بينهم « خميرة » معارضة ولو على سبيل التقليد للغرب ، كما يشاع على لسان شريف باشا فى القصة المزعومة ، فضلا عن ذلك فإن المجتمعات الانسانية عرفت المعارضة فى كل الشرائع والنظم ، فلماذا يصرب بعض الكتاب على استثناء الشعب المصرى من هذه المزية التى عرفتها كل الشعوب .. !!



اما لو عرضت القصة على ميزان البحث التاريخى فسوف تكتشف انها قصة مختلفة ليس لها اصل فى مصادر التاريخ الموثوق بها ، وإنما هى من مخترعات الكتاب الاوربيين حين يطيب لهم السخرية من المصريين الذين لا يصلحون - فى رأيهم - لممارسة مبتكرات الحضارة الغربية ..

وهذه النتيجة هى التى انتهى اليها المؤرخ عبد الرحمن الرافعى بعد ان قُند القصة ومحصلها فلم يجد لها سنداً من اقوال شهود العيان الذين عاصروا نشأة المجلس ، ولا جاء ذكرها ولو تلميحاً فى مضابط المجلس ، ويضيف الى ذلك قوله بان الرواية لا يسيغها المنطق لأن نظام المجلس واختصاصه لا يدع مجالاً لتأليف حزب للحكومة وحزب للمعارضة ، فالأحزاب الموالية والمعارضة إنما توجد حيث يكون للمجلس حق الاقتراع على الثقة بالوزارة (وهو ما يعرف بمبدأ المسؤولية الوزارية) ولم يكن مجلس شورى النواب يملك هذا الحق ادسلاً .. مما يقطع ببطلان القصة من أساسها ..



ولكن بعض كتابنا لا يتحرزون من ترديد هذه القصة المختلفة ، والترويج لها بحسن نية ، دون ادراك منهم لما تنطوى عليه من افتراء وتجريح وتهكم .. !! .

مصرية متقنة الصنع

بهد

هزيمة العراقيين في التل الكبير (١٣ سبتمبر ١٨٨٢)
ايقن احمد عرابي أنه لا أمل في الصمود ،
فهرع الى القاهرة ، وسلم نفسه الى

سلطات الاحتلال البريطاني التي اصبحت - منذ هذا اليوم
المشئوم - صاحبة الكلمة الاولى في ادارة شئون مصر ، واضحي
الخدو توفيق مثل خيال المائة .. لا تتعدى سلطاته حدود قصره ،
وبدأت اجراءات التحقيق مع عرابي وزملائه الستة تمهيدا
لمحاكمتهم ، ورأى الانجليز ان تقتصر قائمة الاتهام على تهمة
واحدة فقط هي : عصيان الخديو وان يصدر الحكم على عرابي
وزملائه بالاعدام متضمنا التخفيف الى النفي المؤبد خارج مصر .
وكان توفيق الخائن لا يرى بديلا عن اعدام عرابي ، ولو كانت
توجد عقوبة اشد فتكا وتنكيلا من الاعدام لما تورع عن
استعمالها ، ولو ترك توفيق وهواه .. لاستخدم مع عرابي ابشع
فنون التعذيب التي تعودها حكام الشرق وسودوا بها صحائف
التاريخ ، ولكن الانجليز .. وقد استقرت لهم الامور .. وقفوا في
وجه توفيق .. وحالوا بينه وبين رقبة عرابي ..
وبدا الامر في غاية الغرابة .. !!

● ● حاكم البلاد الشرعى يطالب برقبة الزعيم الوطنى الذى وقف
فى وجه الغزو الانجليزى ، ثم انكسر بفعل الخيانة والعجز
والتردد ..

● ● وسلطات الاحتلال ترى الابقاء على حياته !!

● ● ●

وكان هذا الموقف المحير - ولا يزال - مثار دهشة الباحثين
ونقاد التاريخ ، وقد حاول المؤرخ عبدالرحمن الرافعى ان يلقي
ظلالا من الشك حول قيام علاقة مشبوهة بين عرابي والانجليز ،
مستعينا فى ذلك بمزاعم السياسة الفرنسيين ، وقد بلغ بهم الشطط

أن ادعوا وجود اتفاق مسبق بين عرابي والانجليز على احتلال مصر !!

ومع ان الرافعى وصف اقوال المسئولين بانها (اسراف فى الاتهام) الا انه لم يكلف نفسه مسئولية مناقشة هذا الاتهام الفظيع ودحضه ، وكشف ما ينطوى عليه من تهافت وسطحية ، واى ناقد للتاريخ يعرف دوافع المزاعم الفرنسية ، فقد خرجت فرنسا من سياق احتلال مصر خاسرة ، واستطاعت انجلترا ان تنفرد بمصر وتفترسها بعد ان خدعت الذئاب الأوروبية الأخرى وابعدتها خارج الحلبة ، فلم تجد هذه الذئاب من وسيلة للتعبير عن حنقها وخيبتها سوى التشنيع والتشكيك فى وطنية عرابي واتهامه بالتواطؤ مع اعدائه . وظل هذا الاتهام معلقا برقبة العرابيين سنين طويلة ، والمؤسف ان تآثرت به بعض العناصر الوطنية مثل مصطفى كامل والشاعر احمد شوقي وبدا هذا التأثير واضحا فى كتابات الرافعى التى تزخر بالتحامل والتجنى على الحركة العرابية



ولكن السؤال الأهم الذى لايزال قائما هو : لماذا اظهر الانجليز هذا القدر الكبير من التسامح مع عرابي — ولماذا اصرروا على الابقاء عليه حيا ، وهم الذين جردوا الاساطيل للقضاء عليه ؟ لقد ظهر عطف الانجليز على عرابي منذ وقع فى ايديهم ، وهددوا الخديو اذا اصابه مكروه ، وامروا بان يعامل معاملة انسانية فى سجنه ولا يتعرض لآى تعذيب ، بينما كان الخديو الخائن يبعث تابعه ابراهيم اغا فى منتصف الليل ليفتح الزنزانة على البطل الاسير ويوقظه من نومه ثم يبصق فى وجهه وينهال عليه باقذع الشتائم ، وعين الانجليز مندوبا خاصا (تشارلس ويلسون) لحضور مراحل التحقيق مع عرابي ، وتدخلوا فى توجيه التحقيق بحيث يقتصر على تهمة العصيان وتبرئته من تهمة تدبير مذبحة الاسكندرية التى وقعت قبل شهر من ضرب الاسكندرية

وفى نفس الوقت كانت هناك اتصالات تجرى وراء الكواليس عبر القاهرة ولندن هدفها انقاذ عرابي من حبل المشنقة ، وكان محور هذه المساعي الكاتب الحر والسياسي الانجليزى الشهير

مستتر (بلنت) صديق العرابيين الحميم وكاتم اسرارهم منذ فجر الحركة الوطنية ، وقاد بلنت حملة اعلامية من احرار الانجليز لتحريك الراى العام الانجليزى ليرغم حكومته على انقاذ البطل القومى المصرى الذى ثار على الظلم والطغيان والسخرة وحكم الفرد ، وتطلع مع شعبه الى حياة جديدة تناسب روح العصر ويتحقق فيها قدر معقول من العدل والمساواة والمشاركة فى ادارة البلاد .

وبينما كان عرابى عاجزا عن توكيل محام مصرى يتولى الدفاع عنه امام المحكمة المصرية (!!) كان بلنت قد نجح فى تكليف محام انجليزى للدفاع عن عرابى واخوانه .. وجاء الرجل الى القاهرة وقام بمهمته الجليلة .. وتم الاتفاق مع سلطات الاحتلال على صيغة الاتهام ومنطوق الحكم .. حتى اذا وقف عرابى امام قضاته كان كل شىء قد تم اعداده مسبقا .. وبدأت المحاكمة مثل مسرحية متقنة الصنع .

مذنب .. أم غير مذنب ؟

تستغرق محاكمة زعيم الثورة العرابية أكثر من خمس دقائق ، كانت كافية لأن يؤدي كل طرف من أطراف المسرحية دوره المرسوم بإتقان .. وشهدت قاعة مجلس النواب القديم (قاعة



مجلس الشورى حاليا) ستار الختام وهو ينسدل على تلك الملحمة الأسطورية الباسلة التي خاضها الشعب المصري ضد الاستبداد والظلم والتدخل الأجنبي .. ولكن .. هاهو ذا الحلم الذى راود قلوب المصريين فى الحرية والعدل .. يخبو ويذبل .. وهاهو ذا البطل القومى المهزوم يقف أسيرا بين براثن أعدائه ليؤدي الدور الذى كتبوه له .. ولم يكن مطلوبا منه ان يتكلم او يدافع عن نفسه .. حتى اذا سالته المحكمة عما إذا كان مذنبا ام غير مذنب - أشار إلى محاميه الانجليزى ، مستر برودى ، فيقف ليتلو بالفرنسية اعترافا من زعيم الثورة بأنه مذنب ، ثم يقدم الى هيئة المحكمة نص الوثيقة التى وقعها عرابى فى صبيحة ذلك اليوم ونصها « بمحض ارادتى الحرة وبناء على مشورة محامى ، أقر بأننى مذنب فى التهمة التى تليت على الآن » .

والمقصود تهمة التمرد على الجناب الخديو .

وتنفض المحكمة لمداولة صورية تستغرق ست ساعات ، أغلب الظن ان اعضاء المحكمة التسعة قضوها فى تدخين الشيشة ، فلم يكن هناك شىء يستحق المداولة ، لأن رئيس المحكمة - الفريق رؤوف باشا - كان يحمل فى جيبه نص الحكم الذى كان محكوما عليه بأن ينطق به أمام جمهور معظمه من الصحفيين الأجانب الذين كانوا يعرفون التطور الدرامى للمحاكمة .. !



هل كان عرابى مخطئا حين قبل الاشتراك فى هذه المسرحية التى انتهت بتخليص رقبته من حبل المشنقة ومع رقاب ستة من اكبر أعوانه وإبعادهم جميعا خارج البلاد .. ؟ ؟ من السهل على قارئ التاريخ المعاصر أن يصدر حكما تعسفيا على هؤلاء الرجال ، مدفوعا بعاطفة الحماسة ، ولكن من الصعب على الباحث المنصف أن يصدر مثل هذا الحكم قبل أن يلم الماماً

كافيا بالظروف والملابسات التي احاطت بالحدث ، وبشرط أن يتجرد من مشاعر الحب والبغض ، وبذلك يكون حكمه أقرب الى الانصاف والعدل ..

اما خصوم الثورة العرابية فيأخذون على زعيمها قبوله توكيل محام انجليزى للدفاع عنه أمام محكمة مصرية ، ويتخذون من ذلك ذريعة لاتهام عرابى بالتواطؤ مع الانجليز ..

والواقع أن عرابى لم يقصر فى توكيل محام مصرى عنه ، ولكن الذى حدث أن هذا المحامى المصرى تنصل من القيام بواجبه خوفا من بطش الخديو .. بينما كان مستر بلنت - صديق العرابيين - قد نجح مع اصدقائه الأحرار الانجليز ، فى الاتفاق مع مستر برودلى وزميله نيبيير للدفاع عن عرابى واخوانه ، وعندما جاء المحاميان الانجليزيان الى مصر وجدا سلطات الاحتلال قد شددت قبضتها على شئون مصر ، وآل إليها زمام الأمر كله ، فكان لابد من « تسوية » ترضى جميع الأطراف .



كان لورد دوفرين ، سفير انجلترا فى الاستانة واحد اساطين الاستعمار البريطانى - قد جاء الى القاهرة عقب الاحتلال ليرسم مستقبل مصر فى ظل الاحتلال ، ويضع البرنامج الاستغمارى طويل الأجل الذى سيقوم بتنفيذه تلميذه النجيب لورد كرومر ، وكان من رأى دوفرين الفراغ بسرعة من قضية العرابيين واغلاق هذا الملف الثورى الى الأبد ، حتى تتفرغ انجلترا لمهمتها الاستيطانية فى مصر ، ولذلك وضع دوفرين الخطوط الرئيسية لمسرحية محاكمة العرابيين ، وأشرف بنفسه على اخراجها وتوزيع الأدوار على كل طرف من اطرافها ، فلما كشف افندينا توفيق الخائن عن نواياه الانتقامية من عرابى واخوانه ، تصدى له دوفرين ، وأظهر له يدا حديدية ملفوفة فى قفاز من المخمل ، فتراجع افندينا ورضى بالأمر الواقع ..

كان دوفرين يعارض إعدام عرابى ، ليس لأنه لا يستحق الموت ، ولكن لأن الرأى العام الانجليزى ، ومن خلفه احرار أوروبا وأمريكا كانوا يعتبرون الثورة العرابية حركة شعبية وطنية ، وأن عرابى وزمرته ابطال يستحقون التمجيد ، ولم تكن حكومة جلادستون فى لندن على استعداد لتجاهل هذا التيار المستنير المؤثر .

هذه واحدة .. اما الثانية فترجع الى نوايا الاحتلال فى مصر وعزمه على البقاء فيها لأطول فترة ممكنة بدون ازعاج ، وبدون هبات شعبية تهدد وجود الاحتلال ، الأمر الذى يتطلب الإبقاء على حياة عرابى حتى لا يصبح مصدر إلهام لثورات متجددة ، وكان لابد من اغلاق ملف البطولات الشعبية حتى تموت بذور الثورة بموت ابطالها فى جزيرة نائية غارقة فى مياه المحيط الهندى .

واثمرت خطة الاستعمارى العريق دوفرين ، وعاشت مصر أقسى فترات حياتها فسادا وانحلالا .. وغلب اليأس على النفوس حتى فقد الناس الأمل فى صبح جديد ، ولكن مصر الولود المعطاء لم تلبث أن افاقت من غشيتها ونهضت تفك قيودها وتسترد روحها .. وظهر مصطفى كامل صوتا جهيرا عم صداه انحاء البلاد فابقظ النيام بعد طول رقاد ، وتفجرت ثورة ١٩١٩ لتمحو عار الهزيمة بعد ٣٧ سنة من وقوعها وتثبت ان فى السويداء رجالا يابون الضيم والخنوع والاستعباد ..

أمراء .. لكن شرفاء

تاريخ الثورة صفحة مجهولة تتعلق بموقف
أمراء الأسرة العلوية من هذه الثورة ، خاصة
عندما تطورت الأحداث الى ذروة الصدام المباشر
بين عرابي باشا من جهة ، وتوفيق خديو مصر
وعميد الأسرة العلوية من جهة أخرى .. وكان على افراد الأسرة
ان يحددوا موقفهم من المعسكرين .. وهو الاختيار الصعب .
ومن الحقائق المعروفة ان توفيق هذا .. لم يكن يتمتع باحترام
او تاييد اقاربه لأسباب كثيرة بعضها يرجع إلى تكوينه الخلقي
الذي كان من أبرز مميزاتة الجهل والغباء والتردد والغدر ،
وبعضها الآخر يتعلق بالصراعات داخل الأسرة نفسها ، وهي
صراعات كان يقودها أمراء اقوياء يرون انفسهم أحق بالملك من
توفيق ، لولا اللعبة التي دبرها والده اسماعيل لتغيير نظام وراثة
العرش ، وبمقتضاها أصبح الحكم من نصيب أكبر أبناء الوالي
بعد ان كان من حق أكبر افراد الأسرة ، وكانت تلك غلطة اسماعيل
القاتلة ، ولعله هو نفسه كان أول ضحاياها .. فلم يكن ابنه
توفيق - وهو ولي للعهد - ببعيد عن مؤامرة عزل ابيه ، وكان
اقوى المناوئين الأمير عبدالحميد اصغر اولاد محمد علي الذي
نحاه اسماعيل ونفاه إلى الاستانة .. ومن هناك كان يحيك
الدسائس لاستعادة عرشه السليب ، وكان هناك أيضا الأمير
مصطفى فاضل شقيق اسماعيل الذي أبعد عن العرش ليحل محله
توفيق الغبي الجهول .

ولكن هذه الصراعات العائلية تضاعفت أمام الحدث الأكبر حين
تعرضت مصر للغزو الانجليزى ، وانهالت قنابل الأسطول على
الاسكندرية في يوليو ١٨٨٢ وكشف توفيق عن وجهه القبيح
بانحيازه العلنى الى جيش الاحتلال . وبينما كان الجيش
المصرى يصنع المستحيل لصد الهجوم ، اجتمع قادة الأمة من
كل الفئات والطبقات والأديان واصدروا قرارا تاريخيا بالوقوف
خلف الجيش المصرى بقيادة عرابي وعدم الاعتراف بالأوامر التي
يصدرها توفيق الخائن من مكنه فى الاسكندرية ، « حيث ان

الخديو خرج على الشرع الحنيف والقانون المنيف ، وكان في طليعة الموقعين على هذه الوثيقة التاريخية ثلاثة من أمراء الأسرة العلوية .

وفي أثناء معركة كفر الدوار ظهرت حاجة الجيش المصري الى المال والعتاد والمؤن ، بعد ان استولى السير « كالفن » المراقب المالي الانجليزى على اموال الخزنة المصرية وحملها في الاسطول الانجليزى المرابط في الاسكندرية . وهنا ظهرت معادن المصريين الاصيله ، فجادوا بما لديهم من نفس ومال وغلل وعتاد وخيول ودواب .. ولم تتخلف اميرات الاسرة العلوية عن المساهمة في هذا الواجب المقدس ، وفي طليعتهن الاميرة خوشيار ام الخديو اسماعيل التي تبرعت بجميع خيول عرباتها ، واقتدى بها بقية افراد العائلة ، على النحو الذى يرويه عرابى في مذكراته ..

على ان الجانب المثير في موقف اميرات الاسرة العلوية إنما يتجلى رائعا بعد فشل الثورة وانفضاض الذباب من حولها . ففي هذا الوقت العصيب الذى تنكر فيه الانتهازيون للثورة وتبراوا منها .. ظلت الاميرات على مبداهن المؤيد للثورة وقائدها ، ولم يمنعهن الخوف من بطش الخديو من الوقوف الى جانب عرابى في محنته ، وبقين معه حتى اللحظة التى غادر فيها مصر الى منفاه السحيق ، وبينما كان عرابى يستقل القطار من قصر النيل الى السويس انهالت عليه هداياهن الثمينة اعترافا بمجده وبطولته ، فبعثت اليه واحدة بمعطف ثمين ، وارسلت اخرى مصحفا كبيرا وثالثة سجادة صلاة .. الخ .

ويكشف مستر برودلى - محامى عرابى الانجليزى - عن هذه الصفحة المضيفة فيقول : أن عرابى وجد في سيدات مصر اكبر عون في ثورته فقد ساعدنه منذ اللحظات الاولى مساعدات لها قيمتها ، وظللن يقدمن هذه المساعدة حتى بعد ان فقد آخر امل في النصر ، بل إن اميرات الاسرة الخديوية - باستثناء ام الخديو وزوجته - كن يعطفن عطفًا كبيرا على عرابى باشا ، والفن عدة جمعيات مهمتها مساعدة ومواساة الجرحى في موقعة كفر الدوار ، والاستعداد لمواجهة مصاعب القتال القادمة الى حد الاشتراك في الصفوف ذاتها ، وتلقى برودلى من أرملة الوالى سعيد باشا خطابا

تشكره فيه على دفاعه عن عرابى .
ويعلق برودلى على ذلك بقوله : ولا شك أن هذا خير رد على أولئك الذين يزعمون أن حركة عرابى لم تكن إلا حركة فردية ، فهى فى الحقيقة حركة شعبية أسهم فيها المصريون جميعا .
وكشف برودلى فى مذكراته التى ترجمها محمود كامل المحامى عن لقاء مثير تم بينه وبين إحدى الأميرات ، لم يفصح عن اسمها خوفا عليها من انتقام الخديو ، قالت الأميرة : كانت كل واحدة منا - نحن الأميرات - تعطف على عرابى منذ البداية ، لأننا نعرف أنه كان يرغب أصلا فى تحقيق أمانى المصريين جميعهم ، وكنا جميعا ننظر الى عرابى نظرة الرجل المدافع عن البلاد إزاء الانجليز الذين التجأ اليهم الخديو ، فعقدت مجالس كثيرة من رجالات مصر فى القاهرة ، اشترك فى بعضها الأمير ابراهيم والأمير كامل والأمير احمد ، وقررت هذه المجالس مساعدة عرابى حتى يسير بالحرب الى النهاية ، لقد رأينا فيه القائد . وكانت لدينا كل الثقة به ، فكتبنا له الرسائل والبرقيات مشجعات مهنئات ، بل أن إحدى الأميرات كتبت له خطابا غريبا تطلب منه الزواج بها لأنه منقذ مصر ، فلما علمنا بهزيمته استولى الحزن علينا جميعا ، وقد عوقبت الأميرة التى طلبت الزواج بعرابى شر عقاب بالرغم من أن والدتها اعترفت بأنها هى التى كتبت الخطاب ووقعته باسم ابنتها ، ولكن الأميرة خوشيار عرفت كيف تؤدب الشخص الذى وشى بسر الخطاب الى الخديو ، فضربتة بمقعد على رأسه ، وأخيرا صدرت اليها الأوامر بالذهاب الى القصر ، وكنا نبكى من الخوف والذعر ، وبعد أن وبختنا والددة الخديو قالت لنا أن الانجليز سوف يسلمون عرابى الى الخديو ليقتله شر قتلة ، وأمست بكشف طويل فيه كثير من أسمائنا مع العقوبات الموقعة علينا . وعندما علمنا بأن حياة عرابى مهددة ساد الوجوم والحزن فى دوائر القصر كان أحدا من الأسيرة نفسها قد مات .. !
واختتمت الأميرة حديثها الى المحامى الانجليزى قائلة « بعد كل ما حدث .. لا يمكن أن يستتب أمن فى البلاد .. لا لنا .. ولا لكم .. ولا لمصر .. »

كيرلس الخامس

كان

البطريرك كيرلس الخامس من أطول آباء الكنيسة المصرية عمرا .. فقد تولى قيادة الكنيسة في عصر الخديو اسماعيل ، ومات

في ١٧ اغسطس ١٩٢٧ قبل اسبوع من وفاة سعد زغلول ، وعاصر خمسة من ملوك مصر : اسماعيل وتوفيق وعباس الثانى وحسين كامل وأحمد فؤاد ، وعاش خلال فترة كرازته - التى بلغت ٥٣ عاما - أحداثا جساما من تاريخ مصر الحديث : الثورة العرابية ثم الاحتلال البريطانى والحرب العالمية الأولى وثورة ١٩١٩ ثم استقلال مصر وظهور أول حكومة شعبية فى ١٩٢٤ .

وكان كيرلس الخامس شخصية فريدة تجمع بين المهابة والوقار والحزم الى جانب الزهد والورع ، ولكن المدهش فى شخصية هذا البطريرك هو مشاركته الايجابية فى كل الأحداث الخطيرة التى تعرضت لها مصر خلال عمره المديد . منها موقفه المساند للثورة العرابية حتى النهاية ، فكان فى مقدمة الذين وقعوا عريضة خلع الخديو توفيق الذى استعان بالانجليز لضرب الثورة ، فلما وقع الاحتلال تصدى البطريرك لكل المحاولات التى بذلها الانجليز لوضع الكنيسة المصرية تحت الحماية البريطانية ، ورفض العروض التى قدمها اللورد كرومر لمنح المدارس القبطية معونات مالية .. وبعد ثورة ١٩١٩ وقف الى جانب الثورة مؤيدا ومباركا تالف المسلمين والقبط تحت علم الوحدة الوطنية ، ولما حاول الانجليز إجهاض الثورة والتلويح بحماية الأقباط رد عليهم قائلا : ان المصريين شعب واحد وحمايته موكولة لله وحده .

كتب عنه عباس محمود العقاد : كان كيرلس الخامس ناسكا متعبدا مؤمنا برسائله الدينية اشد الايمان ، وكان - مع رعايته لفرائض الدين - لا ينسى فرائض الكرامة الدنيوية فى معاملته لأصحاب السلطان ولو كانوا من الملوك او فى حكم الملوك ، وقد خطر لعميد الاحتلال - لورد كيتشنر - ان يلقاه كيرلس على غير موعد ، فذهب الى دار البطريكية وأمر الحجاب ان يبلغوا صاحب الغبطة ان فخامته موجود فى الدار .. وهول الحجاب وهو يلهث

صائحا : اللورد يا أبانا .. اللورد يا أبانا .. فسأله فى أناة : من اللورد يا هذا ؟ وعلم جلية الأمر فلم يزد على أن قال : اذهب يا ولد وقل لفخامته أن البابا لا يقابل أحدا بغير ميعاد . وطلب منه الملك فؤاد أن يبارك وزارة زيور باشا كما بارك وزارة سعد زغلول ، فلم يجبه ولم يزد على أن قال : أن البركة لا تمنح باليمين لتسلب باليسار .

وقد أهله هذه السجايا والمواقف - كما يقول طارق البشرى - فى مؤلفه « المسلمون والأقباط » - لأن يكون موضع التجلّة والاحترام بين المصريين جميعا ، وأن ينظر اليه رجال الحركة الوطنية بكثير من الامتنان لمباركته حركتهم ..

ومع ذلك فلم يسلم كيرلس الخامس من تدخل مناوئيه الذين اقلحوا فى استصدار قرار بتجريدته من سلطاته ونفيه الى دير البراموس بوادى النطرون فى أول سبتمبر ١٨٩٢ .. وتلك قصة أخرى ..

الكنيسة المصرية

في

أخريات القرن الماضي اشتد تيار الإصلاح الديني -
بجناحيه الاسلامي والمسيحي - وإن اختلفت
المنطلقات والنقائج ، فعلى المستوى الاسلامي
قائد الشيخ محمد عبده تيار التمرد على
الجمود في الفقه ومناهج التعليم الأزهرى فاصطدم بقوة
السلفيين الذين يريدون إبقاء الحال على ما هو عليه .

أما على المستوى المسيحي فقد تبلورت دعوة الإصلاح في
قيام هيئة علمانية تقف الى جانب الكنيسة وتشاركها الاشراف على
الأوقاف والمدارس القبطية والمطبعة والنظر في قضايا الأحوال
الشخصية للأقباط .. الخ . وتمخضت الفكرة عن ظهور (المجلس
الملئ) بالانتخاب الجزئي من جانب الأقباط ، ومن الواضح أن
دعاة الإصلاح كانوا متأثرين بموضة المجالس النيابية والمشاركة
في الحكم التي باتت صيحة العصر ، ولكنهم أخطأوا إذ تصوروا
امكانية الانتقال من سلطان الكنيسة القبطية ذات التقاليد
الراسخة في احترام السلطات الموروثة للبطارقة منذ بشارة مرقس
الرسول ، وأخطأوا مرة ثانية حين لجأوا الى الحكومة لتنصرهم
على البابا كيرلس الخامس الذي اتخذ موقفا عنيدا ضد تدخلات
المجلس الملئ . صحيح أنهم نجحوا في اصدار فرمان من الخديو
بنفى البابا الى وادى النطرون ، ولكنه عاد بعد خمسة شهور الى
كنيسته أقوى مما كان .

ولم يكن موقف البابا ضد المجلس الملئ نابعا من عناد
شخصي ، ولكنه كان يرى ان دعوة الإصلاح (العلماني) تخفى
وراءها دعوة مشبوهة الى تذويب الكنيسة المصرية
الأرثوذكسية في تيار التبشير الذي هل على مصر مع الاحتلال
البريطاني ، وبالتالي اخضاع الكنيسة القبطية للكنيسة الأسقفية
البروتستانتية . وقضية التدخل المذهبي في شئون الكنيسة
المصرية قضية قديمة ترجع الى عصور المسيحية الأولى .. ولكن
كل محاولات التدخل فشلت وبقيت الكنيسة محافظة على
استقلالها الديني والمذهبي .

● ● ●

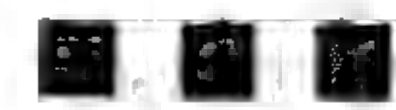
وهناك شبهة أخرى دفعت البابا كيرلس الخامس الى معارضته

القوية لدعوة الاصلاح ، وهي ارتباطها بالاحتلال البريطاني نفسه . وإذا عرفت أن رائد حركة الاصلاح كان بطرس غالى باشا ، لأدركت على الفور سر عناد البابا ، وتمسكه باستقلال الكنيسة والحفاظ على طابعها الوطنى ، استمرارا لموقفها العنيد من حركات الاستعمار منذ العصر الرومانى ، حيث امتزجت العقيدة الدينية بالحماسة الوطنية ، وباتت الكنيسة المصرية ندا مصاولا للدولة الرومانية ، الأمر الذى جعلها هدفا لاضطهاد الأباطرة . وفى ذلك يقول عباس محمود العقاد : لم يكن اضطهاد الرومان للأقباط خلوا من شوائب السياسة وعوامل الثورة القومية ، وقد اعتصم المصريون بكنيستهم ، وتجسدت فيها عناصر الدين والدولة ، والتفت الأمة حول زعامتها لإثبات كيانها ومشينتها فى وجه القوة القاهرة .. وذلك سر مصدر القوة الكبرى التى اشتهرت بها المسيحية المصرية ..

أغا خان فى مصر

فى

أضابير التاريخ المصرى المعاصر قصة مشهورة تقول إن سلطات الاحتلال البريطانى كانت تعتزم تعيين «أغاخان» سلطانا على مصر، وذلك فى غضون الفترة القصيرة التى خلا فيها عرش مصر بعد نفى الخديو عباس حلمى الثانى، وتمنع عمه الأمير حسين كامل عن الجلوس على عرش ابن أخيه، وبلغ من شيوع هذه القصة أن الدكتور محمد حسين هيكل باشا أوردها فى مذكراته فى معرض حديثه عن ظروف قبول السلطان حسين عرش مصر، وكيف أن هذا الأمير ما قبل العرش إلا انقادا له من أن يجلس عليه حاكم اجنبى، ثم يقول هيكل «ان الأكثرين صدقوا هذه القصة، واعتقد أنها صادقة لأن الانجليز دعوا بالفعل سمو الأمير أغا خان الهندى قبيل ارتقاء السلطان حسين العرش، وتناقل الناس انهم - اى الانجليز - يريدون أن يجعلوا اغا خان سلطانا على مصر، والجزء الأول من تلك الرواية - وهو عزم الانجليز تعيين حاكم اجنبى لمصر - صحيح مائة فى المائة، أما غير الصحيح فهو أن يكون أغا خان هو السلطان المرتقب.



وترجع فكرة تعيين حاكم اجنبى لمصر الى قرار بريطانيا اجراء تغييرات جذرية على وضعها الاستعمارى فى مصر بعد نشوب الحرب العالمية الأولى، وانضمام تركيا الى صف عدوتها اللدود - المانيا - فقررت بريطانيا ان يكون وجودها فى مصر ابديا، وأن تقطع خيوط الشرعية التى كانت تربط مصر بدولة الخلافة، وكان شكل العلاقة الجديدة يتراوح بين فكرتين لا ثالثة لهما، الأولى: «ضم» مصر نهائيا الى التاج البريطانى فيصبح المصريون رعايا بريطانيين، وتنمحي الجنسية المصرية، ويرتفع العلم الانجليزى ذو الصليب الأزرق على الديار المصرية، ويتولى الحكم حاكم عام بريطانى مثلما كان الحال فى الهند واستراليا ونيوزيلندا، وكان هذا المشروع بمثابة حكم بالاعدام على الشخصية المصرية، وإنهاء للوجود الشرعى والقانونى للدولة المصرية العتيدة.

أما الفكرة الثانية فكانت أخف وطأة وهى اعلان «الحماية»

على مصر ، بحيث تحل بريطانيا محل تركيا فى السيادة على مصر مع بقاء الحكم فى يد حاكم مصرى يعاونه وزراء مصريون ، وبعد بحث مستفيض اخذت الحكومة البريطانية بفكرة « الضم » وأعدت بالفعل مسودات الأمر الملكى ليوقعه الملك جورج الخامس ، وطلب من كيتشنر - بحكم خبرته السابقة فى مصر - ترشيح أحد كبار الانجليز ليكون حاكما على مصر ، ولكن حكومة لندن تراجععت فجأة عن قرارها بسبب معارضة رجال الوكالة البريطانية فى مصر ، الذين حذروا حكومتهم من التهاب الشعور الدينى واحتمال نشوب ثورة وطنية فى صفوف المصريين ، الذين كان بعضهم - حتى هذه اللحظة - يثق بوعود بريطانيا فى الجلاء عن مصر .. فما بالك بضمها نهائيا إلى ممتلكات التاج !!

لقد اجتمع هؤلاء المستشارون وكتبوا مذكرة الى وزارة الخارجية البريطانية قالوا فيها : كيف ننتزع من دولة صغيرة آخر مظهر للكيان الفردى ؟ ان قرار الضم سيكون نهاية لصدق كلمتنا .. فلن يصدقنا أحد .. وستكون لهذا القرار عواقب وخيمة .. ولم يعد مقبولا فى القرن العشرين أن نقضى على قومية الأجناس أو نحاول ابتلاعها - وحتى لو كان ذلك ممكنا فى أى مكان آخر - فلن يكون ممكنا فى مصر .. إن طمى النيل الذى امتصه العبريون والفرس والاعريق والرومان والآتراك امتصاصا كاملا - بحيث محا كل أثر لهم - هذا الطمى ليس بالبيئة المناسبة لأية تجربة أخرى .. !!

وتراجعت الحكومة البريطانية عن قرار الضم .. واخذت بفكرة الحماية ، وخففت حكم الاعداء إلى الأشغال الشاقة المؤبدة .. وفى يوم ١٨ ديسمبر ١٩١٤ أعلنت الحماية المشئومة على مصر ، وفى اليوم التالى أعلنت دار المعتمد البريطانى فى القاهرة قرار عزل الخديو عباس وتعيين الأمير حسين كامل سلطانا على مصر .. أو تعيينه موظفا فى دار المعتمد البريطانى بدرجة سلطان .. وبذلك تلاشت فكرة تعيين حاكم اجنبى على مصر ..



اما مقولة تعيين اغا خان سلطانا على مصر ، فقد كشفت عنها الدكتورة لطيفة سالم (كلية الآداب - بنها) فى كتابها (مصر فى الحرب العالمية الاولى) ويتبين منها أنها مقولة تفتقر الى السند التاريخى

فبالرجوع إلى مذكرات آغا خان نفسه نجد أن انجلترا قد أحضرتة إلى مصر - لا ليحكمها - ولكن ليهدىء من روح المصريين المتذمرة . يقول آغا خان : كان الوضع السياسي مضطربا ودقيقا . كان عباس بالأستانة ومصر بدون حاكم ، وكانت النتيجة في مصر شيئا يقارب الفوضى .. لقد ذهبت إلى مصر مع زميل لي وانصرفنا فورا إلى أداء مهمتنا الدقيقة الشاقة المتشعبة إلى طبقات كثيرة من المجتمع المصري . فكان علينا أولا أن نكسب القصر والعلماء رؤساء جامعة الأزهر ، كما كان هناك عامة الشعب المصري منهم المتعلمون الذين يجلسون في المقاهي يطالعون ويناقشون إلى مالا نهاية أخبار الحرب .. والفلاحون الذين كانوا ولا يزالون المصدر الحقيقي لقوة مصر .. كان علينا أن نقنع هؤلاء بأن يؤازروا قضية الحلفاء »

إذن فلم يحضر آغا خان إلى مصر كأمير ليقفز إلى عرشها .. ولكنه جاء إليها كعميل مهمته كسب ولاء المصريين للتاج البريطاني . فكان شأنه شأن جميع العملاء الذين أطلقتهم بريطانيا طابورا خامسا لإخماد الثورة في نفوس الشعوب المقهورة .

ولكن من هو هذا العميل الذي يعمل برتبة أمير ؟

قاطع طريق

«أغاخان» صيغا عالميا فاق شهرة نجوم السينما ولاعبي الكرة، وعلماء الذرة وزعماء الدول وكبار المصلحين . مع انه لم يكن شيئا من هؤلاء . ولكنه جمع في شخصيته الغربية شيئا من كل هؤلاء . وعندما يذكر اسم «أغاخان» تتبادر الى الذهن صورة ذلك الرجل الذي عاش حياته في العواصم الأوروبية مفتونا بملكات الجمال . وعارضات الأزياء ، مشغولا بكل منع الحياة . وكان أتباعه يزنونه كل عشر سنوات بسبائك الذهب والبلاطين وقطع الماس النادرة إجلالا وتعظيما لمكانته عندهم . ولا غرابة في ذلك فقد أضفوا عليه صفة الألوهية . فلما مات اختاروا أسوان لتكون مثواه الأخير .



والحديث عن أغاخان لا يكتمل إلا بالحديث عن طائفة (الاسماعيلية) التي تولى زعامتها على مدى ستين عاما ، فجدد شبابها . وانتقل بها من غياهب الخمول والضعف والفقر ، إلى دائرة الضوء والشهرة والمال والنقود .

والاسماعيلية هي إحدى فرق الشيعة التي تتفق جميعها على أحقية الإمام علي بن أبي طالب ، بالخلافة ممن سبقه من الخلفاء الراشدين الثلاثة . رضوان الله عليهم أجمعين . ولكن الاسماعيلية تختلف عن غيرها بأنها سلكت طريقا شططا . وقالت في علي بن أبي طالب قولا فظيحا ، أولئك هم الغلاة الذين اختلطوا بالمذاهب والمعتقدات التي كانت سائدة منذ القدم في الهند والعراق وفارس واليونان ، وأخذوا من كل مذهب بطرف ، وبقدر ما أخذوا وتوغلوا .. بقدر ما بعدوا عن تيار الإسلام المصفي ، وصنعوا من كل ذلك نسيجاً يناقض المقرر الثابت من الأحكام والعقائد الإسلامية .

وتعرض «الاسماعيلية» كغيرهم من طوائف الشيعة ، للاضطهاد والقهر ، فهاجروا من الشرق إلى الغرب وكونوا تنظيمات بالغة السرية والتعقيد ، وأثاروا القلاقل والاضطرابات داخل الدويلات الإسلامية المفككة . ونجح الانقلاب الذي دبروه في المغرب ، فأقاموا دولة الفواطم التي لم تلبث أن انتقلت إلى

مصر عن طريق الغزو العسكرى ، فبنوا مدينة القاهرة ، وأقاموا الدولة الفاطمية التى حكمت مصر زهاء قرنين دون ان تغلج فى استمالة المصريين المسلمين الى عقيدتها الشاذة ، فالمصريون الذين عرف عنهم التوسط والاعتدال فى التدين والبعد عن الغلو والشطط ، رفضوا اعتناق مذهب الدولة الرسمى حتى اندثر بزوال الدولة الفاطمية ، فلا تجد مصريا واحدا يعتنق مذهبيا شيعيا بالرغم من حب المصريين لأهل البيت .



وفى عصر الخليفة الفاطمى المستنصر ، تعرضت الحركة الاسماعيلية للانشقاق بين ولديه : المستعلى ونزار ، ففريق تمسك بإمامة المستعلى ، ولكنهم تفككوا عبر القرون ولم يبق منهم الآن سوى طائفة (البهرة) الذين ينتشرون فى الهند واليمن ، ومعظمهم من أثرياء التجار ، وهم الذين نجحوا فى إقناع الرئيس الراحل أنور السادات بالسماح لهم بتجديد مسجد الحاكم بأمر الله الملاصق لباب الفتوح ، وأنفقوا على عملية التجديد عشرات الملايين من الجنيهات كى يجعلوا منه تحفة معمارية رائعة ، وهم لم يفعلوا ذلك إلا تمجيذا لإمامهم المتاله الحاكم بأمر الله ، مدفوعين بالحنين إلى استعادة مجدهم القديم فى عاصمة المعز .

اما أتباع نزار فقد تعرضوا للاضطهاد من جانب الحكومة الفاطمية ، ففروا من مصر ، ونجح أحد زعمائهم - وهو الحسن الصباح - فى إقامة دولة الحشاشين فى شمال ايران ، وهى الدولة التى كانت تتسلل منها جحافل الفدائيين لاغتيال زعماء وقادة العالم السنى ، حتى أثاروا الفرع والرعب فى قلوب الملوك والسلاطين ، إلى أن قضى عليهم خاقان المغول هولاكو ، فلم تقم للنزارية قائمة إلى أن ظهرت بعض بقاياهم فى ايران فى أواسط القرن التاسع عشر تحت اسم « الأغاخانية » الذين ينتمى إليهم أغا خان الثالث موضوع هذا الحديث .



والاسم الصحيح لأغا خان الثالث هو : محمد الحسينى شاه ،

أما جده أغا خان الأول واسمه (حسن شاه علي) فقد كان قاطع طريق ظهر في إيران في منتصف القرن الماضي واستطاع أن يجمع حوله عدداً من الفتوات من الاسماعيلية وغير الاسماعيلية ويكون منهم عصابات كانت تنقض على القرى والقوافل حتى ذاع صيته في جميع أنحاء إيران ، وأصبح له نفوذ واسع على أتباعه وبات مصدر قلق للأسرة الحاكمة .

وفي ذلك الوقت كان الانجليز يعملون على بسط نفوذهم في إيران . وكعادة الانجليز في بث الدسائس والفتن ، وصنع العملاء ، واستمالة كل طامع في الجاه والثروة ، فقد وجدوا ضالتهم في هذا « اللص الشريف » فاتصلوا به ، وزينوا له القيام بانقلاب ضد الشاه ، على أن يتولى هو حكم فارس تحت رعايتهم . وتمت المؤامرة الانجليزية ، وأعلن قاطع الطريق حسن شاه الثورة ، ولكنها فشلت ، وقبضت عليه السلطات الإيرانية وزج به في السجن ، عندئذ تدخل الانجليز وأقنعوا الشاه بالعفو عن الثائر الهام على أن يغادر إيران ، وبالفعل خرج حسن شاه على من السجن تحيط به هالات البطولة المصطنعة ، فدفع به الانجليز إلى أفغانستان ليلعبوا به كورقة في صراعهم هناك مع روسيا ، ولكن الأفغان تصدوا له فرحل إلى الهند واتخذ من مدينة بومباي قاعدة لنفوذه الجديد . وأراد الانجليز أن يلعبوا به مرة ثالثة في السيطرة على درة التاج البريطاني ، فجعلوا منه إماماً لطائفة الاسماعيلية النزارية ، وخلعوا عليه لقب (أغاخان) ومنحوه السلطة المطلقة على أتباعه الاسماعيلية الذين فرحوا بعلو شأنهم ، بعد أن ظلوا مغمورين طوال عدة قرون . وبظهور إمامهم الذي ظل في السתר والكتمان مئات السنين ، بدأ أغا خان ينظم صفوف الاسماعيلية تحت العلم البريطاني حتى مات سنة ١٨٨١ فخلفه ابنه (أغا علي شاه) وكان على درجة عالية من الثقافة ويجيد عدة لغات أفادته في نشر التعليم بين طائفته ، ووضع الأساس المادي والثقافي الذي بنى عليه ابنه أغا خان الثالث مجده المرموق .

عابد البقرة


 اغاخان في شخصيته متناقضات عديدة، كان زعيما دينيا لأتباع يضعونه في مرتبة الألوهية انسياقا وراء الفكر الاسماعيلي الباطني الذي يتبنى هذه الخزعبلات منذ عصر الحاكم بامر الله، والى جانب هذه الصورة المقدسة لاغاخان في نظر اتباعه . كان نجما من نجوم المجتمع الاوربي يخلب قلوب العذارى ويتسع قلبه الكبير جدا للفانتازات والغانيات وملكات الجمال، وكان في نفس الوقت رائدا من رواد الاصلاح الثقافي والاجتماعي .. يقيم الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث، والاندية، حتى انتقل بطائفته من حضيض التخلف والرجعية الى عالم القرن العشرين، وكان يحثهم على أن يغتربوا من منهل الحضارة الغربية كما شرب هو منه، ويتسلحوا بالعلم والمدنية ولا يتخلفوا عن المجتمعات الأخرى، ولم تمنعه زعامته الطائفية من أن يكون مسلما عالميا يخلع رداء الطائفية عند الملمات ويقف الى جانب قضايا الاسلام والمسلمين في كل مكان من العالم، كان ينظر الى المسلمين عامة في الهند نظرة خالية من التعصب الطائفي وينادي بأن يأخذوا مكانهم الطبيعي في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فاشترك مع غيره من زعماء المسلمين عام ١٩٠٧ في تأسيس « الرابطة الاسلامية » وانتخب رئيسا لها عام ١٩١٤ وكانت هذه الرابطة تجمع كلمة المسلمين جميعا على اختلاف مذاهبهم وتعمل على النهوض بمستواهم، وهذه الرابطة تطورت الى حزب سياسي كان له خطره في تاريخ الهند الحديث، وترتب على اعماله نشوء دولة باكستان .

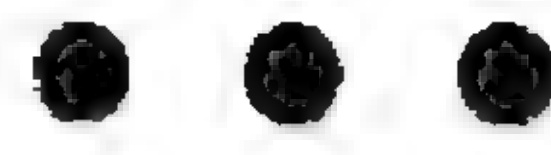


وربما لا يعلم الكثيرون ان (محمد علي جناح) مؤسس دولة باكستان كان من اتباع الطائفة الاسماعيلية، ومع ذلك فقد كان اغاخان من المعارضين لقيام دولة اسلامية مستقلة في الهند، ويقف الى جانب الرأي الذي يامل في تحقيق الوحدة الوطنية بين المسلمين والهندوس، ويعارض تقسيم الهند الى كيانات طائفية . والمؤرخون الذين كتبوا عن اغاخان يرصدون له عددا من

المواقف التي تخلى فيها عن صبغته الطائفية ، ولعل أبرز هذه المواقف دفاعه المجيد عن بقاء الخلافة الإسلامية في تركيا بالرغم من العداء التقليدي بين الأتراك « السنة » والاسماعيلية « الشيعة » وكان أغاخان يعزز العثمانيين بالاموال الطائلة ليظلوا رمزا لقوة الاسلام والمسلمين .

وتزوج أغاخان أربع مرات دون ان يجمع بين زوجتين . وكانت أولى زوجاته اميرة ايرانية هي البيجوم اى السيدة (شاه زادى) ولكنها توفيت بعد سنوات قليلة ، فتزوج فتاة ايطالية هي (تريزا ماجليانو) وأنجب منها ابنه الأكبر (على خان) الذى تزوج نجمة هوليوود العالمية ريتا هيوارث وأنجب منها فتاة اسمها ياسمين ثم تزوج على فتاة انجليزية . أنجبت له كريم الذى تولى إمامة الاسماعيلية بعد وفاة جده .

وفى سنة ١٩٢٧ اعجب اغاخان بفتاة فرنسية كانت تباع السجائر والشيكولاته فى كشك بجوار مقهى ألدوم بحى مونبارناس ببباريس هي (اندريه كارون) وأنجب منها ابنه الثانى صدر الدين ، وفى عام ١٩٤٤ تزوج عارضة أزياء انتخبت ملكة جمال العالم هي (لافروس) التى اعتنقت دينه وعقيدته الاسماعيلية وبقيت معه الى أن مات عام ١٩٥٧ وهى التى تعرف باسم البيجوم « ام حبيبة » ولا تزال تحرص على الحضور الى اسوان لقضاء فصل الشتاء فى قصرها الذى يقع فى سفح التل الذى يعلوه قبر زوجها ، ولا تزال رحلتها اليومية معروفة حيث تصعد كل صباح لتضع وردة حمراء على ضريح أغاخان .



ولا ينبغي انهاء الحديث عن اغاخان دون توضيح مسألة « الالهية » التى خلعها عليه اتباعه ، وكان الظن ان هذه المسألة من قبيل المبالغة او التشنيع الذى يتعرض له الاسماعيلية من جانب خصومهم ، ولكن الدكتور محمد كامل حسين - وهو من ادق الباحثين فى تاريخ الاسماعيلية وعقائدهم يروى لنا قصة غريبة تؤكد ان اغاخان كان سعيدا بمعتقدات اتباعه فيه ، وله فيها تبرير غريب .

يقول الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه (طائفة الاسماعيلية : تاريخها ، نظمها ، عقائدها) : ومن ذكرياتى معه

رحمة الله عليه ، انى كنت اناقشه فى بعض المسائل الفلسفية الخاصة بتطور عقيدة الاسماعيلية ، وطالت المناقشة وتفرعت من موضوع الى موضوع مما جعلنى اعجب اشد الاعجاب بعقليته وثقافته وسعة اطلاعه ، واحاطته بكل ما يتعلق بالاسماعيلية احاطة تامة ، فاستأذنته فى توجيه سؤال اليه ربما اغضبه ، فلما وعدنى بعدم الغضب قلت له : لقد ادهشتنى بثقافتك وعقليتك ، فكيف تسمح لاتباعك بان يدعوك الها ؟ فضحك اغاخا طويلا جدا ، وعلت قهقهاته ، ودمعت عيناه لكثرة الضحك ثم قال :

- هل تريد الاجابة عن هذا السؤال : ان القوم فى الهند يعبدون البقرة .. ألسنت خيرا من البقرة !!

ويعقب الدكتور محمد كامل حسين على هذا التبرير العجيب قائلا : فلم أحر جوابا بعد ذلك ، وخرجت من عنده وأنا افكر فى هذا الرجل الذى اعتقد فيه اتباعه الالهوية ، او على الأقل أن نور الله حل به ، وكان هو يعلم أنه ليس بآله ولم يمسه نور الله ، ومع ذلك ترك اتباعه فى اعتقادهم دون ان يرشدهم الى الحقيقة ، وترك الناس يتقولون فيها الاقاويل ، وهو يسخر من هؤلاء وهؤلاء ، ويستمر فى حياته التى اختارها لنفسه دون ان يجعل لاحاديث الناس عنه اثرا ، او يقيم لهم وزنا .

أولاد تيمور

عجيب

امر العائلة التيمورية..! لم يكن يجرى في عروق
ابنائها قطرة دماء مصرية، ومع ذلك احبوا
مصر حبا صادقا، وارتبطوا بشعبها ارتباطا وثيقا، خالطوا

أولاد الحوارى فى حى الأزهر، وعاشوا الفلاحين فى عين
شمس، وتشربوا الروح المصرية الخالصة ثم عبروا عنها بارقى
وسائل التعبير: الفن والأدب، ولا عجب ان تصدر أول صحيحة
لإبداع ادب مصرى صميم فى مطلع القرن من الاخوين: محمد
ومحمود تيمور.

يم نفسر هذه الظاهرة. توهج العاطفة الوطنية عند بعض
الأتراك المتمصرين، شريف باشا والبارودى وشوقى وقاسم أمين
وأولاد تيمور؟ ادبنا الكبير يحيى حقى يفسرها بأن العرق
الحديث أشد العروق اهتزازا بحب الوطن الجديد وانتباها لفضله
وجماله.. فليست العبرة فى أن يولد الكاتب فى أحضان الطبقات
الشعبية، بل فى قدرته على الاحساس بها وفهمها بفضل حب
وتجاوب روحى.

وهذا على أى حال تفسير مقبول، وتشهد على صحته حوادث
التاريخ، وينطبق على الأستاذ يحيى حقى نفسه صاحب قنديل أم
هاشم، والبوسطجى وخليها على الله، وغيرها من الأعمال
الادبية ذات النكهة الشعبية.

● ● ●

اما رأس الأسرة التيمورية - محمد تيمور كاشف - فقد هبط
مصر ضمن الحملة العثمانية التى جاءت لتهدئة الاحوال بعد
خروج الحملة الفرنسية. وكان بين افرادها محمد على، وكان
تيمور احد الاعمدة التى ساندت محمد على فى تأسيس ملكه
وتولى بعض الوظائف الادارية الكبرى وبنى لنفسه قصرا منيفا
فى درب سعادة، وانجب ولدا وحيدا اسمه اسماعيل لم يسلك نهج
ابيه فى حقل الادارة العليا، فقد شغله العلم عن وهج السلطة،
وجعل من قصره مجمعا للعلماء والادباء والفقهاء، وفى هذا
المناخ الادبى تفتحت مدارك ابنته عائشة فاصبحت شاعرة
مرموقة، وابنه احمد باشا تيمور الذى لم يعرف تاريخ مصر

الحديث نظيرا له في حب العلم وعشق البحث واقتناء المخطوطات النادرة وتحقيقها حتى بلغ مجموع نفائسه ٧١٣٤ مجلدا بين مطبوع ومخطوط اهداها كلها الى دار الكتب . كما خلف للادب والفن ولديه الاديبين الكبيرين محمد ومحمود .

في هذا القصر الذي يشبه دار الحكمة في عصر المأمون ، تنفس الصبيان عبيرا ثقافيا معتقا . وجالسا زمرة عجيبة من البشر الذين لا يمتون بصلة الى الطبقة الارستقراطية التي ينتمي اليها صاحب البيت . وإنما هم خليط من رجال العلم والفقه والادب . ومعظمهم من الفقراء وكلهم من طبقة الشعب . فلم تكن مجالس احمد تيمور باشا - فيما يسجل الناقد الكبير عباس خضر - تضم ابناء الذوات . بل كان روادها ممن تجمعهم بصاحب البيت الصلات الفكرية المشتركة ، ومن هذا العالم السحري الاصيل انطلق الصبي محمد تيمور ليلوى على شيء . ولا على احد من طبقته الارستقراطية فينزل من قصره يبحث عن الادباء والفنانين ويذهب محمد تيمور الى باريس لينهل من علمها وثقافتها كعادة ابناء الذوات في ذلك العصر . ولكن مصر لا تفارق خياله ، فلا يكف عن المقارنة بين حال مصر وحال باريس . ثم يعود من هناك وقد تشبعت نفسه بمشاعر التمرد على القديم والرغبة في التجديد ، ويقود نهضة ادبية قوامها ابراز الشخصية المصرية المستقلة عن الشرق والغرب . وايجاد فن شعبي صادق الاحساس وهو يعبر عن افكاره عن طريق المقالة الصحفية والمسرحية الاجتماعية بل يقف على خشبة الاوبرا يمثل فيراه السلطان حسين فيعجب بشجاعته وتمرده ويأمر بتعيينه آمينا في القصر ، وهي وظيفة يتمناها ابناء الذوات . ولكن فتانا يضيق بها ويراهم قفصا من ذهب . فما إن يموت السلطان حتى يستقيل تيمور ويتحرر من رق الوظيفة ويعود الى عمله الرطب المنطلق . ويتسلطن فؤاد وقد اتى به الانجليز من الكباريه الى العرش فيستقبله تيمور وسيد درويش بمسرحية « العشرة الطيبة » التي يسخر فيها تيمور من فساد الحكم . ويوجه الى السلطان رسالة على لسان الاغوات يقول فيها : عشان مانعلى ونعلى ونعلى .. لازم نطاطى نطاطى .. نطاطى . ويفهم فؤاد الاشارة فيوعز بوقف المسرحية .. ولا يمضى تيمور في مشوار التمرد .. فقد اختطفه الموت وهو في شرح الشباب .. وودع الحياة قبل ان يبلغ الثلاثين من عمره

العفريت ..!

فى

اليوم الأول من أغسطس ١٨٩٦ خلت بيوت القاهرة من سكانها . وهرع الناس - رجالا ونساء وأطفالا - الى الشوارع . واحتشدوا على طول الطريق الممتد من بولاق الى القلعة عبر ميدان العتبة الخضراء . ليشهدوا مخلوقا غريبا يزحف على قضبان ملساء . والأولاد من خلفه يركضون ويتصايحون العفريت .. العفريت .. ولم يكن ذلك العفريت سوى اول عربة ترام تشق شوارع القاهرة فى اول رحلة تجريبية لهذا الكائن الحضارى الذى سيغير وجه المجتمع القاهرى تغييرا شاملا . وفى العربة كان يجلس ناظر (وزير) الأشغال حسين فخرى باشا ومعه كبار موظفيه . وقد تملكهم الزهو والخيلاء . وكانت المركبة - كما وصفها مندوب « المقطم » - تسرع حتى تسابق الرياح متى خلت لها الطريق . وتارة تسير رويدا رويدا . أو تقف بغتة عند اعتراض الأولاد والسابلة طريقها . وقد وقف سائقها ووضع يده على ميزان تسييرها وإيقافها . ويصل بينها وبين السلك فوقها عمود من الحديد زتمام الدورة الكهربائية .

وبعد ايام من تلك المرحلة التجريبية المثيرة ، احتفلت الشركة البلجيكية رسميا بتسيير الترام على الخطوط الثمانية التى كانت تتجمع فى ميدان « العتبة » وتمتد إلى اطراف القاهرة . ووصفت الصحف هذا الحادث الفريد بقولها : شهد اهل العاصمة امس مشهدا قلما شهد مثله اهالى المشرق . ولم يخطر على قلب بشر منذ مائة عام . وهو أن تجرى مركبات كبيرة تقل المئات من الناس ، لا بقوة الخيل ولا بقوة البخار ، بل بقوة الطبيعة التى تسبب البروق . هذا هو الترامواى الكهربائى

وفى الكتاب البديع الذى وضعه محمد سيد كيلانى عن « ترام القاهرة » معلومات طريقة عن عملية تنظيم ركوب الترام . فقد كان يحظر ركوبه على كل محدث غوغاء أو سكران ، أو مصاب بعاهة تشمئز منها النفس ، ولا يجوز تسلق العواميد المعدة للحركة الكهربائية . أو تعليق شئ عليها أو اقامة اشارات كاذبة . ونستخلص من دراسة محمد سيد كيلانى أن تسيير الترام كان حدا فاصلا فى تاريخ المجتمع القاهرى ، انتقل فيه من طور

البدانة والتأخر ، الذى يتمثل فى استخدام الحمير والبغال ، إلى
طور الحضارة والمدنية الذى يتمثل فى استخدام القوة الكهربائية ،
وكان سواد الشعب فى القاهرة يعاني مشقات هائلة فى الانتقال من
جاء استبداد اصحاب الحمير والعربات وتحكمهم فى الناس وما
يوجهونه إلى الجمهور من الفاظ نابية فلما انشئ الترام ، حدثت
ثورة هائلة فى جميع نواحي الحياة القاهرية ، فتلاشت العزلة بين
أحياء المدينة ، وسهلت عملية الانتقال وطاب السهر ، وأصبح فى
مقناول الشبان قضاء الليل فى الملاهى والمراقص ، وبدأت
الروابط العائلية فى التفكك ، وضعفت رقابة الآباء على الأبناء ،
كما ساعد وجود الترام على اتساع حركة العمران ، ونشطت
الحركة التجارية ونشأت المحلات الكبرى فى منطقة العتبة . ولما
سهل على الناس الانتقال عظم امتزاجهم واشتد اختلاطهم ، وبدأ
الرأى العام يتبلور ويصبح خطرا على الجهات الحاكمة ، وكثرت
الأندية الثقافية والرياضية والصحف والمجلات وكان من
الطبيعى ان ينعكس هذا كله على الادب .. فظهر « الأدب
الترامى .. » الذى يسجل معالم الحياة الجديدة بما فيها من خير
وشر ، وخلاعة ومجون ، وتقدم وتأخر .. وخصوصا بعد أن أصبح
الترام سببا فى وقوع حوادث لم يألّفها جمهور القاهرة من قبل وفى
ذلك يقول شاعر خفيف الظل اسمه إلياس حنيكأتى
إن الترامواى على القاهرة مصيبة يا قومنا قاهرة
فكم قلوب هالها رهبة وكم نفوس غالها طاهرة
يجرى وعزرائيل من خلفه يمد للقبض يدا غادرة
فيأرجال الضبط ما ضبطكم وأين الأعين الساهرة
وبمرور السنين ، يضحى الترام وسيلة متخلفة بالقياس إلى
وسائل النقل الأكثر حداثة وسرعة ، وانطبقت عليه سنة الحياة
التي لا ترحم العاجزين عن مواكبة ايّاق العصر ، فكاد يختفى من
شوارع العاصمة ، ترى .. ماذا سيقول سكان القاهرة بعد عامين
عندما يشاهدون مركبات المترو وهى تشق بطن الأرض ؟؟ وهل
سيصيحون كما صاح أسلافهم : العفريت .. العفريت ؟؟ أغلب
الظن انهم لن يفعلوا .. لأن كلمة عفريت نفسها قد اختفت من
قاموس الألفاظ الدارجة عند أطفالنا .

غرام الشيوخ

أصبح من الواجب أن نتحدث عن الشيخ على يوسف ، وقد انتقل الوفد - حزبا وجريدة - الى المقر الجديد الذى يقع فى شارع يحمل اسم هذا العلم الذى خفق فى سماء مصر فى مطلع القرن . فكان ملء الأسماع والأبصار ، والبطل المغوار فى حقل السياسة والأدب والصحافة ، والنجم الساطع فى دنيا العشق والغرام . واكتسب من كل أولئك مجدا رفعه الى مصاف العلية المرموقين . وحقق ما كان يصبو اليه من جاه وثراء ونفوذ .. ثم إذا به - فجأة - يبدد كل هذا المجد . ويعتزل الأضواء والشهرة والصخب ، ويسعى الى وظيفة شيخ طريقة صوفية !! فكان مثله كمثل الرايح الذى خسر كل شيء وهو لم يزل فى حلبة الصراع . فيلقى سلاحه وهو فى يوج انتصاره ويدير ظهره الى خصومه قبل ان ينقشع غبار المعارك ، ثم يتركهم وهم فى ذهول من امره لياوى الى ركن ظليل فى تكية صوفية متعلقا بأهداب الانتساب الى بيت من بيوت السادة الإشراف .. عساه يجد فى الشرف المصطنع ما يرضى كبريائه الجريح ، ويعالج العقدة التى دمرت سعادته ونغصت حياته - عقدة النسب الوضيع - وحرمة لذة الاستمتاع بثمار النصر التى اجتناها بيظافره فى مجتمع كان يقيم اعتبارا كبيرا لعوامل الحسب والنسب .



جاء على يوسف من أعماق الصعيد شابا يافعا الى رحاب الأزهر مثل ملايين من أبناء الفقراء سبقوه على الدرب بحثا عن إثارة من علم تؤهلهم لشغل وظيفة متواضعة العائد . ولكن شيخنا الشاب كان يحمل بين جنبيه روحا وثابة ، وهمة عالية ، وإرادة حديدية وعنادا فطريا ضد عناصر المقاومة التى تحول بينه وبين ما يريد ، كانت نفسه تجيش برغبة عارمة فى أن يكون شيئا مذكورا ، فكان عليه أن يقتحم العالم الفوقى الذى يمسك فى يده زمام السلطة والنفوذ والجاه والثراء ، ولم يكن شيخنا يملك المفاتيح التى تمكنه من دخول ذاك العالم الصاخب ولكنه كان يملك من القدرات الذاتية والملكات العقلية والخلقية ما يعوضه عن عراقة النسب وفخامة الحسب وكان عليه أن يوظف هذه القدرات ليصل الى

مبتغاه .. فكان ذنباً بين الذناب يناطح اضرابه المتكالبين على مائدة السلطان وكل يحاول الزلفى الى صاحب العرش ، وكان عليه ان يكون ثعلباً شديداً الدهاء ، يراوغ ويناور حتى يفوز بقلب الامير .. وكان ما اراد ، فإذا به بين عشية وضحاها جليس الخديو ونديمه ومكمن سره ولسانه الناطق ، واصبحت صحيفته (المؤيد) كبرى صحف الشرق فى آخريات القرن الماضى هى صوت السلطة الشرعية فى مقابل (المقطم) صوت السلطة الفعلية والناطقة باسم الاحتلال ، وفى مواجهة (اللواء) صوت الشعب النابض بالحرارة الوطنية .

وتنشأ بين الصحف الثلاث أو قل بين السلطات الثلاث معارك طاحنة يخوضها الشيخ شاهراً قلمه الفتاك فى وجه خصوم الخديو غير عابىء بسخط الجماهير عليه وعلى سيده ، وكان يردد : والله ما يعنينى أن يكون الناس جميعاً فى صف واحد ، وأنا والحق الذى اعتقده بإزائهم فى صف واحد .



وتشهد الحياة السياسية المصرية فى مطلع القرن طفرة انتقالية تتمخض عن ظهور الأحزاب السياسية لأول مرة فى تاريخ البلاد ، ولم يكن من الغريب أن تولد هذه الأحزاب فى حجب الصحافة التى كان لها دور الريادة فى ايقاظ الحس الوطنى وتحريك الجماهير بعد فترة الركود التى رانت على مصر منذ ابتليت بالاحتلال البريطانى فى احضان (اللواء) ولد الحزب الوطنى بين يدي زعيمه الشاب مصطفى كامل وهو يومئذ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، وفى احضان (الجريدة) ولد حزب الأمة ليعبر عن مصالح اثرياء مصر فى مواجهة فلول التركية البائدة والعائدة فى شخص عباس الثانى ، وينهض الفيلسوف احمد لطفى السيد ليتكلم باسم (اصحاب المصالح الحقيقية) وينشر بذور الفكر الليبرالى على صفحات الجريدة ، ومن حوله الجناح المثقف فى معسكر الارستقراطية المصرية الناشئة .

ولم يكن للخديو الشاب ان يقف متفرجاً فى الساحة التى تغور بالأفكار والمصالح المتضاربة ، كان عليه أن ينشئ حزباً يتحدث باسمه ويدافع عن مبادئه التى تقف عند الحد الفاصل بين وطنية مصطفى كامل الجامحة ، وعقلانية احمد لطفى السيد المتهادنة مع

الاحتلال ، وكان على الشيخ على يوسف ان يلبي رغبة الأمير
ويصنع له حزبا .. اسماه حزب (الاصلاح على المبادئ
الدستورية) ، وكأى حزب يولد فى حجر السلطة فيكتب شهادة
وفاته مع شهادة ميلاده ، كان مصير هذا الحزب الأميرى ، فكان
معدوم التأثير والفعالية فى الشارع المصرى ، بينما ظل صوت
(المؤيد) اقوى تأثيرا واكثر فعالية حتى خلع البعض على
صاحبه لقب (اعظم صحفى فى العالم) ووصفوا صحيفته بأنها
(تايمز الشرق) ومع ذلك لم تشبع هذه الامجاد طموحات على
يوسف .. فراح يبحث عن المجد فى دنيا الحب .. فلم يجد إلا
الجحود والعذاب والحرمان .

عاشقان جريئان

كان مكتب الشيخ علي باشا يوسف في صحيفة « المؤيد » ، أشبه بمنندى فكرى يتردد عليه وجوه القوم من رجال الدين والسياسة والأدب ، وكان من أبرز هؤلاء : السيد عبدالخالق السادات عميد بيت السادة الوفائية . وهو من أعرق البيوت المصرية وينتهي نسبهم الى الحسن السبط ابن الامام علي كرم الله وجهه ، وأعتاد السادات أن يصحب معه الى المؤيد صغرى كريماته (صفية) وكانت صبية مليحة على شيء من البدانة التي كانت من سمات الجمال في ذلك العصر . وراقت الصبية في عين الشيخ علي وصادفت من نفسه هوى ، فخطبها من أبيها الذي رحب بمصاهرة رجل ذائع الصيت ، كبير الجاه لقرب موقعه من الخديو عباس ، وتجاهل الأب فرق السن بين الشيخ والفتاة ، كما تجاهل انعدام الكفاءة الاجتماعية بين رجل مجهول النسب ، وأسرة تحظى بشرف الانتساب الى البيت النبوي ، وقبض الأب مهر ابنته وسافر الجميع لقضاء الصيف في ربوع تركيا كعادة الوجهاء في ذلك العصر ، على أن يتم الزواج بعد العودة الى مصر .. ولكن .. بعد العودة شعر الشيخ علي يوسف بأن السادات يماطل في إتمام العقد . بل صرح بأنه لن يصاهر رجلاً لا يضارعه حسبا ونسبا . ولما كان الشيخ العاشق واثقا من تعلق الصبية به ، واستعدادها لإتمام الزواج رغم معارضة أبيها - فقد أقدم العاشقان على خطوة جريئة في عرف العصر ، وهي إبرام عقد القران في بيت آخر خارج بيت الوالى الشرعى ، ووقع اختيارهما على سراى البكرى بالخرنفش محلا مختارا لإتمام العقد .

● ● ●

وكان السيد توفيق البكرى - نقيب الاشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية - على رأس البيت الآخر من بيوت العلوية الاشراف هو بيت السادة البكريين الذين ينتهى نسبهم الى ابي بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان البيتان الكريمان - البكرى والوفائى - يتناوبان زعامة نقابة الاشراف ، وهو منصب كان له

جليل الخطر وعظيم الأثر فى نفوس المصريين لما عرف عنهم من تعظيم وإجلال لكل من ينتمى لأهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه الأبرار .

وأراد السيد توفيق البكرى أن يجمع البيتين تحت لواء واحد عن طريق النسب حتى تظل له نقابة الأشراف ، خاصة أن السيد عبد الخالق السادات لم ينجب غير ثلاث بنات ، فتزوج توفيق من كبراهن (حفيظة) وزوج الوسطى (أسماء) من ابن أخيه عبد الحميد البكرى حتى تتوافر له وراثته الزعامة إذا حرم العم من إنجاب الولد ، وبقيت الصغيرة (صفية) لتكون من نصيب على يوسف ، ولتكون بطله هذه القصة التى هزت المجتمع المصرى من أعماقه ، وانقسم بسببها الراى العام بين مناصر للتقاليد والآداب الاجتماعية ، ومؤيد للتحرر والخروج على الأعراف الموروثة ، ولم يكن غريبا أن تكون هذه القصة مجالا للصراع بين القوى السياسية الكبرى : المعتمد البريطانى كرومر والخبديو عباس والزعيم الشاب مصطفى كامل وكل الأحزاب السياسية فضلا عن المؤسسات الدينية التى هبت للدفاع عن حرمة الشرع .

● ● ●

لقد فوجئ السيد توفيق البكرى بصديقه الحميم على يوسف باشا وشقيقة زوجته - صفية - يدقان عليه باب قصره المنيف بالخرنفش - الذى كان يوما مقرا وسكنا لوالى مصر عباس الأول ومن بعده سعيد باشا - ويضعانه أمام الأمر الواقع ويطلبان منه إتمام عقد الزواج على سنة الله ورسوله ، واسقط فى يد الرجل . فقد كان يعلم جيدا مخاطر هذا التصرف الذى يتنافى مع تقاليد السادة الأشراف ، فضلا عن منافاته للآداب العامة التى لا تقبل بحال أن تعقد فتاة زواجها دون رغبة أبيها ، ولكنه وجد نفسه أمام عاشقين مصممين على تنفيذ عزمهما ، ويهددان بتنفيذ غرضهما فى مكان آخر إذا أصر على الرفض ، فما كان منه إلا الخضوع والاستسلام ، وبعث يستدعى الشيخ حسن السقا إمام وخطيب الجامع الأزهر فتولى الوكالة عن الفتاة ، وشهد على العقد زوجا اختيها توفيق وعبد الحميد البكرى وشرب الجميع الشربات .

● ● ●

وبعد ٤٨ ساعة ، وفى يوم السبت ١٦ يولية ١٩٠٤ خرجت

صحيفة (المقطم) تزف الى قرائها نبأ « عقد قران السيد علي يوسف علي إحدى كريمات السيد عبد الخالق السادات في حفلة ضمت الكثير من العلماء ، ثم قصدت العروس بعد ذلك الى المنزل الذي أعده لها بناحية الظاهر » وتعمدت المقطم إغفال ذكر المكان الذي عقد فيه القران إمعانا في تضليل الأب الذي جرح في كرامته أمام أتباعه ومريديه ، وإذلاله أمام الرأي العام الذي يضع بيت السادات حيث هو من التكريم .. وبعث السادات بخطاب الى الصحف ينفي فيه علمه بالزواج ، ويؤكد أن الزواج - إن وقع - فعلى غير رضاه ، وأنه أبلغ الأمر الى جهات الاختصاص ، وكان من الطبيعي أن تمتنع (المؤيد) عن نشر الرسالة ، ولكن المريب كان امتناع (المقطم) عن نشرها بعد أن نشرت الخبر وخرجت (اللواء) وفي صدر صفحتها الأولى رسالة الأب الجريح ، فكانت أشبه بقنبلة انفجرت فتطايرت شظاياها في رقعة واسعة من الأرض .. هي كل أرض مصر .

أبوخطوة يقرب المائدة

عشرة أيام فقط من اعلان زواج الشيخ علي يوسف وصفية السادات ، بدأت محكمة مصر الشرعية في نظر الدعوى التي رفعها السيد عبدالخالق السادات طالبا فسخ العقد لانعدام شرط الكفاءة بين الزوجين ، واستند الأب إلى أن الشيخ علي يوسف - وإن كان صحفيا مرموقا وأديبا مشهورا وزعيما لحزب سياسي وأحد المقربين من أمير البلاد - فإنه يفتقر إلى النسب الرفيع الذي يؤهله للزواج من إحدى سليلات البيت النبوي .. فكل هذه المكتسبات مستحدثة ولا تغير من الواقع شيئا ، وهو أن الشيخ علي من « العامة » الذين لا يحق لهم التطلع إلى مصاهرة الأشراف .

وفي يوم نظر القضية غصت ساحة المحكمة الشرعية بباب الخلق بأشتات من البشر من شتى الطبقات والثقافات .. جاءوا من كل فج عميق ليشهدوا وقائع هذه القضية التي تمس بعض مقدسات المصريين في احترام العلاقات الأسرية ، ومراعاة الآداب الاجتماعية والتقاليد الموروثة ، وكانت الكثرة الغالبة من الرأي العام تقف في صف الأب المنكوب ضد الشيخ الذي أغوى فتاة شريفة وحرصها على التمرد والخروج على الآداب فتزوجت بغير رضا والدها ، بينما كانت القلة المثقفة المتحررة من التقاليد تناصر الشيخ علي يوسف الذي صنع مجدا لم يستمد من عراقه الحسب والنسب ، ولكن من شرف العمل والجهد والكفاح .. ولا ترى هذه الفئة عيبا في خروج فتاة علي ولاية أبيها لتتزوج الرجل الذي أحبته .



تلك كانت عناصر الصراع بين جبهة التقاليد والأخلاق ، وجبهة التحرر والانفلات ، ولكن هذا التمايز الأخلاقي الظاهري كان يخفي وراءه صراعا أشد وأعتى بين القوى السياسية الجبارة التي وقفت وراء الكواليس كل منها تؤيد طرفا من أطراف القضية ، وتسعى لتصفية حسابات سياسية لا علاقة لها بجوهر القضية . فمصطفى كامل وجدها فرصة ذهبية للانتقام من غريمه اللدود علي يوسف ، الذي كان دائم التهجم على الزعيم الشاب واتهامه

بالرعونة والتطرف ، وانهالت معاول مصطفى كامل فى (اللواء) على رأس صاحب (المؤيد) وزعيم حزب الإصلاح ، ولكنه فى الحقيقة كان يقصد رأس الأفعى - عباس الثانى - الذى نفى يده من معسكر الحركة الوطنية وانحاز نهائيا إلى صف الاحتلال بعد توقيع الاتفاق الودى بين إنجلترا وفرنسا فى أبريل ١٩٠٤ أى قبل أربعة شهور فقط من انفجار قضية الزوجية .

وكان عباس يعى جيدا أبعاد الهجوم الشرى الذى شنه مصطفى كامل على نديمه على يوسف ، ويعرف أنه المقصود بالهجوم حتى لو تذرع صاحب اللواء بحجة الدفاع عن آداب الشرع وحرمة التقاليد ، ووجد الخديو نفسه مضطرا إلى الوقوف إلى جانب رجله فى محنته ، ومحاولة إنقاذه من الورطة الغرامية التى تطورت إلى محنة سياسية ، وضعت القصر فى دائرة الاتهام ، فعباس نفسه كان متهما بأنه هو الذى أوحى إلى الشيخ على بفكرة الزواج من بنت السادات وانتحل له نسبا شريفا مزيفا حتى تتاح له فرصة رئاسة مشيخة السادات الوفائية ، فيضمن ولاء هذه الفرقة الدينية الثرية بوضعها تحت رئاسة أحد رجاله الأصفياء ، وكان عباس يسعى دائما للاستيلاء على مناصب الرئاسة الدينية فى مصر ، ولا سيما الرئاسة التى لها إشراف على الطرق الصوفية وأوقافها ذات الأيراد المالى الوفير ، وكانت هذه الرغبة محلا لصراع تاريخى معروف بين الأمير ومفتى الديار الإمام العظيم محمد عبده الذى رفض بإباء وضع الأوقاف الخيرية تحت سيطرة الخديو .



ولم يتخلف جبار الاحتلال - اللورد كرومر - عن المشاركة فى إنكاء حمى الصراع بين أطراف قضية الزوجية ، فاختار الوقوف إلى جانب على يوسف تسديدا لحسابات قديمة اتخذ فيها الشيخ موقف المؤيد للإنجليز ، وليقطع بينه وبين الحركة الوطنية التى اتخذت موقف الشماتة من الشيخ العاشق ، ولتكون مناصرة الإنجليز لرجل القصر القوى أولى ثمار المصالحة بين كرومر وعباس ، وإغراء الأمير بمزيد من التورط فى مهادنة الاحتلال . تلك كانت طبيعة القوى العظمى التى تخفت وراء القوى الصغرى استعدادا للجولة الحاسمة فى ساحة القضاء . وكانت

كل منها تظن انها سوف تكسب الجولة . ولم يخطر ببال هذه القوى الجبارة ان كل ما حاكته من مؤامرات وحيل سوف ينهار أمام جبروت شيخ ازهرى ضئيل الحجم قوى الشكيمة صلب الراى .. لا يكاد يظهر من خلف منصة القضاء التى يجلس عليها .. إسمه الشيخ أحمد أبو خطوة فلم يكذ ينفرج الستار عن الفصل الأول من القضية حتى اهتزت مصر من أقصاها إلى أقصاها بسبب الحكم الذى أصدره .. وقلب به المائدة على رؤوس أصحابها .

إضراب القضاة

كان

نظر قضية الزوجية امتحانا رائعا لاستقلال القضاء الشرعى ، فالسلطة - ممثلة فى الخديو عباس واللورد كرومر - كانت تساند الشيخ على يوسف وتسعى جهدها لكى يصدر الحكم فى مصلحته ، ويرد له اعتباره الذى أطاح به تهجم صحف الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل . وكان الراى العام الذى يقدر التقاليد والآداب الاجتماعية يساند السيد عبد الخالق السادات والد الفتاة التى هجرت بيت أبيها لتعيش تحت سقف واحد مع زوجها على سنة الله ورسوله ، إلا أن هذا الزوج كان فى راى الناس مغتصبا أغار على النسب الأنجب !

وفى الجلسة الأولى لنظر القضية أمام محكمة مصر الشرعية طلب محامى الزوج حسن صبرى باشا (رئيس الوزراء فيما بعد والذى مات أثناء إلقائه خطاب العرش سنة ١٩٤٠) التأجيل حتى يتمكن من الاطلاع على جوانب القضية ، فأنبرى له الشيخ عثمان الفندى محامى السادات قائلا : إذا رأت المحكمة التأجيل فلتأمر بالحيلولة بين الزوجين إلى أن يبدأ النظر فى الموضوع . فما كان من القاضى الشيخ أحمد أبو خطوة إلا أن أمر بإقامة الحيلولة بين الزوجين وإخراج السيدة صفية من بيت زوجها بالقوة الجبرية وأعادتها إلى بيت أبيها . ومعنى ذلك أنه أخذ بوجهة النظر التى ترى أن الزواج قام على أساس باطل ، وأن استمرار العشرة بينهما هو اعتراف بدوام الخطيئة بينهما ، الأمر الذى يستوجب التفريق بينهما لحين البت فى الطلب الأصلى وهو فسخ عقد الزواج . وتقبلت الجماهير المكتظة فى ساحة المحكمة قرار القاضى بالهتاف والتهليل ، أما الشيخ على يوسف فقد وقع عليه القرار وقوع الصاعقة وسافر لتوه إلى الاسكندرية ليدير الأمر مع ولاة الأمر الذين كانوا يقضون هناك شهور الصيف لعلهم يساعدونه فى الخروج من هذه المحنة خاصة أن زوجته أخبرته بأنها لن تعود إلى بيت والدها إلا جثة هامدة وساعد على تأزم الموقف أن صحيفة (المقطم) الناطقة باسم الاحتلال قالت بعد اجتماع الشيخ على مع بطرس غالى باشا وزير الحقانية (العدل) أن أمر الحيلولة لن ينفذ ، فأنبرت لها (اللواء) بسيل من المقالات تحذر

فيها من تدخل السلطات في شئون القضاء ، وتستنفر الراى العام للدفاع عن حرمة الشرع وكرامة التقاليد واستقلال القضاء .



وفى الساعة السابعة من صباح ٢٧ يوليو ١٩٠٤ اتصل الشيخ عبدالرحمن الأفندى قاضى قضاة مصر بمحافظ القاهرة ، وسأله عما تم بشأن تنفيذ أمر الحيلولة ؟ فأجابه المحافظ بأن الأوراق لا تزال معروضة على رئيس الوزراء ووزير الداخلية - مصطفى باشا فهمى - بالاسكندرية . عندئذ ادرك قاضى القضاة أن الحكومة ماضية فى تعويق احكام القضاء وتعطيل قرار الحيلولة ، فأتصل على الفور بالقاضى الشيخ أحمد أبو خطوة وطلب منه أن يذهب الى قاعة المحكمة وينتظر منه كتابا يقرؤه فى الجلسة عند افتتاحها ، واتفق الرجلان على أن يتخذا مع الحكومة إجراء يهذبها ويعلمها أن حكم القاضى واجب الاحترام ، وأن القضاء يجب أن يكون بمنأى عن تدخلات السياسة وشئون الحكم . وعند بدء الجلسة اتخذ الشيخ أبو خطوة موقعه على المنصة دون أن يتكلم .

وظلت الجماهير تتربع بلهفة انجلاء الموقف ، ولم يكن يسمع سوى وجيب القلوب يتردد فى القاعة وقد خيم عليها صمت رهيب . ومرت فترة كأنها دهر حتى تلقى الشيخ أبو خطوة ظرفا يحتوى على رسالة قاضى القضاة ففرض الظرف وقرأ الرسالة على الجمهور ، وكانت تتضمن قرارا صريحا بأن تتوقف جميع محاكم مصر الشرعية عن نظر القضايا المعروضة عليها إذا لم تلتزم الحكومة بتنفيذ حكم القضاء واحترام قراراته ، فكانت اول دعوة الى الاضراب العام فى تاريخ القضاء المصرى ، ولم يكد الشيخ أبو خطوة يعلن قرار الاضراب العام ، حتى ضجت القاعة بالهتاف بحياة القضاء واستقلاله ، وخرجت الجماهير الى ميدان باب الخلق وقد اشتعلت حماسها ، فأحاطت بمبنى المحافظة الملاصق لمبنى المحكمة تعبيراً عن سخطها لتدخل السلطات الحاكمة فى شئون القضاء ، وطيرت وكالات الأنباء الخبر إلى كل أركان الدنيا .. وتكهرب الجو فى جميع أنحاء مصر ، ودب الفرع الى نفس الخديو عباس حلمى الثانى ومعه اللورد كرومر ، واجتمع مجلس الوزراء على الفور وأصدر بياناً أعلن فيه التزامه بتنفيذ

قرار الحيلولة ، واضطرت الدولة بكل هيلمانها إلى أن تتراجع أمام
سطوة شيخين أزهريين لا يملكان من مظاهر القوة سوى شجاعة
القلب ، ويقظة الضمير ، واحترام النفس ، والترفع عن تملق
الحكومة ، والتمسك بكرامة القضاء .
وبعدها دخلت قضية الزوجية منعطفًا جديدًا .

نهاية المأساة

أَصْرَتْ السيدة صفية السادات على عدم العودة الى بيت ابيها تنفيذا لقرار المحكمة الشرعية باقامة الحيلولة وعدم المخالطة بينها وبين زوجها الشيخ على يوسف الى ان تفرغ المحكمة من البت في الموضوع الاصلى ، وهو طلب فسخ عقد الزواج لانعدام شرط الكفاءة بين الزوجين ، وازاء اصرار الشيخ ابو خطوة على تنفيذ امر الحيلولة ، تم الاتفاق على ان تغادر صفية بيت الزوجية لتقيم عند رجل مشهود له بالنقوى والصلاح وحسن السيرة هو الشيخ الرافعى ، وقبلت صفية هذا الحل ، وانتقلت بالفعل الى بيت الرافعى ولكنها لم تنفذ امر الحيلولة بالدقة التى ينتظرها الشيخ ابو خطوة ، فقد ظلت الاتصالات مستمرة بينها وبين زوجها عبر رسائل تفوح عشقا وهياما .. وتصرخ بلوعة الحبيبين اللذين فرقت بينهما التقاليد العاتية ، بعد ان جمعت بينهما الشريعة السمحاء .

وكانت لدى الشيخ على خادمة اوربية تتولى نقل الرسائل بين الزوجين العاشقين ، وتسربت انباء الخادمة والرسائل الى الصحف المعادية للشيخ على ، فلم تتحرج من نشرها فى اطار الحملة المسعورة لتجريح الزوجين واحراج الشيخ الرافعى ، وزادت الصحف بان الشيخ على نفسه يتسلل فى الهزيع الاخير من الليل الى بيت الرافعى ويختلى بزوجته صفية ثم ينسحب عائدا الى بيته قبل ان يبزغ الفجر ، وثار الشيخ الرافعى لهذه الانباء المثيرة التى تمس كرامته وتهز امانته كحارس على الزوجة ومنع اى مخالطة بينها وبين زوجها حتى لو كانت مخالطة شاعرية عبر رسائل الغرام الملتهبة ، وكتب الشيخ الرافعى الى قاضى القضاة طالبا اخراج صفية من بيته وايداعها بيت مفتى الديار المصرية الشيخ حسونة النواوى - والد الاستاذ عبدالخالق حسونة الامين العام السابق للجامعة العربية - الذى اسقط فى يده خوفا من ان تنتقل المشكلة الى بيته ، فتدخل بين الاطراف المتنازعة وتمكن من اعادة الامور الى نصابها بعد ان تعهدت

صفية بعدم استقبال الخادمة الاوربية وتعهد الشيخ على بالكف عن بث هيامه عن طريق الرسائل .

وبدأت المحكمة في نظر الدعوى وتحدث الشيخ الفندى محامى السادات فطالب ببطلان الزواج على أساس أن الزوج كان في شبابه من الفقراء ومن غمار الناس الذين لا يعرف لهم نسب رفيع يؤهله لمصاهرة بيوت الاشراف وكانت « تهمة » النسب الوضيع هي التهمة الاولى في حق الرجل ، أما التهمة الثانية فكانت .. حرفته .. إذ قال المحامى إن الشيخ على يحترف « مهنة دنيئة » هي مهنة الصحافة التى تقوم على التجسس والتلصص على اسرار الناس .. وهى أمور ينهى عنها الشرع !!

واستمعت المحكمة الى اقوال الشهود الذين جاءوا ليقرأوا عن ظهر قلب شجرة الاسرة التى ينتمى اليها السادات والتى تنتهى الى الدوحة النبوية ، فاذا سئلوا عن نسب الشيخ على قالوا انهم لا يعرفون له اصلا ! وكانت الصحف خارج اسوار المحكمة ترد نفس الدعاوى التى ترد على السنة الشهود ، ويعترف الاستاذ عباس محمود العقاد بأنه لفق للشيخ على لقباً حقيراً مستمداً من حساب الحروف والطوالع ، فاختار له لقب (نورى) الذى يعرف به الفجر وشذاذ الافاق ، ويبرر ذلك بان الشيخ على كان متهما بالانتساب الى هذه الطائفة ، كما كان يقال بأنه من (المسلمين) الدخلاء على الاسلام من ناحية جده الاول .

إلى هذا الحد بلغت قسوة المثقفين فى الطعن على الرجل لأنه خرج على التقاليد ، ولم يشفع له عندهم أنه صنع مجده بيده ، وشق طريقه فى الصخر ، وتربح على القمة التى ثرنو اليها الابصار دون اعتماد على الحسب الموروث .. ولكنها طبيعة المناخ الذى كان يسود الحياة الاجتماعية والثقافية فى اخريات القرن الماضى وبدايات القرن العشرين وكان الشيخ ابو خطوة من اشد القضاة تزمناً ومغالاة فى الحرص على التقاليد ومقاومة نزعات التحرر التى بزغت ريحها فى كتابات قاسم أمين ولطفى السيد ومحمد حسين هيكل وغيرهم من دعاة الحرية والمساواة . وبعد الفراغ من التحقق من نسب الطرفين ، انتقلت المحكمة للتحقيق فى « شرف » المهنة التى ينتمى اليها الشيخ على ، فاذا

بالشيخ الفندى يصول ويجول طعنا وتحقيرا من شأن الصحافة ..
وانتهى الى أن الشيخ على يوسف - صاحب أكبر جريدة في
الشرق - ليس مشغلا بالصحافة ، قائما بها ، « وإنما هو مشغل
بشيء يشبهها لأغراضه ، وهذا اشتغال بأخس الحرف وادنىها »
وعبثا حاول « المتهم » أن يدافع عن نفسه مالحق به من عار
وشنار .. وبعد الفراغ من نظر وقائع الدعوى ، اعتكف الشيخ ابو
خطوه عن الناس لاعداد الحكم الذى اعلنه وسط تهليل العامة
وتصفيقهم ويقضى بفسخ عقد الزواج .. ونظر الناس الى هذا
الحكم على أنه انتصار للأخلاق والتقاليد وهزيمة للتبرج
والفساد .. أما رجال السياسة فقد اعتبروه انتصارا للحركة
الوطنية وهزيمة للخديو عباس واللورد كرومر .. وهكذا نظر كل
منهم بالمنظار الذى يخصه ، أما أبطال القصة الاصليون فقد
انسحبوا خلف الكواليس بعد أن انفض السامر وانصرف
الجمهور ، وعكفوا على معالجة قضيتهم بعيدا عن صخب العامة
وضجيج السياسة وتزمت القضاء ، وتدخل أهل الخير ودعاة
الصلح بين الطرفين ، فوافق الشيخ السادات على تزويج ابنته
ممن أحببت بعقد جديد ، وظن الشيخ العاشق أنه قد بلغ المرام
بهذا الاعتراف ، وأنه سينهل من بحر العسل فى عش الزوجية
الجديد ، ولكن حياته انقلبت جحيما على يد زوجته الشابة التى
كانت فى سن إحدى بناته . واضطر الشيخ وهو فى سن الكهولة
إلى أن يهرب من البيت لينسى همومه فى دوامة العمل فكان يقضى
معظم ساعات النهار والليل داخل (المؤيد) يصول ويجول فى
دنيا السياسة بعد أن خسر معركة الحب ، حتى إذا بلغ قمة المجد
الصحفى والسياسى خرج على الناس بقرار غريب هو اعتزال
الصحافة والسياسة معا ليتفرغ لوظيفة شيخ الطريقة الوفاية
الصوفية ، عساه أن يؤاسى الجرح الذى حطم كبرياه وينتسب -
ولو زورا وبهتانا - الى الشجرة التى لفظته وهو فى قمة المجد
والسؤدد . وما هى الاسنوات قليلة حتى ودع الشيخ على يوسف
باشا الدنيا بعد أن أنهكه المرض وهذته معارك الحب والحرب
وخلف وراءه زوجة شابة لم تحقق له ما كان يطمح اليه من سعادة
زوجية . ولقد عبر شاعر النيل حافظ ابراهيم عن مأساة الشيخ
على يوسف ضمن قصيدته الرائعة التى انتقد فيها علل المجتمع

المصري في ذلك العصر ومطلعها :
حطمت اليراع فلا تعجبي وعفت البيان فلا تعتبي
فما أنت يا مصر دار الأديب ولا أنت بالبلد الطيب
وكم ذا بمصر من المضحكات كما قال فيها أبو الطيب



وقال (المؤيد) في غمرة رماه بها الطمع الأشعبي
دعاه الغرام بسن الكهول فجن جنونا ببنت النبي
فنادى رجال بإسقاطه وقالوا تلون في المشرب
وزكى (أبوخطوة) قولهم بحكم أشد من المضرب

فيا أمة ضاق، عن وصفها جنان المفوه والأخطب
تضييع الحقيقة ما بيننا ويصلي البريء مع المذنب
ويهضم فينا الامام الحكيم ويكرم فينا الجهول الغبي

أدب البصل



عيناي على صورة شيخ وقور تزين جدران بيتنا ..
كان الرجل بهي الطلعة .. وسيم الملامح .. مفتول
الشارب .. توحى نظراته بالارتياح والثقة ،
فكانك أمام عم أو خال أو جد .. ولقد ظننت في
البداية أنه أحد الأقرباء .. فلما بلغت مرحلة الصبا عرفت أنه
لا يمت إلينا بصلة الدم .. ولكن بصلة العقل والروح .. فقد كان
أبى من عشاق المنفلوطي .. فلما دخلت المدرسة الابتدائية
واجهت نفس الصورة في كتاب المطالعة وتحتها عبارات تذوب
رقة وعذوبة عن الرحمة والتراحم والبؤس والبؤساء .. وكان على
أن أحفظها حتى أستخدمها في صياغة دروس الانشاء ، فقد كانت
الوصية الأولى عند أساتذة اللغة العربية في كل أنحاء مصر :
اقرأ المنفلوطي ثم اكتب على منواله ، وكلما تقدمت في مراحل
التعليم ازددت قربا من المنفلوطي ، فقرأت « النظرات » ثم
« العبرات » ثم بقية السلسلة الراقية التي صاغها السيد مصطفى
لطفى المنفلوطي : الفضيلة وما جدولين وفي سبيل التاج .. حتى
بات المنفلوطي جزءا لا يتجزأ من كياني الثقافي .

وإذا سألتني عن سر عظمة المنفلوطي قلت لك إنها تتمثل في
قدرته على بث القيم الخلقية الرفيعة والآداب السامية والمثل
العليا في أسلوب محبوب إلى النفس - وتلك وظيفة الأدب كما كنا
نتعلمها - فأنت أمامه لا تشعر بانك بإزاء واعظ أو أستاذ ، ولكنك
بجوار صديق عزيز يمس أوتار قلبك بأصابع حانية .. فلا تلبث
ينابيع الخير أن تتفتح في نفسك لتستقبل معاني الحق والفضيلة
والجمال .. مثلما تتفتح الزهرة لتحتضن أشعة الشمس .

وأنت حين تقرأ المنفلوطي ، فإنك في الواقع لا تقرأ كلاما
مرصوصا أو عبارات جامدة .. وإنما تسمع الحانا شجية تنبعث
من قيثارة مستكنة في أعماقك .. فتحرك في نفسك إحساسا بالسمو
والارتقاء ، فإذا بك تصعد إلى أفاق علوية ، وإذا بك قد تجردت من
نوازع الحقد والجشع والظلم والأنانية .. وإذا بك قد استحلت
كائنا نورانيا يشع بالجمال والطهر والعفاف ..

وظلت رفقتي للمنفلوطي حتى بعد أن تخرجت في الجامعة ..
وتعرفت إلى أدباء من الشرق و من الغرب .. لكل منهم طعمه

ومذاقه .. وأسلوبه ومنهجه .. ومع ذلك بقي المنفلوطي مستقرا
في أعماقي .. ألون به كلما أجهدني المسير .. ولسعتني شدة
الحياة .. فارتشف من نبعه الصافي بضع قطرات تملأ النفس بشرا
وانسا .

وكان أشد ما يؤلمني تحامل النقاد على الأدب المنفلوطي ..
واتهامه بإشاعة روح الضعف والتخاذل والخور في نفوس
الشباب . وكان على رأس هؤلاء الناقدين الاستاذ العقاد .. فقد كان
من المؤمنين بفلسفة القوة ، والمبشرين بفكرة البطولة ، وقد
أزعجه أن رأى كراريس الانشاء عند تلاميذه - وقت أن كان
مدرسا - لا تخلو إحداها من « ميراب دمع او ماتم شجو وانين »
تأثرا بأدب المنفلوطي ، وقد بلغت السخرية عند العقاد أن طلب
من طبياخ المدرسة أن يجمع مخزون البصل عنده ثم يقدمه الى
التلاميذ أثناء حصص الانشاء ليستخدموه في استدرار الدموع بدلا
من أدب المنفلوطي .. « فالبصل أولى بمهمة تصريف الدمع من
كراسة الانشاء » على حد تعبير العقاد .

ولم يكن العقاد فريد عصره في التحامل على المنفلوطي
واتهامه بالإفراط في البكاء وإشاعة الأحزان في نفوس قرائه ، فقد
شارك في الحملة كثيرون ساءهم أن يكون للمنفلوطي هذا التأثير
الكبير عند الشباب وأن يكون أدب المنفلوطي حجر الأساس في
تذوق الأدب .

وكان المنفلوطي يتقبل هذه الحملات الظالمة .. كعهده .. صابرا
راضيا .. و لا يملك حيالها دفعا .. حتى إذا مات لم يجد أحدا يشيع
جثمانه .. فقد شاء القدر أن يلقي وجه ربه في يوم عصيب ، وهو
يوم الاعتداء على حياة زعيم الأمة سعد زغلول في ١٢ يوليو
١٩٢٤ ، فقد اتجهت جموع الشعب نحو محطة القاهرة لتطمئن
على حياة زعيمها ونسيت أديبها الكبير . وقد لفتت هذه المفارقة
نظر أمير الشعراء أحمد شوقي فانشد مخاطبا المنفلوطي :

أخترت يوم الهول يوم وداع
ونعماك في عصف الرياح الناعى
هتف النعاة ضحى فاوصد دونهم
جرح (الرئيس) منافذ الأسماع
من مات في فزع القيامة لم يجد
قدما تشيع أو حفاوة ساع

سعد زغلول .. الأفغانى

كان

السيد جمال الدين الافغانى ، وقد أغلقت فى وجهه أبواب التدريس فى الأزهر يتخذ مجلسه المفضل فى قهوة متاتيا بميدان العتبة « يوزع السعوط بيسراه .. والثورة ييمناه .. » وكان الطالب الأزهرى سعد زغلول أحد الذين تلقوا بذرة الثورة من راعيها . فبقيت مستكنة فى وجدانه نصف قرن ، حتى تفجرت كالأعصار وهوشىخ جاوز الستين ، وسرى إشعاعها كما تسرى موجات الأثير فى أعظم ثورة شعبية عرفت فى مصر فى تاريخها العريق . جاء سعد الى القاهرة ليجاور فى الأزهر فى نفس السنة التى هبط فيها الافغانى مصر .. فكانهما على ميعاد . وأقام الافغانى فى مسكن متواضع فى خان أبو طنافية بحى الجمالية ، والتف من حوله التلاميذ والمريدون يتشربون افكاره فى الثورة والاصلاح كما تتشرب الأرض العطشى قطرات المطر . وصحب الشيخ محمد عبده تلميذه وصديقه سعد زغلول الى حلقة الافغانى ، وما إن رأى سعد الشيخ المهيب واستمع اليه حتى قال لنفسه « هذا بغيتى » وأضحى سعد عضوا دائما فى ندوة الشيخ . وكان من عادة الافغانى أن يستكتب تلاميذه فى الموضوعات التى يتحدث فيها كي يدرّبهم على قوة التعبير وترتيب الأفكار ، وكتب سعد مع غيره فى « الحرية » فأعجب به الافغانى وعلق قائلا : مما يدل على أن الحرية ناشئة فى مصر .. أن يجيد فى الكتابة عنها هذا الناشئ .

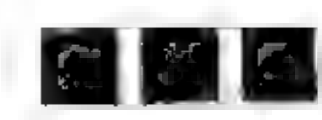
وتفاعلت بذور الحرية فى نفس سعد مع اندلاع الثورة العرابية ، كان وقتها شابا فى الخامسة والعشرين ويعمل ناظراً لقلم القضايا بمديرية الجيزة بعد أن كان محررا بالوقائع المصرية ومساعد لاساتذته محمد عبده ، لقد جرفته أحداث الثورة فى أتوتها .. فلما فشلت أصابه من أذى الاعتقال ما أصاب كل ثائر غيور ، وفقد سعد وظيفته وبات هدفا للمطاردة والتنكيل ، كان

بوسعه أن يعتذر ويتزلف ليسترد وظيفته ، ولكن روحه الأبية انفت من السقوط فى الشرك الذى سقط فيه ضعاف النفوس ، وإنما أثر أن يحترف المحاماة وهى يومذاك - كما يصفها العقاد - ليست بالمهنة الشريفة التى نعرفها اليوم ، وإنما كانت صناعة وضيعة مبتذلة يشتغل بها من لا يحسب المرافعة الا مجالا للبذاء وطول اللسان وضربا من الاحتيال والكذب والمراوغة والاختلاس .. ولكن سعدا صاحب النفس الابية ارتفع بكرامته عن الدنيا ، فارتفع بالمهنة نفسها حتى صارت من اشرف المهن .



ولم تنم عين السلطة الغالبة عن سعد ، فقبضوا عليه وعلى شريكه فى مكتب المحاماة حسين أفندى صقر بتهمة الاشتراك فى جماعة سرية اطلقت على نفسها اسم (جماعة الانتقام) هدفها قتل الشهود والجواسيس الذين خانوا الثورة ، وارسال خطابات تهديد بالقتل الى الوزراء وكبار المسؤولين المتعاونين مع الاحتلال وتحمل وثائق الثورة العربية منشورا وزعته الجمعية على قناصل الدول الاجنبية قالت فيه إن اهدافها تتمثل فى تحرير الوطن وطرد الانجليز من مصر وإخراجهم من وظائف الحكومة والجيش . ويؤكد المنشور حرص الجمعية على حماية ارواح الأجانب من كل الجنسيات والأديان ، وتطلب منهم عدم إيواء جنود الاحتلال أو التعامل معهم ، وحددت الجمعية مهلة لتصفية هذه المعاملات يتعرض بعدها الجانى للعقاب موتا وإغتصاب أمواله وطرد عائلته من البلاد .. واختتم المنشور بعبرة « فلتحى مصر والموت للانكليز » .

ويبدو أن جمعية الانتقام كانت متطورة تنظيميا ، فقد وضعت لنفسها قانونا اساسيا مكونا من ٢٠ مادة يحدد شروط الانضمام للجمعية وطريقة العمل بها ، ونظام الأوامر والتكليفات وطريقة اختيار القيادات والضمانات المكفولة للأعضاء فى حالة الاعتقال وأسلوب التخفى ونوعية الاسلحة التى يتدربون عليها .



وشكلت لجنة للتحقيق مع المتهمين تضم عددا من رجال القضاء الأجانب والمصريين ، ولم تعثر اللجنة على دليل يدين سعدا وشريكه حسين صقر .

فأمرت بالإفراج عنهما ، ولكنهما بقيا رهن الاعتقال أكثر من ثلاثة أشهر لأن الحكومة كانت عازمة على نفيهما إلى أقاصي السودان ، وكلفت عثمان ماهر باشا محافظ العاصمة بأعداد المذكرة بطلب نفيهما لعرضها على مجلس النظار واوشك الأمر بالنفى أن يصدر لولا أن ناظر الحقانية - حسين فخرى باشا - عارض فيه وقال : ان صدور الأمر بالنفى بعد حكم البراءة يعد تحديا للقضاة الأجانب الذين جئ بهم لتنظيم القضاء المصرى . فعدلت الحكومة عن النفى وبقي السجينان معتقلين .. عندئذ كتب سعد الى لجنة التحقيق « انى لا ازال موضوعا فى السجن مع تحقق اللجنة من براءة ساحتى مما نسب الى فالامل إسعافى باجراء امر الإفراج عنى رعاية لجانب الحق وتنفيذا للقانون ، وعلم النائب العام الانجليزى - مستر ماكسويل - بأمر السجينين اللذين ترفض الحكومة إطلاق سراحهما رغم براءتهما ، فأبدى تعجبه من هذا التصرف المريب ، وأمر بالإفراج عنهما فورا .. ولم يسع الحكومة إلا الإذعان .

وخرج سعد ليستأنف عمله فى المحاماة .. سائرا على الصراط المستقيم الذى اختطه لنفسه ، ولا يحيد عن المثل والاخلاقيات التى فطر عليها .. لا يقبل أبدا الدفاع عن باطل .. ولا يرفض أبدا الدفاع عن الحق .. وبقيت تلك شيمته حتى آخر العمر .

بين ثورتين

كانت

الفترة الممتدة بين الثورة العربية وثورة ١٩١٩ من أكثر فترات التاريخ المصري غموضا ، فلم تجد من الباحثين إقبالا على الغوص فيها وتحليل أحداثها ، رغم أن هذه الفترة كانت غنية

بالأحداث التي وقع بعضها نتيجة فشل الثورة العربية ، وجاء بعضها الآخر إرهابا بمقدم الثورة الوطنية في ١٩١٩ ، فإذا كانت هذه الفترة الزمنية هي اللحد الذي احتضرت فيه ثورة ، فإنها أيضا الرحم الذي تخلقت فيه ثورة أخرى ..

ويمكن تشبيه هذه الفترة التي امتدت ٣٧ سنة ، بليل طويل حالك السواد ، جاء بعد غروب شمس العربيين ، وقهر الأمل في قلوب المصريين ، ولكنه في نفس الوقت كان بشيرا بميلاد فجر جديد .. وبعث الأمل مرة أخرى في الصدور اليائسة .. فاستعاد المصريون ثقتهم بانفسهم .. وهبوا يطلبون الحرية والاستقلال . في هذه الفترة أصبح كرومر سيد البلاد بلا منازع وصاحب الأمر والنهي في كل مقدراتها ، ووضحت دار المعتمد مقصد طلاب الحاجات والباحثين عن الثراء والجاه والمجد .. وبات الوزراء مجرد أشباح أو بصمجية بالقياس الى المستشارين الانجليز الذين استقدمهم كرومر من حوارى الامبراطورية ، وبثهم في الوزارات والمصالح ومديريات الاقاليم . وصدقت في وزرائنا مقولة أحد الكتاب الانجليز : « نحن لانحكم مصر .. وانما نحكم الذين يحكمونها » .

وشهدت هذه الفترة انتشار موجة الفساد والنفاق والوصولية .. كانت الهزيمة كالأعصار المدمر اكتسح المبادئ الخلقية والقيم الروحية .. وساد اليأس والقنوط حتى ظن الناس أن ليل الاحتلال ليس له صباح ..



وكان من المؤسف أن نجد الأدباء والشعراء يدبجون قصائد المديح في جبار الاحتلال كرومر .. وينشرون ما تجود به قرائحهم في كل مناسبة انجليزية .. فإذا حل عيد ميلاد ملك الانجليز تتابع الاعيان والوزراء والكبراء على دار الحماية لتقديم آيات التبريك

والتهنئة .. واذا مات الجنرال الغشوم كتشتر غرقا في بحر الشمال
انهمرت دموع الحزن عليه أنهارا .. وخلع عليه الشعراء صفة
الشهيد .. يتساوى في ذلك كبار الشعراء وصغارهم .. كان من
المفجع أن تمسك الصحيفة فتجد فيها قصائد من هذا النوع تحمل
اسماء شعراء كبار مثل أحمد شوقي وحافظ ابراهيم واحمد نسيم
وغيرهم .. وكان من الطبيعي أن يقتدى بهم صغار الشعراء .. وأن
تتأثر بهم الجماهير التي كانت تتلقف ما يكتبون بإعجاب
وشغف ..

وبدا كرومر خطة جهنمية لتغيير خريطة المجتمع المصري ،
ظهر معها وكأنه الفارس الموعود الذي بعثت به الأقدار لتحقيق
الأمانى القومية التي فشل الثوار في تحقيقها .. لقد ثار المصريون
على السخرة والظلم والخطورة التركية والارستقراطية الشركسية
التي احتكرت ملكية الأراضي وكتمت أنفاس المصريين وسعدت
بفشل الثورة .. فلماذا لا يعمل كرومر على تغيير الهرم الاجتماعى
بما يسمح بظهور طبقة من كبار الملاك المصريين تزاخم الفلول
الشركسية وترثها ؟ .. وعمل كرومر على تحقيق هذا الهدف من
خلال اجراءات إصلاحية فى نظام الرى والصرف وتنظيم
الضرائب وإلغاء السخرة .. وكان له ما أراد .. وبرزت على سطح
المجتمع فئة من كبار الملاك تدين بولائها للاحتلال ليس عن كفر
بالوطن ، ولكن عن شعور بأن مقامهم ارتفع بقيام السلطة الجديدة
التي أنقذتهم من طغيان السلطة القديمة التي لم يكونوا
يستطيعون لها دفعا .

وفى رأى محمد زكى عبدالقادر ان قيام هذه الطبقة واعتمادها
على الاحتلال فى حمايتها من بطش الخديو ، والكراهية المتأصلة
فى نفسها للحكم التركى .. كانت البذرة الأولى لنشوء « فكرة
الاستقلال » عن تركيا وانجلترا وهى الفكرة التي حمل لواءها
ونادى بها بعد ذلك حزب الامة واحمد لطفى السيد فى الجريدة .
وظلت هذه الطبقة اكثر انحيازا الى سلطة الاحتلال منها الى
القصر . ولعبت دورا خطيرا فى الحياة السياسية المصرية وكان
لها شأنها فى ثورة ١٩١٩ وما تلاها من تطورات . كما كان لها
تأثيرها فى الحياة البرلمانية . وما تعرضت له من هزات
واضطراب . واتخذت موقف العداء المستمر من القصر .

والمهادنة المستترة للاحتلال ، ليس عن رضا به ولكن عن خوف من استبداد السراى وبطشها .. كان الاحتلال يريد ان يبقى اطول فترة ممكنة فى مصر ، وكان يعرف ان هذا الهدف لن يتحقق إلا اذا كسب ولاء اعيان المصريين ورضاهم .. ولن يفعل المصريون ذلك الا اذا شعروا بان حالهم قد تحسن اقتصاديا واجتماعيا .. بل يفوق حالهم على عهد اسماعيل .. وأستطاع كرومر أن يغرس فى نفوس المثقفين فكرة الاصلاح التدريجى بديلا عن بذرة الثورة .. وبهذه الخطة الجهنمية نجح فى تأجيل الثورة لأكثر من ثلث قرن .

ثورة النساء

كانت

مظاهرات النساء ابرز مفاجات ثورة ١٩١٩ .. ففي اليوم التالى لاعتقال سعد زغلول اندلعت المظاهرات فى شوارع القاهرة ، وخرجت جموع الشعب من كل الفئات والطوائف تواجه رصاص الانجليز فى شجاعة منقطعة النظير ، وتساقط الشهداء والجرحى وسالت الدماء فى الشوارع دون ان يفت ذلك فى روح الشعب المتعطش الى الحرية والاستشهاد ، ولم تكن المرأة المصرية اقل إقداما من الرجل ، وشهدت شوارع العاصمة لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث - وربما فى تاريخها الطويل - مظاهرات نسائية صرفه ترفع الاعلام وتهتف للحرية وتنادى بسقوط الاحتلال والحماية .

وفى يوم ١٦ مارس ١٩١٩ خرجت اول مظاهرة نسائية ، اى بعد اسبوع من نفى سعد ورفاقه الى مالطة وكانت تضم ٣٠٠ سيدة ، وقد وصف الرافعى احدى المظاهرات النسائية فقال :

نظمت السيدات مظاهرة فخرجن من جاردن سيتى وسرن ماشيات وفى مقدمتهن ستة اعلام مكتوب عليها شعارات وطنية باللغتين العربية والفرنسية وسارت المتظاهرات وخلفهن مركباتهن حتى وصلن الى شارع قصر العينى وشارع سعد زغلول ووقفن امام بيت الامة هاتفات لمصر وحياة سعد ، ثم اقبلت قوة كبيرة من البوليس والجنود الانجليز فى سيارات مسلحة فضربوا نطاقا حولهن وظل الحصار نحو ساعتين وهن واقفات فى الشمس ، وأرسلن باحتجاجهن الى سفارات الدول ، وجاء القنصل الأمريكى بنفسه واحتج على هذه الفظاعة ، فصدر الامر على عجل برفع الحصار ، وتمكين السيدات من الخروج من النطاق المضروب حولهن ، فركبن السيارات والعربات وانصرفن الى بيوتهن بعد أن وقفن الى جانب الثوار محتجات على قتل الابرياء مطالبات بحرية مصر .



وفى يوم ١٠ ابريل سقطت اولى شهيدات ثورة ١٩١٩ وهى شابة عمرها ٢٨ سنة اسمها شفيقة محمد ، وعقب وفاتها اصدرت السيدة

هدى شعراوي رئيسة اللجنة التنفيذية للنساء الوفديات ، منشورا اعلنت فيه أن شفيقة محمد هي أول امرأة مصرية تسقط برصاص الانجليز منذ اندلاع الثورة ، ثم اصدرت قيادة الثورة منشورا روت فيه قصة استشهادها على النحو التالي :

شاركت شفيقة محمد في مظاهرة يوم ١٠ ابريل ١٩١٩ وكانت مظاهرة كبيرة ضمت السيدات من مختلف الطبقات وسرن في الشوارع حتى وصلن الى مقر المعتمد البريطاني وطلبن مقابلته ليرفعن اليه احتجاجا مكتوبا ، فمنعهن العساكر الانجليز بالسلاح وضربوا حولهن حصارا بالبنادق والسونيكيات ، ومع ذلك لم يعبان ، وتقدمت واحدة منهن (شفيقة) وهي تحمل العلم في يد والاحتجاج في اليد الاخرى ، واخترقت الحصار وجرت حتى وصلت الى مكتب « ملن شيتها » القائم باعمال المندوب السامي البريطاني ، فتناول الاحتجاج من شفيقة ودعاها للدخول الى مكتبه فدخلت وراءه ، وأشار إليها بالجلوس ولكنها رفضت قائلة : لن أجلس إنني مستعجلة!

وتصفح شيتها الاحتجاج وتظاهر بأنه لم يفهمه مع انه يجيد اللغة العربية قراءة وكتابة وقال لشفيقة محمد : إن الاحتجاج مكتوب باللغة العربية ، ماذا تريدان ؟ فأجابت : أنه احتجاج على الاعمال الوحشية التي يعاملنا بها جنودكم بدون ذنب الا اننا نطالب بحرية مصر واستقلالها وسألها شيتها : وما تلك الأعمال الوحشية ؟ فقالت : ضرب النار على اولادنا وأطفالنا الأبرياء ورجالنا المجريدين من السلاح لمجرد احتجاجهم بالمظاهرات السلمية على منع زعمائنا من السفر لعرض قضيتنا على مؤتمر السلام ، وذلك مثل باقي بلاد العالم وتنفيذا لمبادئ الرئيس ويلسون .. وسألها شيتها مرة ثانية : وهل هناك أشياء أخرى ؟ فأجابت نعم نحتج على اعتقال زعمائنا ونفيهم الى مالطة .. ويئس شيتها من شفيقة وضاق صدره بها فوقف وقال لها منذرا :

تلك هي المرة الأخيرة التي نراك فيها تشاركين في المظاهرات وإلا فسيكون الاعتقال مصيرك ! فقالت شفيقة : سترونني في كل مظاهرة .. واستدارت الشابة المصرية لتغادر الغرفة بخطى ثابتة وهي راقعة الرأس .. والعلم في يدها .. وفتحت الباب لتخرج ،

وأغلق الحارس الباب خلفها وأخذ شيتهاهم الاحتجاج الذى تركته
ومزقه وألقى به فى سلة المهملات .. وقطع سكون الموقف صوت
طلقات الرصاص بينهم، وأطل المندوب البريطانى من نافذة غرفته
ليجد شفيقة محمد جثة هامدة مخرجة فى دماؤها الزكية ، ومن
حولها زميلاتهن وهن يهتفن :
تحيا ضحايا الحرية .. فى ذمة الله يا شفيقة .

شهيد أسيوط

كان

البكباشي محمد كامل مأمورا لبندر أسيوط
حين اندلعت ثورة ١٩١٩ وامتد لهيبها الى
الصعيد ، ودارت معارك طاحنة بين قوات

الاحتلال والأهالي العزل ، فما كان من المأمور البطل الا أن فتح
غرفة « السلاحليك » على مصراعيها ، وترك الثوار يغترفون منها
البنادق والطبنجات ليقاوموا بها جحافل الغزاة .

كانت أسيوط قد علمت بنبا اعتقال سعد ورفاقه ونفيه الى
مالطة ، فخرج طلبة المعهد الديني ومدرسة الأمريكان ومدرسة
إخوان ويصا والمدرسة الثانوية في مظاهرة سلمية يهتفون لسعد
والثورة ، ويرددون هتاف الثورة المجيد « الاستقلال التام أو
الموت الزؤام » فتصدى لهم جند الاحتلال المتمركزون في
أسيوط ، وأطلقوا عليهم الرصاص فثارت مشاعر الأهالي ، وشكلوا
من بينهم لجنة محلية لتنظيم شئون الحماية والدفاع عن المدينة
وازدادت حدة التوتر عندما أقدمت سلطات الاحتلال على اعتقال
بعض الزعماء المحليين : المحامي أحمد علوان والمحامي محمود
بسيوني ومحمد محفوظ باشا . وتناقل الناس أنباء الاهانات
البالغة التي تعرضوا لها في السجن فازداد هياجهم ، وانطلقت
الجموع نحو معسكرات الانجليز لتعبر عن سخطها ، فصادت
أكواما من التبن كدستها سلطات الاحتلال لغذاء الخيول فأشعلوا
فيها النيران وتصاعد لهيبها إلى عنان السماء حتى بدت المدينة
وكانها شعلة من الوهج .

وفقد الانجليز أعصابهم فأخذوا يطلقون الرصاص على
المتظاهرين في وحشية ، وتساقط مئات الشهداء والجرحى
وسالت الدماء في الشوارع كأفواه القرب مما دفع الثوار الى مزيد
من العناد والصلابة والاصرار على مقاومة الاحتلال ، وشددوا من
هجماتهم على المعسكرات البريطانية حتى اضطر الانجليز الى
تجميع أبناء الجالية البريطانية في مبنى المدرسة الثانوية
وفرضوا عليها ستارا حديديا من الحصار المسلح ، فكان الثوار
ينقضون على الثكنة العسكرية في هجمات فدائية جريئة ، مما

أثار فزع سلطات الاحتلال ودفعها الى الاستعانة بسلاح الجو الملكي البريطاني .

ولأول مرة في تاريخ الصعيد ، وفي صباح ٢٤ مارس ١٩١٩ قامت طائرتان حربيتان بصب حمولتهما من القنابل على المدينة الباسلة في غارات وحشية لم تفرق بين البيت والمستشفى والشارع والمدرسة ، وتساقط المئات دون أن ينال ذلك من روح الأهالي وصلابتهم .

وأمام هذا العناد الصعيدى لجأت سلطات الاحتلال إلى أسلوب دنيء لإذلال الأهالي ، فأعلنت أنها ستقوم بتفتيش البيوت ليلا ، وطلبت من الرجال مغادرة بيوتهم وترك نسائهم فيها ، ولم يستسلم الأهالي للتهديد الحقيق فهجرت العائلات البيوت إلى المقابر والكهوف والصحراء والأديرة ، حفاظا على الأعراض من أن تمسها شراذم الاحتلال .

وعلم أهل أسيوط بقدوم قطار من الأقصر يقل بعض كبار الضباط الانجليز في طريقهم الى القاهرة . وأرسلت مديرية أمن أسيوط إشارة الى جميع مراكز ونقط الشرطة لتتشدد الحراسة على المحطات ، ولكن الضباط بدلا من أن يشددوا الحراسة أبلغوا الأهالي حتى لا يفلت منهم الصيد الثمين ، وتحركت جموع الثوار من القرى والنجوع نحو محطة ديروط ، حتى إذا توقف القطار اندفعوا داخله كالسيل ، وانهالوا ضربا على الضباط الانجليز فقتلوا منهم اثنين ومعهم خمسة جنود . وكان لهذا الحادث أثره في أسيوط ، فشدد الانجليز الحصار على المدينة استعدادا للانتقام منها ، وأخذوا في حفر الخنادق وإقامة المدافع الثقيلة ، وأرسل القائد البريطاني رسالة الى البكباشي محمد كامل مأمور البندر يطلب اليه فيها التسليم ، فكان جواب الضابط الذي تحول الى ثائر : لن تدخلوا المدينة إلا فوق أشلائنا ، وبدأت القذائف تمطر المدينة بوابل من النيران ، ولكن المأمور لم يستسلم ، وقام بتوزيع ماله من سلاح على الأهالي ، وتقدم مع جنوده للقيام بواجب الدفاع عن المدينة الصامدة إلى أن وصلت تعزيزات هائلة من القاهرة ، وكان أول مافعلته القوات البريطانية اعتقال مأمور أسيوط وتقديمه الى محكمة عسكرية بتهمة التفريط في السلاح « الميرى » وتحريض الأهالي على التمرد . وأصدرت المحكمة

حكمها بإعدام البكباشى محمد كامل ، وتلقى الرجل الحكم فى شجاعة نادرة ، وحاول وجهاء أسيوط إنقاذ رقبة المأمور البطل ، وقامت وفود منهم بمحاولة تخفيف الحكم عنه ، ولكن السلطات البريطانية أصرت على إعدامه . وفى يوم ١٠ يونيه ١٩١٩ سيق البكباشى محمد كامل الى ساحة الإعدام داخل أحد المعسكرات البريطانية ونفذ فيه الإعدام رميا بالرصاص ، وبقي اسمه فى سجل الخالدين الذين أنبتتهم مصر على مدى تاريخها العريق .

دولت فهمی

كان

عبد القادر محمد شحاتة - الطالب بالمدرسة الالهامية الثانوية - جالسا على مقهى بميدان باب الخلق يلعب « عشرة طاولة » مع صديق له ، عندما تقدم منهما شاب متوسط الطول قمحي اللون ، فسحب كرسيا وانضم إليهما في مباراة الطاولة ، وقدم نفسه باسم « فهمي » . وبعد التعارف وتبادل الأحاديث الودية انصرف « فهمي » لحال سبيله ، ولكن زيارته لعبد القادر تكررت بطريقة مريبة . كان يهبط عليه فجأة في منزله وهو في زى عامل أحيانا .. أو زى أزهرى أو فلاح .. وادرك عبد القادر أن وراء الصديق الجديد سرا غامضا ولكنه حار في تفسيره .. حتى جاء اليوم الذي كشف « فهمي » فيه عن حقيقة أمره . قال له : إسمع يا عبد القادر .. نحن نعرف الكثير عن شجاعتك ، والأعمال البطولية التي قمت بها في المنيا أثناء عدوان الانجليز على أهلها العزل ، ونعرف أنك أنت الذي أشعلت الثورة في المنيا ، والآن حان الوقت لاكشف لك عن مهمتي .. فانا مندوب الجهاز السرى ، فهل تقبل أن تكون عضوا معنا في الجهاز السرى للثورة .. ؟

قال عبد القادر على الفور : نعم .. أقبل بلا تردد وأقسم على حفظ السر .

وكان الجهاز السرى التابع لثورة ١٩١٩ يطارد الوزراء الذين يتعاونون مع سلطات الاحتلال البريطاني ، ويطعنون الثورة في ظهرها .. ويحطمون إرادة الأمة التي اختارت سعد زغلول وكيلا وزعيما ومتحدثا وحيدا باسمها في مواجهة الانجليز . وكان محمد شفيق باشا وزير الأشغال في وزارة ابراهيم سعيد باشا قد ارتكب جريمة نكراء حين وافق على إطلاق يد الانجليز في تغيير نظام الرى في السودان خدمة للمصالح الاستعمارية وإلحاق الضرر بالمصالح الوطنية ، وقررت قيادة الثورة قتله .

وفي يوم ١٩ فبراير ١٩٢٠ ذهب « فهمي » الى عبد القادر وأبلغه أن الاختيار وقع عليه لاغتيال شفيق باشا ، ولقنه تفاصيل الخطة المرسومة بدقة .. وقام الشاب الجريء بالعملية كما طلب منه ، وألقي قنبلة على سيارة الوزير أثناء مروره في العباسية ،

وانفجرت القنبلة ولكن الوزير افلت من الموت .. وقبض على الفدائي الجريء ، وبدأت سلطات التحقيق تمارس معه افطع الوان التعذيب لتعرف منه اسماء قيادة الجهاز السرى للثورة ، خاصة أن بعض شركائه في المنزل شهدوا بأنه كان يبيت ليليته الأخيرة خارج البيت ، وهنا حدثت المفاجأة التي يرويها عبد القادر في مذكراته التي نشرها استاذنا مصطفى امين في (الكتاب الممنوع) :

« وإذا بي اتلقى داخل السجن رسالة من الجهاز السرى من خارج السجن ، بان سيدة اسمها دولت فهمى ناظرة مدرسة الهلال الأحمر سابقا ، ستتقدم للشهادة وتقول إنى كنت فى تلك الأيام ابيت عندها ! وإنه يجب أن اعترف بهذا ، رغم أن هذا يسىء الى سمعتى وإلى سمعتها ، ولكنها قبلت أن تقوم بهذه التضحية ! واستدعانى النائب العام توفيق رفعت باشا للتحقيق من جديد ليسألنى أين كنت أبيت ؟ وكانوا يتصورون أن هذا السؤال هو الخيط الذى سيوصلهم الى الجهاز كله ! فقلت وأنا اظهر الخجل : « إننى كنت ابيت عند السيدة دولت فهمى ناظرة مدرسة الهلال سابقا » وأصدر النائب العام على الفور أمرا بالقبض عليها ، فجاءت مكبلة بالحديد ، ودخلت سيدة حسناء الى غرفة النائب العام ، وإذا بدولت هذه تهجم على وتقبلنى وتنادينى : « يا حبيبى ! يا حبيبى ! اعترفت بأننى ابيت فى بيتها وإننى عشيقها .. وذهل النائب العام والحكمادار الانجليزى .

وصدر الحكم بإعدام عبد القادر شحاتة ، ثم خفف الى الأشغال الشاقة المؤبدة ، وقضى القدائى الشاب أيامه ولياليه فى ليمان طرة وهو لا يكف عن التفكير فى أمر هذه السيدة التى ضحت بسمعتها من أجل إنقاذ شاب مصرى جسور .. كانت تملأ عليه خياله وهو يقطع صخور الجبل .. وتؤنس وحشته وهو يأوى الى زنزانته ، ويناجى طيفها النبيل عبر قضبان السجن الكئيب .. حتى أحس بأنه يحبها فعلا .. ومضت أربع سنوات تعيسة قضاها عبد القادر شحاتة فى ليمان طرة حتى جاءت حكومة الشعب الأولى برئاسة سعد زغلول ، فأفرج عنه ضمن مجموعة من الفدائيين الذى سجنتهم سلطات الاحتلال ، وكان أول ما فكر فيه عبد القادر بعد عودته الى الحرية هو البحث عن دولت فهمى ليتزوجها ولكن

الجميع كانوا يتهربون منه ويطلبون منه ان يكف عن السؤال عنها ..

ولم يكف الشاب عن السؤال حتى وجد نفسه امام الحقيقة المفجعة .. فقد عرف ان اهلها قد قتلوها ليغسلوا العار الذى لحق بهم اثناء التحقيق ، ولم يدركوا انها طوّقت اعناقهم باكاليل الغار حين ضحت بسمعتها من اجل إنقاذ زهرة شباب مصر ..

نموت وتحيا مصر

فى

أعقاب الاعتقال الثانى لسعد زغلول (ديسمبر ١٩٢١) اتخذت قيادة الوفد قرارا بتنظيم المقاومة السلبية للاحتلال . . وأصدرت عدة منشورات طالبت فيها المواطنين بمقاطعة الشركات والمحلات والبضائع الانجليزية واستعمال البدائل المصرية ، ونقل ودائعهم المالية من البنوك الأجنبية الى بنك مصر الذى مضى على إنشائه عام واحد . وفى اليوم التالى اعتقلت السلطات البريطانية قيادة الوفد التى كانت تضم : حمد الباسل وويصا واصف وعلى ماهر وجورج خياط وعلوى الجزار ومرقص حنا ومراد الشريعى وواصف بطرس غالى . وعلى اثر ذلك شكلت قيادة جديدة للوفد من المصرى السعدى وحسين القصبى وفخرى عبد النور وسلامة ميخائيل والشيخ مصطفى القاياتى ونجيب الغرابلى . وحملت الهيئة الجديدة راية الكفاح فأصدرت بيانا طالبت فيه الأمة بالاستمرار فى المقاومة ، واعتبار المقاطعة الاقتصادية شكلا من اشكال الجهاد لانه يصيب المصالح البريطانية فى مقتل ، ويعمل على تشجيع الرأسمالية الوطنية الوليدة ، ويغرس فى الشعب روح الانتماء للوطنية المصرية الخالصة .

وبعد الافراج عن المعتقلين انضموا الى زملائهم الجدد ، وتحولت قيادة الوفد الى كتيبة نضالية تؤجج جدوة الجهاد لملاحقة المصالح البريطانية ، وتسميم الآبار فى وجهها ، وانهالت المنشورات فى كل انحاء البلاد تحض الجماهير على مقاطعة انماط الاستهلاك الأجنبية والاقبال على منتجات بلادهم حتى لو كانت اقل جودة او أغلى سعرا من مثيلتها الأجنبية . واستجابت الأمة لنداء قيادتها الوطنية . . ونجحت المقاطعة حتى اوشكت المؤسسات البريطانية على الافلاس وتعرضت المنتجات الأجنبية للبوار والكساد .

وفى ٢٥ يوليو ١٩٢٢ اصدرت سلطات الاحتلال امرا باعتقال سبعة من قيادات الوفد . وبدأت الحملة باعتقال حمد الباسل ومرقص حنا وواصف غالى والقى بهم فى ثكنات قصر النيل ، وكان مراد الشريعى فى بلدته - سمالوط - فلما علم بنبا القبض على

زملائه ركب القطار الى القاهرة وسلم نفسه الى سلطات الاحتلال . وكذلك فعل علوى الجزار الذى قَدِمَ من شبين الكوم . اما وىصا واصف فقد قبضوا عليه فى راس البر . كما قبضوا على جورج خياط فى الاسكندرية ، والتام شمل الزعماء السبعة فى قشلاق قصر النيل دون أن يعرفوا حقيقة التهمة التى اعتقلوا من أجلها الى أن بدأت الصحف البريطانية تنشر تصريحات كبار رجال الحكومة البريطانية وجاء فيها أن الزعماء السبعة سيحاكمون بتهمة التحريض على قتل الانجليز فى شوارع القاهرة ، وأنهم وسيواجهون عقوبة الاعدام . واستقبل الأبطال هذه الأنباء بالسخرية وظلوا يمارسون نشاطهم اليومي فى لعب الطاولة ولا يتصورون أن يبلغ الهلع بالسلطات البريطانية الى حد إعدامهم لمجرد دعوتهم الشعب إلى العصيان المدنى .

وهذه صورة وصفية للروح المعنوية العالية للأبطال السبعة سجلها مرقص حنا فى مذكراته التى نشرها الاستاذ مصطفى امين ويقول فيها : « كنا فى غاية الشجاعة .. ونؤمن باننا دافعنا ، بتمام الشرف والهمة والاخلاص ، عن بلادنا وعن حقوقها . هذا هذا جرم ؟ إن العقاب على هذا الامر كالعقاب على الأكل والشرب ، غريب أن يسمى نفسه شريفاً ذلك الذى يسمى الدفاع عن الوطن إجراماً ! أن الدفاع عن الوطن فضيلة سامية ، فكيف يكون شريفاً ذلك الذى يستعمل قوته وسلاحه ضد أمة عزلاء ليسطو عليها ويسلب أصحابها أموالهم وأرزاقهم ؟ أنهم يريدون عقابنا .. فليكن .. ولكن ماذا يريد أولئك المصريون الذين يتولون الحكم ، ويدفعون الانجليز الى هذا العمل وبأى وصف اصفهم ؟ إن احط الكلمات لا تكفى لوصفهم ... » .



ولما وجدت السلطات البريطانية أن تهمة التحريض على القتل لا تستند إلى دليل . عدلوا الاتهام وحصلوه فى دائرة الحضر على كراهية الحكومة واحتقارها . وتسلم الأبطال قرارات الاتهام ، واتفقت إرادتهم على مقاطعة المحكمة وعدم توكيل محامين للدفاع عنهم . وأنابوا حمد الباسل لإلقاء كلمة أمام هيئة المحكمة العسكرية البريطانية فى أول جلسة من جلسات المحاكمة التى عقدت فى مبنى محكمة استئناف القاهرة بباب الخلق . ونهض

حَمَد الباسل يرقل فى ملابسه البدوية التقليدية يقول فى صوت عميق اهتزت له جنبات المحكمة : باسم الشعب المصرى .. إننا نحن الوكلاء عن هذا الشعب ، المكلفون بالمطالبة باستقلاله ، ولهذا لا نستطيع أن نعترف بأى حال من الأحوال بقضاء محكمة اجنبية ، ولو أن هذه المحكمة العسكرية الانجليزية تأخذ بتصريح الحكومة الانجليزية أو تعتبره تصريحاً جدياً ، (يقصد تصريح ٢٨ فبراير) وهو أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، لكان حقاً عليها أن تعلن من تلقاء نفسها عدم اختصاصها بمحاكمتنا ! إن لكم أن تحكموا علينا .. ولكن ليس لكم أن تحاكمونا .. ! مهما تكن العقوبة التى يروق لكم أن تشرفونا بها ، فإننا سنقابلها بالسرور والفخر ، لأنها خطوة إلى الأمام فى طريق المجد الذى تسير فيه مصر الى مصيرها الخالد ! ولو خرجنا من السجن فسنعود الى جهادنا مرة أخرى .. ولو متنا .. فإن مصر لن تموت .. !!

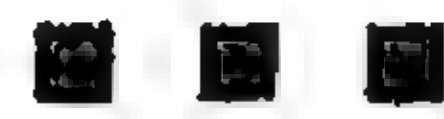


وخيم على القاعة سكون رهيب .. ووقف بقية المتهمين فقال كل منهم إن كلام حمد الباسل يعبر عن رأينا جميعاً .. ورفعت الجلسة للمداولة ثم عادت بعد قليل لتصدر حكمها بالإعدام على الأبطال السبعة .. وما إن فرغت المحكمة من تلاوة الحكم حتى وقف حمد الباسل ليهتف : نموت وتحيا مصر .. !! وضجت القاعة بالهتاف : تحيا مصر .. يحيا الاستقلال .. يحيا سعد .. وارسل الحكم الى اللورد اللنبى فصدق عليه وبعث به الى حكومته للتصديق . ووجدت الحكومة البريطانية أن إعدام الأبطال السبعة سيؤجج لهيب الثورة من جديد ، فخففت الحكم إلى السجن سبع سنوات وغرامة خمسة آلاف جنيه .

بنك مصر

كان

قيام بنك مصر في مايو ١٩٢٠ هو اعظم إنجاز اقتصادى لثورة ١٩١٩ ، ولكي ندرك اهمية هذا الصرح الشامخ في تاريخ مصر الحديث ، ينبغي ان نتذكر الحالة التي كان عليها الاقتصاد المصرى منذ التغلغل الاستعماري الاوربي الذي بدا في عصر الخديو اسماعيل ، ثم بلغ ذروته باحتلال مصر عسكريا وخضوع الاقتصاد المصرى للسيطرة البريطانية ، حتى تحولت مصر بكاملها الى مزرعة قطن لخدمة مصانع النسيج الانجليزية ، وتحول المصريون الى مستهلكين للمنتجات الانجليزية ، وانفتحت مصر على مصراعيها للبنوك والشركات والمؤسسات الاجنبية ، وباتت مرتعا للمرابين الخواجات الذين انتشروا في المدن ، وانبتوا في القرى يمتصون عرق ابنائها بارخص الاثمان . كنت تمشي في قلب القاهرة التجارى فلا تجد محلا مصريا عليه القيمة ، فكل المحلات الكبرى تحمل اسماء اجنبية : شيكوريل ، شملا ، اوركو ، افرينو ، بنزاويون ، سيدناوى ، عمر افندى ، داود عدس . حتى محلات البقالة الكبيرة احتكرها الطليان والارمن واليونانيون ، واقتصرت نشاط المصريين على تجارة العطاره . في المحلات الصغيرة المكسدة في الغورية وبين الصوريين وعربات الفول والطعمية والكشري التي تزين جدرانها بشعارات انهزامية تقول : ملك الملوك اذا وهب .. لا تسألن عن السبب .. !! وكانت البنوك - عصب الاقتصاد - تابعة للمصالح الاجنبية بما فيها بنك الدولة القائم على إصدار العملة - البنك الاهلى المصرى - كان بنكا انجليزيا لحما ودما .. ولا يحمل من سمات المصرية سوى الاسم المزيف .. فلم يكن اهليا .. ولا مصريا .. !!



في هذا الجو القاتم .. وفي هذه الغابة التي تمرح فيها وحوش كاسرة ، ظهر شاب مصرى مشبوب العاطفة ، صادق الوطنية ، متقدم الفكر اسمه طلعت حرب استحوذت على فؤاده فكرة اشبه بالخيال هي إنشاء بنك مصرى يعمل على تجميع مدخرات

المصريين واستخدامها في إنشاء صناعات مصرية وتمويل مشروعات مصرية .. ويعمل فيه مصريون ويستخدمون في معاملاته اللغة العربية .. وعندما بلغ طلعت حرب سن الخامسة والعشرين اصدر في عام ١٩١٠ كتابا صغيرا عنوانه (علاج مصر الاقتصادي ومشروع بنك مصر او بنك الامة) واذا كان الخطاب يقرأ من عنوانه، فإن عنوان الكتاب يكشف عن مضمونه وهو أنه «لكي يتم الاستقلال السياسي فإنه من الضروري أن تتوافر للوطن إمكانات التحرر الاقتصادي التي ترسي دعائم اقتصادية وطنية يستطيع الوطن أن يواجه بها الاختناقات التي سوف يجتازها في مراحل نضاله مع الاستعمار .. تغذى كفاحه وتدعمه وتمنحه الصلابة وقوة الصمود ..» .

لقد وضع طلعت حرب يده على بيت الداء .. إن الاستعمار الاقتصادي هو الهدف الحقيقي للاحتلال .. ورأى بفكره الثاقب أن الاستقلال السياسي لن يكتمل إلا إذا تحررت البلاد من اغلال الرق الاقتصادي . وكتب بيده رoshة العلاج في هذا الكتاب الصغير .. وكان العلاج قيام بنك مصرى خالص يرعى مصالح المصريين وياخذ بيدهم من مهاوى العجز والخمول . ولكن .. كيف يمكن لهذا المشروع الأسطوري أن يرى النور وسط الدياجير المظلمة التي تخيم على مصر في ظل جبروت كرومر .. وتواطؤ عباس الثانى .. وسلبيّة كبار الملاك الذين هادنوا الاحتلال وارتبطت مصالحهم بمصالحه .. ولم ينظروا الى أبعد من أقدامهم فلم يتخيلوا إمكانية قيام بنك مصرى متحرر من اغلال القهر الانجليزى يعمل فيه مصريون .. كانوا يتصورون أن حرفة المال والتجارة سر لا يتقنه سوى الخواجات .. !



مثل هذا المشروع كان لا يمكن أن يرى النور إلا في احضان ثورة شعبية وطنية تقلب موازين القوى وتفتح عيون الغافلين على حتمية الاستقلال الاقتصادي .. وقامت الثورة في مارس ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول .. وتفتحت ينابيع الوعي في الشخصية المصرية ، وترددت اصدااء الحرية في جنبات الوادى وناقت نفوس المصريين الى الحرية بمعناها الشامل .. وبإبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ..

وارتبط شعار « الاستقلال التام او الموت الزؤام » بشعار « مصر للمصريين » وتحرير المصالح المصرية من السيطرة الأجنبية ، واستجاب المصريون إلى نداء سعد زغلول للمساهمة بقروشهم القليلة في رأسمال (بنك مصر) .. ومن حصيلة هذه القروش تجمع مبلغ لا يزيد على ثمانين ألف جنيه كان هو النواة الأولى في بناء الصرح الكبير .. وارتبط بنك مصر بثورة مصر وأصبح أولى ثمراتها المباركة .. واروع إنجازاتها العملية ..

وكان تشجيع بنك مصر هدفا ثابتا من أهداف الثورة الوطنية .. فحين لجأت الثورة الى أسلوب المقاطعة الاقتصادية للمصالح الأجنبية ، طلبت من المصريين أن يسحبوا أموالهم من المصارف الانجليزية وان يودعوها في بنك مصر ، وحثتهم على شراء أسهم بنك مصر « حتى يبلغ رأسماله مبلغا يتناسب مع حالة البلاد الاقتصادية ، وبذلك يتسنى للبنك أن يساعد في إحياء المشروعات الوطنية وتنشيط الصناعة والتجارة المصرية » .

وشب الوليد عن الطوق واتسع نشاطه حتى بلغت شركاته ١٤ شركة تمارس نشاطها في جميع فروع الاقتصاد الوطني .. واثبت قدرة المصريين على الوقوف على أقدامهم .. وخرجت الى الأسواق منتجات مصرية اقبل عليها المصريون وهم يشعرون بالفخر والاعتزاز لأنها من صنع بلادهم .. وكان من بين الشركات التي أسسها بنك مصر شركة اسمها (بيع المصنوعات المصرية) تخصصت في بيع السلع المصنوعة بأيدي مصرية .. ولكنها تحولت الآن - في ظل الانفتاح - الى مركز لترويج السلع المستوردة مثل غيرها من شركات القطاع العام والخاص .. وتبدد الحلم الذي كافح من أجله طلعت حرب منذ ستين عاما على أيدي الغافلين الذين لا يدركون معنى الاعتزاز بالوطنية المصرية .

سَنَمَارُ المِصرى



إن فرغ طلعت حرب من بناء قلعة الاقتصاد الوطنى
- بنك مصر - حتى كان جزاؤه نفس جزاء البناء
الشهير (سمنار) الذى بنى قصرا

فخيما لأحد ملوك الفرس الأقدمين ، فلما انبهر الملك من روعة
البناء خاف من سمنار ان يبني لغيره أفخم منه ، فصعد به الى
سطح القصر ، وألقى به من حالق ، وبات جزاء سمنار رمزا على
الجحود ونكران الجميل ، وكان جزاء طلعت حرب الإبعاد عن
الصرح الذى بناه على كاهله طوبة طوبة ، ولكن عزاء الوحيد أن
البنك رسخت جذوره فى تراب مصر ، وفاعت ظلاله على الروابي
الخضر ، وبات حقيقة ماثلة على صلابة الإرادة الوطنية فى
مواجهة البطش الاستعماري .. !



فعلى مدى عشرين عاما (١٩٢٠ - ١٩٤٠) استطاع طلعت حرب
ان يجعل من بنك مصر بيتا مصرية خالصا يأوى إليه المصريون
هربا من نار النفوذ الأجنبي الذى يأخذ بخناقهم ، ويستنزف
أموالهم ، ويسخر بلادهم سوفا استهلاكية لتصريف منتجات
المصانع الانجليزية ، فظهرت شركات بنك مصر لتبنى قواعد
النهضة الصناعية والتجارية والأدبية والفنية والثقافية ،
وبمقتضاها تحولت مصر من بلد زراعى خامل الى بلد مزدهر
بالحركة والوعى ، وانطلقت المداخل الى عنان السماء فى المحلة
الكبرى وكفر الدوار لتقدم الى المصريين نسيجا من اقطن
بلادهم ، ودارت عجلة (مطبعة مصر) لترعى حركة التفكير
والتنوير وتقدم الى العقل المصرى ثمرات الابداع المصرى ، وقام
البناء فى مسرح الأزيكية ليقدّم الى الناس فنا مصرية راقيا ،
وغذاء ثقافيا مفيدا ، حتى صناعة السينما لم تغفل من نشاط
طلعت حرب وقام ستديو مصر فى صحراء الهرم ليرعى صناعة
السينما التى كانت حكرا على الأجانب ، واتسع نشاط ٢٤ شركة
ليشمل كل مجالات العمل الوطنى من التأمين الى العقارات ، ومن
صناعة الزيوت والألبان الى صناعة الاسمنت المسلح والمناجم

والمحاجر ، ومن السياحة والفنادق إلى النقل والملاحة البحرية والطيران .. وباختصار لم يترك طلعت حرب فرعاً من فروع الاقتصاد إلا غزاه ، وأقام له شركة تحمل اسم (مصر) العريضة ، وبأموال مصرية خالصة ، وبسواعد مصرية شابة وضعت في موضع الاختبار فكشفت عن جدارتها ، وقولدها لديها الاحساس بالثقة والاعتداد بالنفس والاعتزاز بالنسب المصري ، وأضحت شركات بنك مصر مدارس لتفريخ الخبرات التي حملت عبء النهضة الوطنية ، واستردت أرضاً كانت سداً مداماً للغرباء والأجانب .



فعل طلعت حرب كل هذه الأفاعيل في ظل الوجود الإنجليزي المتسلط على شؤون مصر والمتحكم في إرادتها ، كانت مصر في ذلك الحين قد حطمت بالثورة أغلال التبعية ، ومضت تمزق أكفانها وتستروح نسيمات الحرية ، ولم يكن الطريق سهلاً ميسوراً .. كانت الحركة الوطنية تشق طريقها في الصخر لاستكمال مسيرة الثورة ، وتكافح كفاح الصابرين من أجل تحرير الإرادة الوطنية من نفوذ ممثل الاحتلال القابع في قصر الدوبارة ، واستبداد الطاغية القابع في قصر عابدين ، وهي بين هذا وذاك تتقدم خطوة وتتعرض خطوات ..

وفي هذا الجو المبلد بالدسائس والمؤامرات استطاع طلعت حرب أن يقود سفينة بنك مصر في غفلة من عيون الاحتلال ، ولو شئت الدقة لقلت أنها كانت غفلة الذئب الذي يترك فريسته حتى تتعثر في شباكه وتسقط مستسلمة في بؤرة الفشل والاحباط .. في البداية كان الإنجليز يظنون أن بنك مصر مشروع محكوم عليه بالفشل انسياقاً وراء الوهم المستحكم بعدم قدرة المصريين على اقتحام دنيا المال والتجارة والصناعة ، ولكن الأيام أثبتت لهم كذب مايزعمون ، ووقف البنك على قدميه كالمارد العملاق .. فلما ثارت غيوم الحرب العالمية الثانية ، واشتدت قبضة الإنجليز على اقتصاد مصر ، حانت لحظة الانتقام من طلعت حرب ، وهدم البنك على رأس بانيه ، فاعزت الحكومة البريطانية إلى مستشارها المالي في مصر ليطلب من حكومة علي ماهر أن تسحب من بنك مصر رصيد الحكومة المصرية ، وودائع صندوق توفير البريد .

فتعرض البنك لأزمة خانقة في السيولة النقدية ، أراد طلعت حرب ان يعالجها بالطريق المصرفي السليم وهو اللجوء الى بنك الاصدار - وهو يومئذ البنك الاهلى - المصري اسما والانجليزى فعلا - ليرهن عنده محفظة اوراقه المالية لقاء قرض يعيد للبنك استقراره ويوفر له السيولة المنشودة ، بعد ان تراحم الناس لسحب ودائعهم بسبب نذر الحرب ، ولكن البنك الاهلى رفض الطلب بجة ان طلعت حرب افترط في تقديم قروض « معدومة » الى بعض عملاء البنك . وانكشفت المؤامرة التى افاض احمد السوادى فى وصفها فى الفصل البديع الذى كتبه عن طلعت حرب ضمن كتابه (اقطاب مصر بين الثورتين) فقد بعث المستشار الانجليزى برسالة الى طلعت حرب فحواها انه من الممكن معالجة ازمة البنك إذا استقال الرجل ، ونقل الاصدقاء الرسالة ، وكانت دهشتهم بالغة حينما وجدوا طلعت حرب وقد انبسطت اساريره وهو يقول : الحمد لله .. فليبق بنك مصر لمصر .. وليذهب الف طلعت حرب ..

واجتمعت الحكومة المصرية ، وبدلا من ان تصر على بقاء طلعت حرب على رأس البنك الوطنى ، استجابت للمطلب الانجليزى واعدت مشروعا تحل فيه الحكومة محل البنك الاهلى ، واجتمع البرلمان لبحث الاتهامات الدنيئة الى وجهت الى طلعت حرب وتبين للمجلس ان الرجل لم يزل كما كان دائما مشرق الصفحة وضاء الضمير ، وان كل ما قيل عنه مفتريات املاها الحقد ووافق البرلمان على مشروع على ماهر ، وذهب طلعت حرب وجاء حافظ عفيفى المعروف برعايته للمصالح الانجليزية ، لينفذ الجزء الاخير من المؤامرة وهو ملاحقة رجال الاعمال المصريين ، الذين كانوا يتعاملون مع البنك ، وفرض عليهم تسديد القروض فى وقت جفت فيه ينابيع السيولة النقدية ، فبيعت بيوتهم فى المزاد



وقضى طلعت حرب ايامه الاخيرة فى سكون بعيدا عن الصرح الذى شيده بإصراره وجلده وايمانه . ولم يندم إذ اوى الى الظل بقوة القهر ، وبقي البناء شامخا يواصل عطاءه النبيل . وظل اسم طلعت حرب مقترنا باعلى اسم لم يزل مرفوعا على هامات المصانع .. اسم مصر .

الوزارة الشعبية



تمكث وزارة سعد زغلول الأولى والأخيرة في الحكم سوى عشرة شهور و٢٤ يوما ، وبعدها بدأت لعبة الانقلابات الدستورية التي باتت طابع الحياة السياسية في العصر الملكي ، وكان من نتيجتها ان قضى حزب الأغلبية البرلمانية معظم وقته في المعارضة ، وتربعت أحزاب الأقلية على دست الحكم ، وكان آخر الانقلابات : الانقلاب العسكري في يوليو ١٩٥٢ الذي أطاح بالدستور وبالبرلمان وبالحياة النيابية والحزبية معا .

والمؤرخون يخلعون على وزارة سعد اليتيمة صفة «الوزارة الشعبية» أو وزارة الشعب الأولى ، وهم على حق في هذه التسمية ، لأنها كانت أول وزارة في تاريخ مصر تتولى الحكم بإرادة الشعب وليس بإرادة السلطان ، ولقد حاول الملك أحمد فؤاد أن يتملص من هذه الحقيقة الجديدة المؤرقة له ، بأن يخدع نفسه ويخدع معه سعد زغلول ، ويفهمه في خطاب تكليف الوزارة بأن اختياره لهذه المهمة الجليلة لم يكن إلا «لصدق ولائك وعظيم خبرتك وسداد رأيك في تصريف الأمور» ولكن سعدا الجسور الواعي لم يبلع هذه العبارات المزوقة التي كانت ترد في خطابات التكليف في عصر الوزراء الأغوات .. وردها لملك مصر الاتوقراطي : إنني ما توليت الوزارة إلا بناء على ثقة الأمة ونوابها بشخصي الضعيف ، مما يوجب عليّ والبلاد داخلة في نظام نيابي احترام إرادة الأمة وارتكاز حكومتها على ثقة وكلائها .

ومضى سعد القادم على أعناق الجماهير يضمن «بروجرام» وزارته مبادئ جديدة ثقيلة الوطء على مسامع أحمد فؤاد : التمسك بالروح الدستورية في جميع المصالح ، وتعويد الكل احترام الدستور والخضوع لأحكامه .

ومضى سعد المعجون من تراب مصر وماء نيلها ، يطعم وزارته بوزراء من صميم الشعب ، ولدوا وعاشوا وليس على رؤوسهم ريشة سوى ريشة الجهاد الوطني ، وزير المواصلات مصطفى النحاس ابن تاجر الأخشاب في سمند ، ومحمد نجيب الغرابلي أفندي المحامي في طنطا ، ومقرس حنا المحامي في أسيوط ، واحمد ماهر أفندي وعلى الشمسي أفندي .

ولك ان تتصور شعور افندينا المعظم سليل الارستقراطية التركية المتطرفة وهو يتعامل مع وزراء لا يعرفون الاسموكن والردنجوت ، وليس فى بيوتهم عبيد ولا محظيات ولا جوار .. ورئيسهم نفسه فلاح ابن فلاح واخوته فى إبيانة يحملون أسماء شلبي والشناوى وستهم وفرحانة !

●● هل كنت تتصور ان تسكت اوكار الارستقراطية عن هذا التغير الاجتماعى الهائل الذى حدث باسم الديمقراطية .. وباسم الدستور .. وباسم الحياة النيابية !!!

●● وهل يمكن لمن تربى فى احضان الاستبداد والطغيان والحكم المطلق ان يسكت عن هذا الفلاح وهو يدق باب قصرة قائلا : عفوا يا مولانا .. ان تصرفك هذا غير شرعى .. لأن الدستور لا يسمح به .. الدستور لا يعطيك حق تعيين أعضاء مجلس الشيوخ المعينين .. والدستور لا يعطيك حق تعيين كبار موظفى القصر دون موافقة الحكومة .. ولا .. ولا ..

●● الله اكبر ..

سلطة الشعب تكبر وتنمو وتتسع لتصل إلى عقر عابدين .. وتسلب صاحبه حقوقا كانت له ولأجداده أشبه بالثوابت والمسلمات غير القابلة للنقاش ..!

●● ولكن .. هكذا قال الدستور .. وإذا تكلم الدستور .. فعلى الجميع ان يصمتوا ، فهل يصمت أحمد فؤاد الاتوقراطى بطبعه ، المستبد بالوراثة ، الذى لم يتعود سوى سماع عبارات السمع والطاعة من أفواه العبيد .. وهل نلومه إذا امتلأت نفسه حقدا على هذا الدستور يوم ولد .. ويوم صدر .. ويوم أصبح حدا فاصلا بين سلطاته وسلطات الأمة ..!

●● وهل يسكت كبار ملاك الأراضى الذين وصفوا أنفسهم بأصحاب المصالح الحقيقية ، وظنوا أنهم الورثة الطبيعيون لمطبة الشركس المنقرضين ، لقد أسقطهم الشعب فى الانتخابات ولم يمنحهم ثقته ، واسقط هيبتهم فى مراكز نفوذهم التقليدى فى الريف ..! فتعجبوا من أمر هؤلاء الفلاحين الذين يعملون فى الوسايا والتفاتيش والأبعديات والشفالك .. ما إن اتيح لهم حق الانتخاب حتى تخلوا عن سادتهم وانتخبوا مرشحي الوفد ..! فكيف يمكن - بعد ذلك - ترويض هؤلاء الفلاحين وقد انحازوا إلى

معسكر سعد واصبح لهم وزراء ونواب وشيوخ ..! ومن المسئول
عن هذا التغير الهائل سوى الدستور والبرلمان والحياة
النيابية ..! وهل نلوم هؤلاء الجبابرة إذا امتلأت نفوسهم حقدا
على الدستور والبرلمان والوزارة الشعبية .. وسعد والوفد ..!!
●● وكبار المثقفين القادمين من اكسفورد وكمبريدج
والسريون ، وقد امتلأت رؤوسهم غرورا واستعلاء على الشعب ،
وظنوا ان الانتخابات سوف تحملهم من ابراجهم العاجية إلى
المقاعد المخملية في البرلمان .. فما بال الشعب خذلهم .. ولقنهم
درسا في السياسة .. وعلمهم ان التمثيل الشعبي يختلف عن
التمثيل الثقافي ، وان الزعامة الشعبية لها اربابها ورجالها الذين
يحسون بنبض الجماهير .. فهل نلوم هؤلاء أيضا إذا هم تقموا
على الدستور والبرلمان الذي ازدحم «بالجبهة» وخلا من العباقرة
«الملهمين»!!..

وتكونت من كل هؤلاء الشراذم جبهة قوية متحدة .. تفرق بينهم
المصالح المتباينة ، ويجمع بينهم الحقد على الدستور والنقمة
على الوفد ، والتحامل على الحياة النيابية ، والتربص بالسلطة
الشعبية .. والتآمر على وزارة الشعب الأولى .. واستجمعت هذه
القوى الشرسة اسلحتها يساندها الاحتلال الانجليزى .. فضربت
ضربتها .. واطاحت بكل المكاسب التي حصل عليها الشعب ..
وبدا عصر التزوير العلني .. والتزييف الفاضح .. والتدخل
الساخر لتحطيم إرادة الشعب . وكان سعد يرى هذه المهازل
ويتذكر حكومة الشعب فيقول متحسرا : عيينا الأكبر في تلك
الوزارة اننا أخذناها جدا .. وصدقنا اننا مستقلون !!..

حزب العرش

مصر فى حياتها النيابية حياة اقصر البرلمانات عمراً فى العالم ، حيث لم يستغرق عمره سوى تسع ساعات صدر بعدها مرسوم حله قبل أن يتبدد فى الفضاء العريض صدى خطاب العرش الذى القاه رئيس الوزراء احمد زيور باشا امام سيده ومولاه احمد فؤاد .. لقد فعلها الملك تاديباً وتهذيباً وانتقاماً من الشعب الذى افسد الخطط الملكية التى عكف فؤاد على تدبيرها فى الظلام . وكانت تهدف إلى هدم الوفد وإقصاء سعد زغلول عن زعامة الشعب ، وسلب الحقوق الشعبية التى تضمنها الدستور ، وإخماد صوت الشعب الذى هتف تحت شرفة قصر عابدين : سعد أو الثورة ! لمجرد أن الملك تجرأ على تعيين حسن نشأت وكيلًا للديوان الملكى دون إذن من الحكومة !..

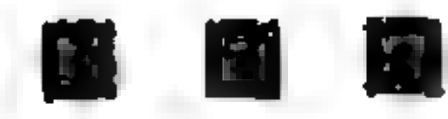


وكانت استقالة وزارة سعد زغلول فرصة ذهبية لتدبير هذه المؤامرة واسعة النطاق لضرب الحياة النيابية فى الصميم ، ونسف مبدأ السيادة الشعبية والعودة إلى حكم الصفوة المفروضة على الشعب دون سند أو مساندة من الشعب ، وشاركت فى هذه المؤامرة كل القوى التى اضررت فى الانتخابات ، فالأحرار الدستوريون الذين صاغوا الدستور وطبخوه على نار هادئة انقلبوا عليه وابدوا استعدادهم لمرمطته انتقاماً من الشعب الذى خذلهم فى الانتخابات ، وتناسوا خصومتهم التقليدية مع الملك فؤاد مادامت المصالحة سوف تدفع بهم إلى كراسى الحكم ولو عنوة .. أو على جثة الدستور الذى وصفوه بأنه «فضفاض» . ومع ذلك ، فإن الملك فؤاد - السياسى المحنك - لم يسلم ذقنه لخصوم الأمل ، ورأى أن يعطيهم قسمة صغيرة من الكعكة ، أما الهبة الكبرى فتكون من نصيب حزب جديد يقوم بتأليفه أذناب القصر ومن يلوذ بهم من الوصوليين وطلاب المنافع وأصحاب الحاجات ، عسى أن ينجح هذا الحزب الملكى فى سحب البساط من تحت أقدام الوفد ويقتنص منه الأغلبية الشعبية فى الانتخابات .

وفى يوم ١٠ يناير ١٩٢٥ وفى حفل مخملى باذخ اقيم فى فندق سميراميس أعلن عن ميلاد (حزب الاتحاد) وشهد الاحتفال نجوم الارستقراطية المصرية ، قديمها وحديثها ، تحيط بهم شرذمة من محترفى السياسة ، وتتبعهم زمرة من كبار الضباط القدامى ، وتلحق بهم عصابة من الانتهازيين الباحثين عن اللقمة الدسمة فوق أى مائدة .. وبعض الخارجين على الوفد .

●● هكذا ولد حزب الملك ..

وانفض الحفل .. فانفض الحزب .. ولم يسمع له صوت فى أرجاء مصر الصابرة الصامدة التى كانت ترقب ما يدبر لها وهى تكظم غيظها وتتحين لحظة الانتقام كى تلقن هؤلاء الاوغاد درسا فى احترام ارادة الشعب .



وكان تشكيل حزب الملك انتهاكا صريحا لأحكام الدستور ، وخرقا للتقاليد النيابية التى تجعل الملك فوق الأحزاب ، وتناهى به عن المعارك الانتخابية حتى لا يكون فشله فيها استفتاء شعبيا يحسب عليه ، وعلى هذه النقطة يعلق الراقى المؤرخ قائلا : لم يكن تاليف حزب «الاتحاد» على قاعدة أنه حزب الولاء للعرش من الحكمة السياسية ، ولا من الاخلاص للبلاد والعرش فى شىء ، فالعرش يجب أن يكون بعيدا عن الأحزاب ، وأن يظل للأحزاب كلها ، لا أن يكون له حزب خاص لأن هذا معناه التشكك فى ولاء الأحزاب الأخرى للعرش ، ومعناه أيضا أن الدعاية لهذا الحزب إذا لم تنجح - وهى لم تنجح - ولم تنضم له أغلبية الأمة ، كان ذلك دليلا على أن أغلبية الأمة مشكوك فى ولائها للعرش مما يعد كسفا للعرش وإعلاما بأنه لم يكتسب محبة الشعب ..

ويعلل الراقى دوافع انشاء هذا الحزب فى تصور أصحابه بأن الشعب يجب أن يسيره الحاكم كما يشاء ويهوى ، وأن تكون السراى هى مرجع الحكم ومصدره ، أما الشعب - فى تصورهم - فلا يصح أن تترك له إرادة فى ولاية الحكم أو توجيهه ، بل يجب أن يحكم بواسطة حكومة تفرض عليه فرضا ، دون أن يكون له رأى فى قيام الوزارات أو سقوطها ، وبعبارة أخرى ، لا محل لما يسمونه الدستور ، وإذا كان لابد من نظام دستورى فليكن نظاما صوريا ، أو كان لابد من أحزاب فليكن أهمها وسيدها الحزب الذى

تنشئه السراى او يخضع لارادتها وتحركه كيف تشاء ، وهذا الضرب من الحكم هو من انواع الحكم المطلق ، واساسه إهدار حقوق الشعب ، والرجوع به إلى نطاق الذل والعبودية ، وهو نظام يمتنع معه كل تقدم سياسى او أخلاقى فى البلاد .



هذا هو حزب القصر الذى ولد فى الظلام ليكون اداة القصر إلى الحكم .. ومعه بدأت الأحزاب السياسية تستنفر أنصارها وتحشد أتباعها استعدادا لليوم المنتظر .. اليوم الذى تجرى فيه الانتخابات .. ويقول فيه الشعب كلمته الفاصلة .. وفى ذلك اليوم قال الشعب كلمته فكان لها وقع الصاعقة على رؤوس أعدائه .

وفدية .. سعدية .. زغلوية

حل مجلس النواب في ٢٣ مارس ١٩٢٥ ، وهو لا يزال في المهد ، أشبه بمهزلة تثير الدهشة والسخط والاشمئزاز ، وكان هذا التصرف الشاذ هو بداية الطريق السوء الذي اختطه الملك فؤاد المستبد الطاغية ، وتوغل فيه ابنه فاروق المستهتر الذي بلغ العيث بالدستور ، والاستهانة بالارادة الشعبية في عهده مبلغا عظيما .. وانتهى كل ذلك بتصدع النظام النيابي .. وزعزعة إيمان الأمة بجدوى النصوص الصريحة القائلة بأن الأمة مصدر السلطات .. وانهيار النظام الملكي كله .

كان

وعندما تبحث عن مبرر معقول لحل مجلس النواب ، الذي انتخبه الشعب ، بعد تسع ساعات من انعقاده - فلن تجد سوى مبرر واحد هو الحرص على استبعاد سعد زغلول الذي آلت إليه مقاليد الزعامة الشعبية ، وبات - ومع الوعد - الناطق الرسمي الوحيد باسم شعب مصر ، في وقت ظن فيه الظانون أنهم أحق وأجدر بهذه الوكالة اعتمادا على ثراء عريض ، أو مجد موروث ، أو علم مكتسب.



قبل موعد الانتخابات بشهرين جاءوا باسماعيل صدقي ليدير المعركة على هوى الملك ، ويضع السودو والمقاريس أمام عودة الوفد إلى البرلمان ، وتقبل صدقي التكليف ممتنا ، فسوف تتاح الفرصة له للانتقام من سعد الذي طرده من الوفد فانتقل إلى المعسكر الآخر ، ومضى في طريقه غير عابئ بقانون أو دستور .. ووضع خطة لتغيير معالم الأرض الانتخابية حتى يتوه فيها أصحابها ، وسلك في ذلك مسالك أصبحت فيما بعد تقاليد راسخة في عمليات التزييف والتزوير والتأثير على جهاز الإدارة ، فقد عمل على تعديل الدوائر الانتخابية بحيث تخدم مصالح المرشحين غير الوفديين ، ثم تراجع عن نظام الانتخاب المباشر وعاد إلى نظام الانتخاب الثلاثيني الذي الغته حكومة سعد زغلول (ومعناه أن كل ثلاثين ناخبا يختارون ممثلا عنهم لانتخاب أحد المرشحين) والقي بكل ثقله على جهاز الإدارة من مأمير وعمد ومشايخ مستخدما كل

محرم من وعد أو وعيد .. وإغراء أو تهديد .. حتى اثمرت هذه الخطة وظهرت البشائر بتخلي الشعب عن مرشحي الوفد ، لدرجة أن سعد زغلول نفسه لم ينجح في الانتخابات الثلاثينية (يعنى لم يجد ثلاثين شخصا يجمعون على انتخابه فى انتخابات الدرجة الأولى) !!..

وعندما فرغ اسماعيل صدقى من إعداد المسرح ، وظن أن كل الترتيبات قد تمت على ما يروم ، مضى إلى مولاه الملك قائلا : تمام أفندم .. كل شيء عال .. وتحدد يوم ١٢ مارس ١٩٢٥ لاجراء الانتخابات وتقدمت إليها كل الأحزاب : الوفد والوطنى والأحرار الدستوريون .. ومعهم بالطبع حزب القصر (الاتحاد) الذى اطلق عليه سعد زغلول (حزب القش) .

ويبدو أن الهوية الحزبية للمرشحين لم تكن واضحة للسلطات ، وان كانت واضحة للناخبين الذين افلحوا فى إخفاء مشاعرهم عن مرشحيهم الحقيقيين ، انتظارا للحظة التى يقفون فيها أمام صناديق التصويت .. وعندها يكشفون عن انتمائهم الصحيح . ولعل هذه العملية الانتخابية التى تمت فى يوم ١٢ مارس ١٩٢٥ كانت من أشد الأحداث غموضا .. وإثارة ، بل كانت « أغمض » انتخابات عرفت مصر كما وصفها بحق الدكتور يونان لبيب رزق ، فلم تظهر نتيجتها إلا بعد عشرة أيام من اجرائها ، وقضى القصر والحكومة ودار المتدوب السامى طوال هذه الفترة وهم حيارى : كم حصل الوفد ..؟ وكم حصل الآخرون ؟ وتسبعت الحكومة فى صبيحة يوم اجتماع المجلس الجديد وأعلنت أن الأحزاب غير الوفدية حصلت على أغلبية تسمح باستمرار الحكومة ، وبالفعل أصدر الملك فؤاد مرسوما باستمرار حكومة زيور ، وألقى زيور خطاب العرش أمام الملك ، وبعد انصراف الملك أجريت مراسم انتخابات رئيس مجلس النواب والوكيلين ، وهنا حدثت المفاجأة التى كان لها وقع الصاعقة : حصل سعد زغلول على ١٢٣ صوتا مقابل ٨٥ صوتا حصل عليها عبدالخالق ثروت مرشح الأحرار الدستوريين ، وفاز بمنصب الوكيلين ، النائبان الوفديان : على الشمسى وويصا وأصف !!.. وتبين أن المجلس يضم أغلبية وفدية سعدية زغلولية !!.. واكتشف الملك أنه أمام مجلس نواب وفدى ، وأن كل الحيل

التي ابتدعها لم تفلح في إبعاد الوفد عن الشعب ، وإن ذكاء شعب مصر أكثر فاعلية من خبث صدقي ، وأحس خصوم الوفد بأن الأرض تميد تحت أقدامهم ، وأن ما حسبوه تحطيمًا لقوة الوفد ، انقلب فأضحى إثباتًا لهذه القوة ، ويصف الدكتور هيكل هذه اللحظة التاريخية بقوله : لقد وجم أنصار الحكومة وجعلوا يضربون أخماسهم في أسداسهم ويتساءلون : ما عسى أن يتمخض عنه الموقف بعد ..؟؟



ولم يضيع زيور باشا وقته في التفكير .. وإنما عكف سحابة النهار - وهي المسافة الممتدة بين انتخابات الصباح واجتماع المجلس في المساء - على إعداد مرسوم حل المجلس ، وذهب به إلى الملك فؤاد فوقعه على الفور ، وعاد زيور إلى النواب المجتمعين ، وتلا عليهم مرسوم حل المجلس وكأنه يقول لهم : نحن لا نريد الوفد ولا نريد سعدا .. ولا نريد الدستور .. ولا نريد البرلمان .. ولا نعتز بشيء اسمه إرادة الشعب .

لطمة ملوكية

كان

أحمد فؤاد سادس أبناء الخديو اسماعيل الثمانية ،
وعندما طرد أبوه من مصر فى عام ١٨٧٩ ، كان هو لا
يزال صبيا تخطى العاشرة فكتب عليه أن يقضى
صباه وصدر شبابه منفيا فى العواصم

الأوروبية فعمل ضابطا فى الجيش الايطالى ولقى العطف من كبار
القادة الذين عاملوه على أنه (عزيز قوم ذل) . وارتبط فؤاد بالحياة
الايطالية شكلا وروحا ، وظلت المؤثرات الإيطالية واضحة فى
حياته حتى بعد أن صار ملكا ، فكان للايطاليين وجود كبير فى
القصر وفى المشروعات الكبرى ، وورث فاروق عن أبيه حب
الطليان ، فكان منهم معظم العاملين فى القصر : الحلاق والطباخ
والكهربائى والجناينى .. حتى منسق السهرات الخاصة انطون
بوللى .

واستنكف السلطان العثمانى أن يعمل أحد رعاياه ضابطا فى
الجيش الايطالى فاستدعى الأمير أحمد فؤاد إلى الأستانة والحقه
بمعيته ثم أوفده ملحقا عسكريا فى فيينا ، إلى أن مات أخوه
الخديو توفيق سنة ١٨٩٢ وخلفه ابنه عباس حلمى الثانى
فاستدعى عمه أحمد فؤاد من المنفى وعينه رئيسا للحرس
الخديوى ، وعاد فؤاد إلى مصر ليبدأ مرحلة الصعلكة والفساد فى
حياته التى قاربت السبعين . وكان المعروف عنه - فى هذه الفترة
المبكرة - أنه زير نساء ، وزبون دائم على الحانات وعلب الليل
وصالات القمار .. يشرب ولا يدفع .. ويخسر ثم يستدين .. ولا
يتخرج من أن يمد يده إلى الجرسونات طالبا قروضا غير مردودة
لكى يواصل اللعب .. وهناك كثير من أثرياء مصر يفخرون - صدقا
أو كذبا - بأن الأمير فؤاد مدين لأبائهم بخمسة جنيهات أخذها على
مائدة القمار ..



وتزوج فؤاد إحدى أميرات الأسرة العلوية ، وهى الأميرة

شويكار فانجب منها فتاة وحيدة هي الأميرة فوقية ، وكان فؤاد دائم الإلحاح على زوجته الثرية لتمده بالدعم اللازم للمجون ، فكانت تآبى حيناً ، وتذعن أحياناً ، وذات يوم رفضت الأميرة شويكار تلبية طلباته فاستشاط غضباً .. ورفع يده وهوى بها على وجه زوجته في لكمة دوى صداها في أنحاء البلاد حتى بلغ مسامع أخيها الأمير سيف الدين ، وكان شاباً عصبياً حاد المزاج لا يحسن التفاهم باللسان ، فما كان منه إلا أن حشا مسدسه بالرصاص وانطلق كالثور الهائج بين البارات والكباريات بحثاً عن زوج أخته ليغسل العار الذي لحقه من اللكمة الملوكية ، حتى عثر عليه في النادي الخديوى - نادى محمد على فيما بعد - ودارت بين الأميرين مشادة ساخنة - باللغة التركية ، طبعاً انتهت بأن أخرج الأمير سيف الدين الطبينة وأطلق منها رصاصة استقرت في حنجرة الأمير فؤاد .. وفشل الأطباء في استخراجها فبقيت حيث هي ، وبقيت مؤثراتها على حباله الصوتية .. فكانت تصدر عنه أصوات أشبه بالنباح مما يسبب الارتباك لسامعيه .. وقع هذا الحادث يوم ٧ مايو ١٨٩٨ ، وبعدها قدم الأمير المعتدى إلى المحاكمة ، فحكم عليه بالسجن سبع سنوات ثم خفف إلى خمس .. واستكبر بعض الأمراء الأقوياء أن يعيش أحدهم في السجن بين اللصوص والنشالين وقطاع الطرق ، فتدخلوا لدى حاكم مصر الفعلى - اللورد كرومر - واستعانوا بتقرير طبي كتبه أحد أطباء الأمراض العصبية ، وافتي فيه بأن الأمير لا يتمتع بكامل قواه العقلية ، واقتنع كرومر بهذه الفتوى .. واستطاع أن يقنع بها حاكم مصر الشرعى - الخديو عباس حلمي - فأصدر مرسوماً بالإفراج عن سيف الدين على أن يقضى بقية حياته تحت العلاج في إحدى المصحات النفسية بإنجلترا .. ومرت السنون والشباب سجين المصحة العقلية حتى ودع الشباب والكهولة وأشرف على الشيخوخة دون أن يتمتع بالضياء الواسعة والثروة الطائلة والنعيم الرغد الذي خلفه في مصر .



وتطورت الأمور في مصر على المستويين العام والخاص ، فطلق الأمير أحمد فؤاد زوجته شويكار انتقاماً من أخيها المتهور ، ثم أصبح سلطاناً على مصر بعد وفاة أخيه حسين كامل واعتذر

ابنه كمال الدين عن ولاية العرش .. وجلس فؤاد على الأريكة السلطانية فواتته الفرصة لتعويض أيام الضنك والصعلكة التي قضاهما في البارات والحانات متسولا ومقترضا .. وفكر في الزواج الثاني فوق بصره على الفتاة الجميلة - نازلي - كريمة عبدالرحيم باشا صبرى مدير المنوفية السابق ، وحفيدة الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) ، وكانت الفتاة على علاقة عاطفية بشاب يمت إليها بصلة القربى ويعتزمان الزواج عندما شاءت إرادة عظمة السلطان أن ينفرد هو بالفتاة دون خطيبها ، واتخذت إجراءات الزفاف بسرعة بالغة . وفى ليلة الزفاف هربت نازلي من قصر أبيها ولجأت إلى بيت خطيبها ، واخذ العاشقان يتنقلان من بيت إلى بيت هربا من جحافل السلطان التى جددت فى البحث عنهما . وأخيرا استسلم الشاب وأعاد خطيبته ليلا إلى بيت أبيها لتزف فى اليوم التالى - عنوة واقتدارا - إلى عظمة السلطان احمد فؤاد . وشاعت أنباء الحادثة فى أرجاء مصر ، وسجلها بيرم التونسى فى قصيدة مشهورة تدخل تحت باب الأدب الفاضح أو الجارح - أو الهابط .. ودفع بيرم ثمن تطاوله نفيا وتشريدا .

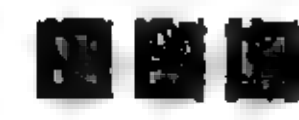
نزاهة النحاس

وَقَعَ

اختيار شوكت بك ، وكيل الأمير نوجوان ، على المحامين الثلاثة : مصطفى النحاس ، ويصا واصف ، جعفر فخرى ، لرفع الدعوى لإلغاء الحجر المفروض على الأمير أحمد سيف الدين وتقرير نفقة سنوية له تتناسب مع ثروته الهائلة ومكانته العالية ، وحرر الوكيل مع المحامين الثلاثة عقدا بالاتعاب وطريقة دفعها ، وبدأ المحامون في ٢ فبراير ١٩٢٧ الاجراءات القضائية ، وسارت الدعوى سيرها الطبيعي امام المحاكم .

ولكن القضية لم تكن كغيرها من آلاف القضايا التي تنظرها المحاكم ، فبطل القضية هو الرجل الذي حاول قتل الأمير أحمد فؤاد وأطلق عليه رصاصة استقرت في حلقه ، وسببت له عاهة مستديمة جعلته عاجزا عن توضيح مخارج الألفاظ فيصدر عنه فحيح أشبه بالنباح .

لقد أصبح فؤاد ملكا على مصر ، ورأسا لعائلة محمد على ، فأنى له ان يصفح عن الرجل الذي حاول قتله وتسبب له في كل هذه الأوجاع ، وهل كان له أن يتغافل عن هؤلاء المحامين ويغفر لهم جراتهم عندما قبلوا الوكالة عن الرجل الذي حاول قتل الملك قبل ثلاثين عاما .. لم يكن فؤاد بالرجل الديمقراطي الذي يقدر معنى الواجب الانساني الذي يفرض على المحامي الوقوف إلى جانب موكله ليستخلص له حقه الضائع .. بل كان يرى في القيام بهذا الواجب مساسا بذاته المصون .. ومن ثم بُيئت النية على الانتقام .



واخذت الاحداث السياسية الكبرى تختلط بالامور الشخصية التافهة حتى ليصعب على الناقد الفصل بينهما ، ففي ذلك الوقت كان الائتلاف قائما بين الحزبين الكبيرين : الوفد صاحب الأغلبية الشعبية ، والاحرار الدستوريين صاحب الأغلبية الارستقراطية ، كان الائتلاف وحسن التفاهم صيغة فرضتها الضرورة بعد الانتخابات العامة التي اجريت في ٢٥ مايو ١٩٢٦ وفاز فيها الوفد - للمرة الثالثة - بأغلبية ساحقة ، ولكن بات مفهوما أن

الوفد لن يسمح له لتولى سلطاته الدستورية كما تقضى التقاليد النيابية بتسليم مقاليد الحكم إلى صاحب الأغلبية ..
فعندما ظهرت نتائج الانتخابات تحركت بارجتان بريطانيتان نحو ميناء الاسكندرية إشارة إلى إصرار بريطانيا على منع سعد زغلول من العودة إلى كرسى الوزارة حتى لو كان شعب مصر يريد ذلك ، وتقبل الملك فؤاد إشارة الاسطول البريطانى سعيدا مسرورا .. فقد كان ابغض ما يتصوره عودة سعد - أو عودة الشعب - إلى المشاركة فى شئون الحكم . وللخروج من هذه الورطة ، ولكي لا تتكرر مهزلة حل مجلس النواب مرة ثالثة ، تم الاتفاق على أن يتولى عدلى يكن رئاسة الوزارة ، ويتولى سعد زغلول رئاسة مجلس النواب . وبعد أقل من عام استقال عدلى وخلفه عبدالخالق ثروت . وفى عهد وزارته انتقل سعد زغلول إلى جوار ربه ، وتصور الأحرار الدستوريون أن موت سعد قد أزال من طريقهم خصما عنيدا ، وتوقعوا انفضاض الجماهير من حول الوفد بعد غياب زعيمه الأكبر ، ولكن الشعب التف حول مصطفى النحاس بنفس القوة التى التف بها حول سعد ، وبويع النحاس خليفة وزعيما ثم انتخب بالاجماع رئيسا لمجلس النواب فاجتمعت له زعامة الأمة ورئاسة المجلس النيابى ، ثم دخل ثروت فى مفاوضات يائسة مع الحكومة البريطانية لحل المسائل المعلقة بتصريح ٢٨ فبراير ، فلما فشلت المفاوضات استقال ثروت فعهد الملك إلى النحاس بتشكيل اولى وزاراته فى ١٦ مارس ١٩٢٨ ، فلما جلس النحاس على كرسى الوزارة رأى أن التقاليد القضائية تفرض عليه التنحى عن نظر القضايا التى كان موكلا فيها ومن بينها قضية سيف الدين ، وكتب النحاس خطابا إلى شوكت بك وكيل الأميرة نوجوان يخطر فيه بتنحيه عن الوكالة ، أما ويصا واصف الذى خلف النحاس فى رئاسة مجلس النواب فقد عهد بمهمته فى القضية إلى المحامى محمود بك بسيونى .
ووجد الأحرار الدستوريون أن سياسة الائتلاف مع الوفد لم تحقق لهم أغراضهم فبدأوا يعملون بإيعاز من القصر والانجليز على فض الائتلاف ، والانسحاب من وزارة النحاس واحدا بعد الآخر .. وحانت الفرصة للملك فؤاد للانتقام من مصطفى النحاس عن طريق تلويث سمعته وتعريض نزاهته المعروفة للشكوك ..

وبدأت المؤامرة الدنيئة بسرقة عقد الاتفاق المبرم بين المحامين الثلاثة والوكيل .. ومحاولة إثارة الأقاويل حول فداحة الأتعاب التي تضمنها العقد .. وأخذت المؤامرة طريقها إلى العلنية على وجه الصحف المعادية للوفد ، وفي شكل حملة تجريح لم يسبق لها مثيل ضد النحاس وهو لا يزال على رأس الوزارة . ففي يوم ٢٤ يونية ١٩٢٨ خرجت صحيفة «السياسة» تحمل العناوين الآتية : «مصطفى النحاس وويصا واصف وجعفر فخري ينتهزون فرصة ضعف الأمير سيف الدين والأميرة أمه ويسعون كما يسعى أخط الأنذال لابتزاز أموال هذه الأسرة ابتزازا ..» وقالت «الأخبار» لصاحبها أمين الرافعي .. «ألا إنه شرف النعال ، وإنها لكرامة الأوجال ، وإنها لأمانة المحتال ، وإنها لصيانة دستور الدجال .. ألا تخشى أن يتلطف معك صاحب الجلالة ويسالك أين استقالتك ؟ فبماذا تجيب أيها النتن القذر ..!» .

وصدقت نبوءة الصحيفة وفي اليوم التالي انكشفت أبعاد المؤامرة ، فاصدر الملك فؤاد مرسوما بإقالة النحاس زعيم الأغلبية . وهكذا دُبر ونفذ أشد الانقلابات الدستورية إسفافا ، وأفسدها ، أسلوبا .. وأخطأ تعبيراً .. وأوى مصطفى النحاس إلى الظل ينتظر عدالة السماء لتقضى بينه وبين خصومه الألداء .. حتى بَرَّاه الله مما قالوا .

اليـد الحـديـدة

إقالة أول وزارة للزعيم مصطفى النحاس فى ٢٥ يونية ١٩٢٨ ، عن مؤامرة محبوكة شارك فى تدبيرها أصحاب القصرين : عابدين والدوبارة ، بالإضافة إلى حزب الأحرار الدستوريين الذى كان مؤتلفا مع الوفد فى وزارة النحاس .



لم يكن هدف المؤامرة - فقط الاطاحة بوزارة النحاس ، وتلويث سمعة الرجل الثائر الذى عمل قاضيا ومحاميا ووزيرا فكانت نزاهته أبرز صفاته . وإنما كان الهدف أعمق ، وهو الانقلاب على الدستور ، وتصفية البرلمان ، ووضع البلاد تحت مظلة حكومة استبدادية ليس لها سند سوى تأييد القصر والانجليز ، فاطلقت على نفسها اسم «اليـد الحـديـدة» دلالة على انتهاجها العنف والقمع وكبت الحريات وتكسير فوانيس الديمقراطية . تلك كانت وزارة محمد محمود باشا زعيم حزب الأحرار الدستوريين الذى كان وزيرا فى وزارة النحاس ثم استقال بايعاز من الملك حتى يترنج الائتلاف ، ويوجد مبرر أمام الملك لإقالة الوزارة بحجة تصدع الائتلاف . وتلاقت إرادة المتآمرين الثلاثة : الأحرار والانجليز والملك على تصفية الائتلاف . بعد أن فشل كل طرف فى استثماره لمصلحته الخاصة .

أما الأحرار الدستوريون فقد أرادوا من الائتلاف أن يهيء لهم فرصة الاستيلاء على تراث الوفد بعد رحيل زعيمه الأكبر سعد زغلول . وكان ظنهم أن شخصية مصطفى النحاس لن تسد الفراغ الهائل الذى تركه سعد . ولكن النحاس خيب فالهم .. وكشف عن شخصية عنيدة صلبة يصعب أكلها ، ومن ثم تبخرت آمال الأحرار فى تعويض ضعفهم الشعبى عن طريق شعبية الوفد ، فاتجهوا إلى فض الشركة حتى ينفردوا بالحكم ولو على جثة الدستور الذى

ينتسبون إليه اسما وتاريخا .. ولكنه انقضوا عليه طمعا في السلطة

أما الانجليز فقد وقعوا في نفس الشرك الذي وقع فيه الأحرار بالنسبة لشخصية النحاس ، وظنوا أنه سيكون أقل صلابة من سعد ، وأكثر استعدادا منه لقبول العروض البريطانية لعقد معاهدة تحدد علاقة مصر بانجلترا ، ولكن النحاس لم يكن أقل صلابة من سعد . ولم يكن لديه أدنى استعداد للتهاون في حقوق مصر القومية ، وتعهد لويد جورج - المندوب السامي - أن يقدم للنحاس نفس العروض التي سبق أن رفضها النحاس عندما عرضها عليه عبدالخالق ثروت في الوزارة السابقة . وكان معنى ذلك الاطاحة بحكومة النحاس الائتلافية ، وتشكيل وزارة أقلية تكون أكثر ليونة .

وأما الملك فقد قبلَ صيغة الائتلاف بين الوفد والأحرار لأن سعد زغلول ارتضاهاً .. أما وقد مضى سعد إلى جوار ربه - فلا محل لبقاء الائتلاف ، ولا معنى لبقاء النحاس شوكة في حلق الملك مثل الرصاصة التي أطلقها عليه سيف الدين - ومن ثم تولدت الرغبة في العدول عن الحكم النيابي والعودة إلى الحكم المطلق عن طريق وزارة (اليد الحديدية) التي استفتحت عهدا بتعطيل البرلمان لمدة شهر ، قامت خلاله بحملة دعائية غوغائية ضد الدستور والحياة النيابية ، وتسميم المناخ الديمقراطي ، والزعم بأن الشعب المصري لا يصلح للحياة البرلمانية ولا يستحق الدستور ، وأن الأغلبية تمارس الاستبداد ، من هنا ظهر تعبير (طغيان الأغلبية) الذي ورد كثيرا على لسان الدكتور هيكल باشا .. وقبل نهاية الشهر استصدرت الوزارة أمرا ملكيا بحل مجلسي النواب والشيوخ لمدة ثلاث سنوات حتى تنهيا للوزارة فرصة العمل في هدوء !!

وهكذا تمت وقائع الانقلاب الدستوري الثالث خلال خمس سنوات هي عمر الحياة الدستورية المصرية ، وتم حل البرلمان للمرة الثالثة ولم يتجاوز عمره سنتين وبضعة أيام ، وبدأت مرحلة جديدة من مراحل الحكم الاستبدادي بقيادة الملك أحمد فؤاد ، وبرعاية المندوب السامي البريطاني ، أما أداة الانقلاب فكانت الأحرار الدستوريين .. وبدأ محمد محمود سياسة القمع

والارهاب بتعطيل الصحف اليومية ومنع الاجتماعات السياسية ،
وفتحت السجون ابوابها لتستقبل احرار الساسة والكتاب
والصحفيين ، واستدار الملك لينتقم من مصطفى النحاس ورفيقه
ويصا واصف وجعفر فخري ، لقبولهم الوكالة عن الامير سيف
الدين . واستحكمت حلقات الانتقام بتقديمهم إلى النيابة ومنها
إلى المحاكمة التأديبية في ظل حملة غوغائية شرسة لتلطيخ
سمعة مصطفى النحاس ، ووقف مكرم عبيد المحامي مدافعا عن
رفيق جهاده مصطفى النحاس .. موجهها الكلام إلى القضاة :
« عندما بدا للنياية ، أو ابدى لها ، أن ترفع هذه الدعوى
التأديبية وجاءنا نبؤها ، كنت مع صاحب الدولة الرئيس الجليل
مصطفى النحاس باشا واتيح لى أن اتبين اثر ذلك النبا السىء فى
نفسه قبل ان اتبينه فى نفسى ، فرايته يضحك من خصومه ويهزأ
باساليبهم ، ولولا بريق فى عينيه وهزة فى صوته دلت على كمين
جرحه ، وثورة فى نفسه ، لظننت أن شعوره كان مقصورا على
عدم المبالاة والازدراء ، ولكن مصطفى النحاس الذى عُيئت جميع
القوات لمحاربته ، وشُحذ كل سلاح وتُبشت كل قاذورة إما للنيل
من شجاعته أو من كرامته ، هذا الرجل ما كان خصومه ليعباوا
بمقاتلته إذا لم يكن مقاتلا ، أو يجمعوا جموعهم لمناضلته إذا لم
يعرفوا فيه مناضلا ، ولذلك لم يدهشنى أن رأيته يستبشر بتلك
المعركة النهائية الحاسمة بين حقه وباطلهم ، وأن يعد لها العدة ،
لا من صحيفة الاتهام ، بل من صحيفة نفسه الطاهرة» .

حادث سرقة !



تعيين النحاس باشا رئيسا لمجلس الوزراء في ١٦ مارس ١٩٢٨ ، بادر إلى التنازل عن الوكالة في قضية الأمير سيف الدين ، وبعث إلى شوكت بك وكيل الأميرة نوجوان أم سيف الدين إخطارا بتنحيه عن نظر القضية .. لقد فعل النحاس ما يمليه عليه ضميره ، وما تفرضه مقتضيات الأمانة والشرف ، فلم يكن مقبولا ولا معقولا أن يستمر - وهو رئيس الوزراء - في ممارسة مهنة المحاماة ، وتصور الرجل الطيب أن الأمر انتهى عند هذا الحد ، ونسى أن الخير قد ينام مطمئنا ، ولكن عيون الشر لا تنام ، وأن أبناء إبليس يتحركون في الظلام يدبرون له المكائد والدسائس ، ويبحثون عن كل نقيصة لتلويث سمعة رجل كان كل راسماله الشرف والنزاهة .. ولم يتورعوا في سبيل تحقيق مآربهم عن ارتكاب جرائم تماثل تلك التي نراها في القصص السينمائية .



قبل أسبوع من تعيين النحاس باشا ، وقع بالاسكندرية حادث سرقة تافه في مظهره ، خطير في مغزاه وأبعاده ، كان جعفر بك فخرى المحامى وشريك النحاس وويصا وأصف في الوكالة عن سيف الدين يقضى مع أسرته إجازة بالقاهرة ، وترك بيته في حراسة الخدم بعد أن أحكم إغلاق النوافذ ، ولكن في صبيحة ٨ مارس ١٩٢٨ لاحظ بعض الخدم أن إحدى النوافذ مفتوحة على مصراعها فأبلغوا مكتب جعفر بك ، فخف إليهم بعض المحامين العاملين بالمكتب ودخلوا إلى المنزل عبر النافذة المفتوحة فاكتشفوا أنها مكسورة من الداخل ، ثم تفقدوا أثاث البيت فوجدوه سليما من كل عيب فاطمانوا وأقفلوا النافذة وأخطروا جعفر بك تليفونيا بالأمر ، فاطمان لما علم بأن شيئا من التحف الثمينة لم يسرق ، فلما عاد إلى بيته بعد بضعة أيام تبين له بعد البحث الدقيق في غرفة المكتب أن سرقة قد وقعت بالفعل ، وأن السرقة قد اقتصر على مستندات خاصة تتعلق بقضية سيف الدين أهمها عقد الاتفاق المبرم بين المحامين الثلاثة وشوكت بك وكيل الأميرة ، واتهم جعفر بك طباح البيت بالسرقة فقبض عليه وسبق

إلى النيابة للتحقيق ، وقد سحب معه أحد المحامين العاملين في دائرة الأمير سيف الدين ، مما يقطع بأن الدائرة كانت على علاقة بحادث السرقة وإن لم يكن الطباخ هو السارق الفعلي ، فقد تبين بعد ذلك أن اللص هو كاتب في مكتب جعفر بك ، خان سيده لحساب المتأمرين الكبار .



وانتهى الفصل الأول من هذه الكوميديا السوداء ، بالإفراج عن الطباخ لعدم كفاية الأدلة ، وبقيت المستندات المسروقة مخفية في انتظار الوقت المناسب لنشرها في شكل فضيحة تحط من كرامة المحامين الثلاثة على أساس أنهم اتفقوا مع الوكيل على اتعاب باهظة مقابل العمل على رفع الحجر عن الأمير أمام مجلس البلاط ، وأنهم استغلوا نفوذهم السياسي للتأثير على الوكيل .
وجاء الوقت المناسب لتفجير القضية عندما فقد الانجليز الأمل في تطويع إرادة مصطفى النحاس ، وحمله على قبول عروضهم لعقد اتفاق ينظم العلاقة بين مصر وإنجلترا . واضاء الانجليز النور الأخضر للملك فؤاد للتخلص من النحاس - زعيم الأغلبية الشعبية ...!! - فاوعز بدوره إلى الوزراء التابعين لحزب الأحرار الدستوريين كي يستقبلوا فينصعد الائتلاف الوزاري ويقال النحاس .

وقبل الاقالة بيومين ، فوجيء الناس بالمستندات المسروقة منشورة في الصحف الموالية للقصر وفي جريدة الأهرام وسط سيل من الشتائم والقاذورات الموجهة إلى شخص مصطفى النحاس واتهامه بالنصب والاحتيال والرشوة واستغلال النفوذ ، وإن كان الهدف الحقيقي منها هدم الدستور وتحقير الحياة البرلمانية وإقناع الرأي العام بعدم جدوى النظام النيابي ، والربط المتعمد بين قضية الوثائق المسروقة وقضية الديمقراطية في مصر . فتحت عنوان «مساكين» قالت صحيفة «السياسة» لسان حال الأحرار الدستوريين في ٢٥ يونية ١٩٢٨ : «إنهم ياتمرون بالوطن وحقوقه حرصا منهم على البقاء في الحكم لينصبوا وليسرقوا وليرتشوا وليفعلوا ذلك كله بالوثائق موقعة بأسمائهم ، وقعوها في غير خجل ولا حياء .. إلى أن قالت : دعك من أنهم لا يقدرون شيئا اسمه الشرف ولا الكرامة ، فليس يطلب إلى الناس

جميعا ان يكونوا ذوى شرف وكرامة ما دام في الناس مجرمون
بالفطرة يستحقون ان يتخلص المجتمع منهم تخلصا حاسما .



وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى تكشف الهدف الأعمق من
إثارة قضية سيف الدين وتلويث سمعة النحاس وزميلييه . فقد
عهد الملك إلى محمد محمود باشا زعيم حزب الأحرار - المستقيل
من وزارة النحاس - بتشكيل الوزارة الجديدة ، فعطل البرلمان
لمدة ثلاث سنوات بحجة أن الفساد قد دب فيه فاستحق التعطيل ،
وقال في حديث مع مراسل صحيفة شيكاغو تريبيون ونشرته
الأهرام : « أن البرلمان عندما يصير مشوبا بالفساد لا يعود
دستوريا ، وهذا هو البرلمان الذي عطلته ، فقد كان زعماء البرلمان
الماضي يتاجرون بمناصبهم العالية .. » .

●●● فهل صحيح أن النحاس تاجر بمنصبه العالي ؟؟..

●●● ألم يتنازل الرجل عن وظيفته في القضية وتنحى عن النظر
فيها فور تعيينه رئيسا للوزراء ؟؟..

ولكنها الأحقاد السياسية والضغائن الحزبية التي دفعت
خصوم النحاس إلى التغاضي عن مسالك الحق .. وارتكاب
أساليب الفحش من أجل الإطاحة بالرجل وتلطيف صورته في عيون
ال جماهير التي تحبه وتثق بنزاهته وأمانته وشجاعته ..
« ويمكرون ويمكر الله .. والله خير الماكرين »
صدق الله العظيم .

أمير في المنفى

وعشرون عاما قضاها الأمير سيف الدين حبيس السجن والياس والضياع بسبب رصاصة طائشة أطلقها على زوج اخته الأمير أحمد فؤاد ، منها سنتان عاشهما في أحد السجون المصرية ، أما ربع القرن الذي امتص عصارة حياته ، فقد قضاها منفيا في إحدى المصحات العقلية في قرية تقع بالقرب من لندن عاصمة الامبراطورية البريطانية ، وهي فترة كانت كفيلة بتدمير قواه العقلية والجسمانية والنفسية ، حتى تحول إلى كائن سقيم . وكانت عملية إبعاد الأمير سيف الدين من سجنه المؤقت في مصر ، إلى منفاه المؤبد في بريطانيا عام ١٩٠٠ تحت ستار العلاج ، قد تمت من خلال مؤامرة دنيئة من مؤامرات القصور التي كانت شائعة في ذلك العصر ، وشاركت فيها القوى الخفية التي كان يهملها الخلاص من الأمير الثرى الأهوج ، حتى يخلو لها الجو لاستلاب ثروته الطائلة التي قدرت يومئذ بعشرة ملايين جنيه ، ولاتزال أثارها باقية حتى اليوم في تلك العمارات الشامخة بشارع قصر العينى ، وفي العمارات المتكررة القائمة على أرض خان الخليلي ، ولاتزال أبوابها الحديدية تحمل اسم : سيف الدين . ولقد تم تنفيذ المؤامرة وفق خطوات محسوبة ، بدأت باستصدار حكم بتوقيع الحجر عليه حتى يحرم من التصرف في أمواله ، وكانت الخطوة الثانية إبعاده عن مصر نهائيا ، ووضعها في مكان سحيق يقضى فيه بقية عمره ، وعلمت أمه الأميرة نوجوان - وكانت تقيم بصفة دائمة في تركيا - بما يدبر لابنها في الخفاء ، فكتبت الى اللورد كرومر مستنجدة ومحذرة ليقطع على المتآمرين سعيهم ، ووعدوا اللورد بما أثلج صدرها ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى وقع ما خشيته الأم ، وتمكن عليه القوم من تنفيذ مخططهم ولم يتحرجوا من ارتكاب التزوير لتنفيذ مسعاهم .. فجاءوا بأحدى اميرات البيت المالك فانتحلت لنفسها صفة أم الأمير وحررت التماسا إلى حكومة الخديو عباس حلمي تطلب فيه نقل ابنها - المزعوم - من سجنه ليلقى الرعاية والعلاج في مصحة « تاييسهرست » في بريطانيا ، واستجابت الحكومة



لطلب الأم المزيفة ، وتم بالفعل نقل الأمير إلى منفاه السحيق دون ان تدري أمه الحقيقية بما جرى له .

وبدأت الأم المنكوبة نوجوان رحلة البحث عن ابنها الضائع في المدن الأوروبية ، حتى عرفت المكان الذي وضع فيه ، وفي عام ١٩٢٤ طلبت الأم رؤيته فرفضت إدارة المصحة ، وقالت لها أنها لا تعرف له أما غير الأم التي طلبت إدخاله المصحة ، ولجأت الأم إلى أحد كبار المحامين الأتراك اسمه جلال بك عارف ، كان سفيراً سابقاً لتركيا في روما ، فانتقل إلى بريطانيا وقابل رئيس الوزراء رامزي مكدونالد وعرض عليه مأساة الأم المحرومة من لقاء ابنها .. وقضية الأمير المسجون رغم أنه .. ولكن إدارة المصحة أظهرت له نص الطلب الأصلي الذي تقدمت به الأم المزيفة لعلاج الأمير ، ويحتوي على أمر صريح منها يحظر على الأمير مقابلة أي إنسان .. ! وبالرغم مما ينطوي عليه هذا الطلب من ريبة ، فقد التزمت به إدارة المصحة مما يدل على أنها كانت متواطئة مع المتأمرين .. ومع ذلك تمكن المحامي من لقاء الأمير سيف الدين عن طريق الرشوة فوجده شيخاً دب فيه الضعف والوهن ، وحصل المحامي على تقرير من الحارسين المكلفين بحراسته قال فيه : كان الأمير عند دخوله المصحة في حالة طيبة للغاية ، واستمرت هذه الحالة خمس أو ست سنين ، وكان محبوباً من الجميع وقد بدأ الاضطراب العقلي بعد ذلك من جراء التضييق عليه ، ولأنه كان محروماً من الاختلاط الجنسي ، ولأن حياته كانت متشابهة جملة ، ولأنه كانت تعطى له كمية هائلة من الخمر والبخار .. الأمر الذي يكشف عن رغبة مبيتة لتدمير الرجل .

وعندما اطلعت الأم البائسة على حالة ابنها جنونها ، واصرت على تحريره ليقتضى ما بقي من عمر في حضانتها ، واستخدمت سلاح الرشوة حتى تمكنت من تهريبه إلى تركيا في أغسطس ١٩٢٥ وهناك اتاحت له رعاية طبية مكثفة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من بقايا عمره الضائع ، وأرادت الأم أن تستخلص ثروته التي تكالب عليها النهابون ، فاوقدت وكيلها محمد شوكت بك إلى مصر ليرفع قضية أمام المحاكم المصرية يطلب فيها رفع الحجر عن الأمير سيف الدين ، وتقدير نفقة شهرية من أمواله المجمدة تتناسب مع مكانته الاجتماعية ، ووقع اختيار الوكيل على ثلاثة

من مشاهير المحامين ليباشروا القضية ، اما اول هؤلاء المحامين فكان حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا ، وكان الثانى ويصا بك واصف ، وكان الثالث جعفر بك فخرى ، واما عن سبب اختياره لهؤلاء المحامين الثلاثة من دون خلق الله فقد قال : لمعرفتى لأهمية القضية أردت أن أنتخب أناسا أصحاب علم غزير وقوة دفاع ، وشجاعة مدنية ، وأصحاب ذمة طاهرة ولهذه الأسباب انتخبت صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا لكونه صاحب هذه الصفات كلها وصاحب الشجاعة المدنية ، صحيح والله .. ما شفتش فى عمرى إلا إميل زولا فى فرنسا ومصطفى النحاس باشا فى مصر .. فهما الاثنان اتهما النيابة فى القوة المستبدة بقولهما : انى اتهم .. وده وجه مشابهتهما لبعض .. فترجيت من حضرة رئيس النيابة إذا كان لديه معرفة بالشخص الثالث اللي يماثلهما فى الشجاعة المدنية حتى افتخر به بصفتى إنسانا ، وانتخبت ويصا واصف بك لعلمه الغزير وطهارة ذمته ، وانتخبت جعفر فخرى بك أولا لمعرفته باللغة التركية ، وثانيا لمعرفتى بماضيه الشريف .

ولكن هذا الاختيار كان سببا فى ابتلاء المحامين الشرفاء وتعريضهم لأبشع أنواع الانتقام .

براءة

كان

المنتظر - وقد ظهرت المستندات المسروقة من بيت المحامي جعفر بك فخرى منشورة في الصحف - بعد أن تبادر النيابة العامة إلى إعادة التحقيق في جريمة السرقة للتوصل الى الفاعل بعد أن ظهر جسم الجريمة ، ولكن النيابة سكتت سكوت اهل الكهف ، عندئذ تقدم جعفر بك الى النيابة طالبا التحقيق ، ومرة أخرى لم تتحمس النيابة للبحث عن اللص لأنها كانت تعرفه وتعرف الى الجبارة التي تقف خلفه ، واكتفت النيابة بسؤال مديري صحيفتي الأخبار والسياسة عن كيفية حصولهما على الوثائق المسروقة ، فاحتفى كل منهما وراء « سرية المهنة » فأبلغ جعفر فخرى النائب العام بأن الاحتماء وراء سرية المهنة هو تضليل ، الهدف منه إعانة المتهم على الهرب من وجه العدالة ، ومرة ثالثة لم تحرك النيابة ساكنا مما دفع مكرم عبيد المحامي إلى نقد موقف النيابة نقدا لاذعا .. واعتبره تقصيرا معيبا في حق العدالة ، وقال ساخرا : لو أن الأمر كان خاصا بمنشور سياسي لقامت النيابة وقعدت وفقتشت جميع المطابع والمحال القريبة والبعيدة للبحث عن ذلك المنشور ولو لم تكن عناصر الاجرام متوافرة ، أما الجريمة ظاهرة والدليل ملموس فالنيابة لم تتحرك بينما تجهد نفسها في تحقيق المفتريات ضد النحاس وزميليه ، وتنتقل من بلد إلى بلد عسى أن تصل إلى دليل أو شبهة إدانة . واختتم مكرم عبيد هذا الشق من دفاعه بهذه العبارة البليغة في قسوتها : حقا إن عدالة النيابة في هذه القضية عدالتان .. وإذا كانت هناك عدالتان فلا عدالة بالمرة .. !



كان هذا موقف النيابة من قضية سرقة الوثائق .. أما موقفها من حملة السباب والقذف في حق الزعيم مصطفى النحاس فقد كان ادهى وأمر .. لقد تقدم النحاس باشا ببلاغ الى النيابة ضد الصحف التي وجهت إليه ائذع التهم واشنعها واحطها .. ومع ذلك حفظت النيابة التحقيق بالنسبة للقاذفين ، وقدمت النحاس وزميليه إلى المحاكمة التأديبية .. وهم ضحايا القذف

والسب .. !! وكان هذا الموقف من النيابة من أغرب المواقف في تاريخ القضاء المصري ، وارتكبت النيابة في قرار الحفظ الى أن الوقائع المنسوبة للنحاس باشا وزميليه صحيحة ، وأن ما يشكون منه فقط - هو التعليق عليها .. وارتكبت ايضا إلى أن الأحكام القضائية تبيح نقد الخصوم السياسيين .

وانبرى مكرم عبيد لتفنيد حجج النيابة فقال إن الطعن في هذه القضية ليس موجها إلى الخصوم السياسيين بوجه عام ، بل إلى أشخاص معينين بالذات هم النحاس وزميلاه ، ولذلك فالألفاظ الموجهة إليهم تعتبر من قبل الإهانة والسب .. وإذا كان النقد مباحا في النظم الديمقراطية إلا أنه يجب أن ينصب على العمل دون غيره .. ثم تساءل : فإين هذا من تعليق الصحف على الوثائق المسروقة .. هذا التعليق لم يتناول العمل ، بل تناول الأشخاص وجاء بعيدا عن الاعتدال والاخلاص اللذين جعل منهما القانون شرطا أساسيا في النقد ، لا يمكن أن يكون منه أن ينسب إلى المطعون عليهم أنهم نصابون ومرتشون ومجرمون بالفطرة واحط الانذال .. قذرون .. ونتنون ؟ إنه بذلك لا ينقد عملهم أو سياستهم .. ولكنه طعن في الشرف والأمانة بأجلى معانيه .. ولو قلنا بأن هذا نقد مباح لفسد الجو الذي نعيش فيه وأصبح جو شتائم وسباب !!

ونهض مكرم عبيد لتفنيد تهمة استغلال النفوذ السياسي التي وجهتها النيابة إلى النحاس وزميليه فقال : إن الاتهام لا يحدد كيفية استخدام النفوذ ؟ بل يتهرب من التحديد عمدا بحجة أن هذا التحديد لا يهم الاتهام !! وتساءل مكرم عبيد : ماهذا الهزل في قالب الجد ، هل من المعقول أن توجه إلى متهم تهمة عائمة حائرة لا تستقر على حال ، حتى إذا سد الدفاع بعض الأبواب استفتح الاتهام أبوابا أخرى .. وهكذا دواليك إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا ..

ولم يكن مكرم عبيد باشا هو المحامي القدير الوحيد في هذه القضية المثيرة ، وإنما كان يعمل ضمن فريق من فطاحل المحامين تطوعوا للدفاع عن زعيم الوفد وزميليه هم : محمد نجيب الغرابلي باشا ، وحسن صبرى باشا ، ومحمود بك بسيونى ، وكامل بك صدقى ، وانبرى كل منهم للرد على جانب من جوانب الاتهام ،

وشغلت مذكرات دفاعهم أكثر من ألف صفحة كانت في مجموعها شهادة فخار وتمجيد لمصطفى النحاس ، وبياننا لسلوكه البعيد عن مواطن الشبهات .

وفي يوم ٢ فبراير ١٩٢٩ انتهت إجراءات المحاكمة ، وانعقد مجلس تاديب المحامين المنبثق عن محكمة استئناف مصر الأهلية برئاسة حضرة صاحب المعالي حسين درويش باشا وكيل المحكمة ، وبحضور حضرات أصحاب العزة عبدالحكيم عسكر بك ، ومحمود سامي بك ، ومحمد بهي الدين بركات بك المستشارين بالمحكمة ، وعبدالخالق عطية أفندي عضو نقابة المحامين وأحمد شرف الدين بك رئيس نيابة الاستئناف ، وأحمد عوض الشاذلي أفندي سكرتير المجلس . وأصدر المجلس حكمه التاريخي ببراءة كل من :

- حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا
- ويصا واصف أفندي رئيس مجلس النواب
- جعفر فخري بك المحامي .

وأسدل الستار على هذه القضية التي شغلت الرأي العام لكثرة ما استخدم فيها من فنون الدس والتأمر والتلفيق والسب والقذف ، ومع ذلك لم تفلح كل هذه الأساليب الدنيئة في إطفاء نور الحق .. ولم تنل من سمعة النحاس بأكثر مما تنال ريح السموم من المعدن الأصيل .. « وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا » ، صدق الله العظيم .

في خندق الشعب

كان

مصطفى النحاس من الزعماء القلائل الذين اعتنقوا الديمقراطية فكرا وسلوكا .. لدرجة يصعب معها الفصل بين افكاره وممارسته العملية . فكان يقول مايفعل ، ويفعل مايقول ، وهو في هذا

يختلف عن طراز من السياسيين المصريين كانوا يتغنون بالديمقراطية مادامت الديمقراطية تعود عليهم بالمغانم ، ويتغزلون في عظمة الشعب بشرط أن يدفع بهم إلى السلطة ، ولكنهم سرعان ما يتنكرون للديمقراطية إذا حالت بينهم وبين الحكم ، وسرعان مايسبون الشعب إذا حجب ثقته عنهم ، ولا يتورعون عن الانضمام الى صفوف اعدائه وفرض الوصاية عليه بحجة أنه قاصر .. ومضلل .. ولايعرف مصلحته .

كان مفهوم الديمقراطية عند مصطفى النحاس بسيطا لا تعقيد فيه ولا فذلكة ، إنه يعنى الاحتكام الى الشعب ، واحترام إرادته ، واحترام مبادئ الدستور التي تنظم السلطات العامة ، وتنص على أن الأمة - وليس الملك - مصدر السلطات ، وكان الخروج على الدستور أو انتهاك أحكامه - كبيرة الكبائر التي لا تغتفر ولا تقبل التسامح عند مصطفى النحاس ، ولذلك كانت حياة النحاس السياسية سلسلة من المعارك والحروب الشرسة مع اعداء الدستور واذناب القصر ، وانصار الحكم المطلق ، وجميع القوى الرجعية والفاشية التي أرادت أن تجعل من الدستور مجرد ديكور مستورد من بلاد الفرنجة يرضى أحلام المثقفين المفتونين بنظم الحكم الغربية ولكنه - في النهاية - يعنى استمرار الحكم الاتوقراطي الموروث عن عصر الاغوات

● ● ●

من أين اكتسب مصطفى النحاس هذه النزعة المتشددة في احترام الدستور والقانون والانحياز إلى الكتلة الشعبية العريضة ؟ هل تعود إلى سليلته التي فطرت على عشق الحرية والنفور من الاستبداد ؟ ربما .. هل تعود إلى نشأته القانونية محاميا وقاضيا ؟ ربما .. هل تعود إلى جذوره الاجتماعية الممتدة في الشريحة الوسطى من السبيكة المصرية الخالصة ؟ يجوز ..

على أية حال كان مصطفى النحاس ظاهرة فريدة في تاريخ مصر بين ثورتى ١٩١٩ و ١٩٥٢ ، وشاء حظ مصر الطيب أن يظهر مصطفى النحاس على هذه الصورة المتشددة في التمسك بحق المصريين في إدارة شئونهم عن طريق حكومة مسئولة أمام برلمان منتخب ، وشاء حظ النحاس العاثر أن يعاصر الحلقات الأخيرة من سلالة الأسرة العلوية وهي تدخل مرحلة الاحتضار وتحارب معركة البقاء ، وتدافع عن وجودها الاستبدادى في مواجهة الشعب المصرى وهو يتلمس طريق الخلاص والفكك ..

فالملك فؤاد كان ينطوى على بغض دفين للديمقراطية ، ويرث عن آبائه احتقارا خسيسا للشعب المصرى ، وفى خلال السنوات الست الأخيرة من حكمه ، وهى الفترة التى شهدت مولد الحياة النيابية بعد دستور ١٩٢٣ استخدم هذا الاتوقراطى العريق حقه فى حل مجلس النواب بكثرة لم يشهدها إطلاقا تاريخ الدساتير .. فقد بلغت مرات الحل أربعاً انتهت بإلغاء الدستور نفسه .

أما فاروق - الغلام العنيد الأحمق - فقد ورث عن أبيه كراهة الدستور ومصطفى النحاس ، ولذلك قضى النحاس - زعيم الأغلبية الشعبية - ما مجموعه عشر سنوات بعيدا عن حقه الدستورى فى الحكم خلال عهد فاروق الذى بلغ ١٦ سنة ، وكانت سنوات الغيبة العشر من نصيب أحزاب الأقلية وأذناب القصر الذين استخدمهم فاروق فى انتهاك الدستور والمشاركة فى حكومات لا تحظى بثقة الشعب .



كان مصطفى النحاس يرى رفاق النضال القديم وقد تقطعت أنفاسهم من طول الكفاح ، فيضعفون أمام وهج السلطة الزائف ، ويتساقطون فى مستنقع القصر ويتحولون إلى أدوات فى يد الملك يلهب بهم ظهر الشعب ، ثم لا يلبث أن يلفظ لفظ النواة .. ويبقى مصطفى النحاس - وحده - فى الميدان .. تتناوشه السهام ، فلا يساوم .. ولا يضعف .. ولا يبيع ثقة الشعب برضاء الملك .. كان يقف فى خندق الشعب غير عابىء بمجد زائف أو سلطة زائلة .. فالوقوف مع الشعب هو ذروة الفلاح للزعيم الصادق .. وكان مصطفى النحاس زعيما حقيقيا يعرف موقعه جيدا .

انقلابات دستورية



الأول من يناير ١٩٣٠ شكل الزعيم مصطفى النحاس وزارته الثانية بعد انتخابات حرة أجراها المرحوم عدلى يكن باشا ، وأسفرت عن فوز الوفد فوزا ساحقا إذ حصل على ٩٠٪ من مقاعد مجلس النواب .

كانت تلك رابع انتخابات عامة تشهدها البلاد منذ دستور ١٩٢٣ ، وجاءت لتحمل الوفد إلى موقعه الطبيعي فى الحكم بعد الانقلاب الثالث فى سلسلة الانقلابات الدستورية التى دبرها الملك فؤاد للتخلص من حكم الشعب ، وتعطيل الحياة البرلمانية ، وإسناد الوزارة الى اشخاص لا يتمتعون بثقة الشعب ، ولا يؤمنون بحقه فى حكم نفسه ، ويضعون انفسهم فى مكان الوصى على الشعب « القاصر » فى نظرهم ، ويظنون أن مهارتهم وكفاءتهم الذاتية ترجح قوة الشعب .

أما الانقلاب الأول فقد وقع اثناء حكم وزارة الشعب الاولى برياسة سعد زغلول عام ١٩٢٤ ، فقد استغل الملك فؤاد حادث مصرع السردار واستقالة الحكومة ، فأمر بحل مجلس النواب حتى يتهى الجو أمام أحمد زيور للعبث بمقدرات البلاد فى غيبة الرقابة البرلمانية ، ووقف الزحف الشعبى الذى ظهر جليا فى أول برلمان منتخب ، فقد كان برلمان ١٩٢٤ أول مظهر نظامى لبروز سلطة الشعب كقوة مؤثرة فى الحكم ، بل القوة الوحيدة التى لها حق الحكم ، الأمر الذى رأى فيه المؤرخون تطورا عميقا دل على أن الشعب نما نموا كبيرا ، وأضحى على الرغم من كل القوى التى حاربتة القوة الاولى المرهوبة الجانب .

ولكن .. هل كان من الممكن أن يستمر هذا النمو كى يأخذ مداه ، وترسخ به سلطة الشعب ؟ وهل كان من الممكن أن تتواصل قوة الفئات الشعبية مع قوة الزعامة الشامخة التى خرجت من صفوف الفلاحين ممثلة فى سعد زغلول ؟ ؟

لقد أجابت الحوادث عن هذا السؤال من خلال أول انقلاب دستورى دبره الملك بايعاز من الانجليز وبالتواطؤ مع كبار ملاك الاراضى الذين حسبوا انفسهم اصحاب المصالح الحقيقية ثم خذلهم الشعب فى الانتخابات .

ووقع الانقلاب الثانى فى العام التالى عندما أجرى احمد زيور باشا الانتخابات العامة بعد مؤامرات واحتياطات وتدخلات أشرف على حبكها قطب الدهاء والديكتاتورية اسماعيل صدقى وزير الداخلية ، وكانت كلها تهدف إلى إبعاد الوفد عن قيادة الأمة ، ثم فوجئ مدبرو الانقلاب بأن المجلس الجديد يضم أغلبية وفدية انتخبت سعد زغلول رئيسا لمجلس النواب ، وتبين أن ذكاء الشعب ودقة تنظيم الوفد يفوقان دهاء صدقى ، ولم يخل أصحاب الانقلاب الأول من تنفيذ انقلابهم الثانى فأصدر الملك فؤاد مرسوما بحل مجلس النواب بعد تسع ساعات من انعقاده ، واستمرت البلاد تحت حكم وزارة غير شرعية تحكم دون سند دستورى ودون تأييد من الشعب .

أما الانقلاب الثالث فقد وقع فى صيف ١٩٢٨ بعد ثلاثة شهور فقط من تشكيل النحاس باشا وزارته الأولى .. كان الصراع بين الفئات الشعبية بقيادة الوفد والعناصر الارستقراطية برعامة القصر قد بلغ أشده ، ولم يكن هذا الصراع السياسى - فى رأى بعض المحللين التاريخيين - إلا انعكاسا حقيقيا للصراع بين طبقتين على النفوذ :

● طبقة الأعيان من أصحاب الأملاك الواسعة التى تحدث باسمها لطفى السيد فى الجريدة منذ أوائل القرن ، وهى التى تعتقد أنها طبقة أصحاب المصالح الحقيقية التى يجب أن يستقر فى يدها الحكم لرعاية هذه المصالح .

● البورجوازية المتوسطة والصغيرة التى نمت فى ظل ثورة ١٩١٩ ، وفى ظل النهضة الاقتصادية التى قامت على يد طلعت حرب وبنك مصر ، وهى الطبقة التى قوامها التجار والشباب المتعلم ومفكرو المدن وموظفو الحكومة وضباط الجيش يؤيدهم الفلاحون والعمال بحكم مصالحهم فى تأييد الوفد ، وكان نضال الوفد من أجل الاستقلال التام والتخلص من الحكم الأجنبى وإصراره على التمسك بحق الانتخاب المباشر ، يتلاقى مع أهداف هذه الطبقة الجماهيرية فى الاشتراك فى الحكم عن طريق النواب .



ونجح التحالف بين القصر وحزب الأعيان (الأحرار

الدستوريين) فى الإطاحة بحكومة النحاس بعد حملة تشهير
مبتذلة ، اتخذت من قضية الأمير سيف الدين مادة لتلويث سمعة
مصطفى النحاس ، وعهد الملك فؤاد إلى محمد محمود باشا زعيم
حزب الأحرار الدستوريين بتشكيل وزارة استهلت حكمها بحل
مجلس النواب حتى تنفرد بالشعب ، واطلق محمد محمود على
وزارته اسم « اليد الحديدية » اعلانا عن انتهاجه أسلوب العنف
فى تأديب الشعب ، وسلكت الوزارة فى ذلك سلوكا شرسا ،
فعطلت الصحف الوطنية وحرمت الاجتماعات العامة ، واطلقت
الحكم البوليسى ، وانتهكت حرمت البيوت والأفراد ، وفتحت
أبواب السجون والمعتقلات لتستقبل حشودا من الأحرار
والمناضلين الذين لم يخضعوا لحكم الإرهاب ، وتحرك حزب الوفد
حركة منظمة وشعبية عارمة لمكافحة هذا المد الاستبدادى ،
ونشطت لجان الوفد فى كل المدن والقرى لتحريك همه الجماهير
للوقوف فى وجه « اليد الحديدية » وتحولت نقابات المحامين فى
القاهرة والمدن الكبرى إلى بؤرات للاشعاع السياسى ، وامتلات
المدارس بلجان الطلبة الوفديين الذين أشعلوا الحمية فى نفوس
الجماهير ، وانتشرت العناصر الوفدية فى صفوف العمال بالقاهرة
والاسكندرية ، وأسفر هذا عن النشاط الحزبى الجماهيرى عن
صحوة شعبية فعالة ، أثبتت لصاحب اليد الحديدية أنه مجرد نمر
من ورق .

أكبر رأس في البلاد



تمكث وزارة النحاس الثانية في الحكم أكثر من خمسة شهور، وتسعة عشر يوما، تعرضت خلالها للدسائس من جانب القصر وأعوانه أعداء الديمقراطية الأداء الذين لم يؤمنوا بجدوى البرلمان المنتخب من الشعب، ولم يؤمنوا قط بحق الشعب في أن يحكم نفسه عن طريق حكومة مسئولة أمام البرلمان. وإنما كانوا يؤمنون بحكم « العباقرة » المستبدين الذين يختارهم القصر فيكون ولاؤهم له وليس للشعب.

وكان النحاس باشا يسعى جاهدا للأفادة من دروس الماضي الأليم. ويحاول أن يضع الضمانات الدستورية التي تعالج القصور في دستور ١٩٢٣ بما يحول بين الملك فؤاد ومعاودة العبث بالدستور، بعد أن أسرف هذا الطاغية في استخدام حقه الدستوري في حل مجلس النواب إسرافا مسفا، لدرجة أنه أقدم على حل المجلس ثلاث مرات خلال أربع سنوات ما بين ١٩٢٤ - ١٩٢٨، وكانت المادة ٣٨ من الدستور التي تعطيه حق حل المجلس دون قيد أو شرط، بمثابة سيف مُصَلَّت على رقبة الحياة النيابية، وهذا هو السبب الذي من أجله عارض الوفد وضع الدستور عن طريق (لجنة الأشقياء) المعنية بمرسوم ملكي، وكان من رايه أن يوضع الدستور عن طريق جمعية تأسيسية منتخبة من الشعب حتى يضمن حقوق السيادة الشعبية في مقابل حقوق الملك الاتوقراطية التي أصر صاحب العرش على أن يتضمنها مشروع الدستور، وبها انتقلت السلطة الحقيقية من يد الأمة الى يد الملك، وقال سعد زغلول يومها انه من الخطر الكبير أن توضع سلطات كبيرة في أيدي الملوك خاصة إذا كانت البلاد تخضع للنفوذ الأجنبي.

وصدقت نبوءة سعد زغلول، وتحولت السلطات الممنوحة للملك الى سوط يستخدمه الاحتلال الانجليزي في إرهاب الأمة، كلما لاحظ اشتداد قوة الشعب ونضجه السريع، ورغبته في أن يكون مصدر السلطات جميعا، فلما جاء النحاس باشا الى الحكم في اول يناير ١٩٣٠ وفي جعبته هذه المغامرات الملكية المدمرة،

اراد ان يضع حدا للعبث بالدستور ، فوضع مشروع قانون لمحاكمة الوزراء الذين يُقدمون على قلب الدستور او حذف حكم من احكامه ، او تغييره ، او تعديله بغير الطريقة التى رسمها الدستور ، ولم يكن لمثل هذا المشروع الخطير الذى يقيد الملك ، ان يمر من تحت ذقن الاثوقراطى العريق الذى كان يبغض الحكم الدستورى من اعماق قلبه ، فعمد الى عرقلة اعمال الوزارة حتى يضطرها الى الاستقالة ، وادرك النحاس ان المعركة الدستورية بينه وبين الملك يجب ان تنتقل الى الشارع السياسى ليكون الشعب حكما فى هذا الصراع الدستورى



ويلاحظ الدكتور عبدالعظيم رمضان فى رصده لتطور الحركة الوطنية ان ما فعله النحاس فى ١٩٣٠ كان محاولة من الوفد لتلقيح الملك نفس الدرس الذى لقنه إياه سعد زغلول فى ١٥ نوفمبر ١٩٢٤ وهو اليوم الذى صاحبت فيه الجماهير فى ساحة عابدين صيحتها المشهورة « سعد او الثورة » وفى ١٧ يونية ١٩٣٠ قدم النحاس باشا الى الملك فؤاد استقالته « الوحيدة » وسجل فيها الاسباب التى دعت الى تقديمها ، وهى : عدم تمكنه مع زملائه من تنفيذ البرنامج الذى قطعوا على انفسهم العهد بتنفيذه ، ولم يلبث ان اتبع هذه الخطوة بخطوة اخرى فتوجه الى مجلس النواب حيث اعلن استقالته بطريقة مؤثرة ، وفصل اسبابها بعدم تمكن الوزارة من ان تتقدم الى البرلمان بمشروع محاكمة الوزراء الذى تقضى به المادة ٦٨ من الدستور ، وقد فعلت خطبة النحاس فعلها فى نفوس النواب ، ووقف الدكتور احمد ماهر ليطلب من النواب الثقة بالوزارة « حتى تسمع الامة تاييدهم لصاحب الدولة الرئيسى فى موقفه المشرف الذى يعمل به للدفاع عن الحياة النيابية وعن النظام الدستورى للبلاد » ، وقوبلت كلمة ماهر بتصفيق حاد ، وسادت المجلس روح التنديد بالمحاولات التى تقع من جانب القصر لإرغام النحاس على الاستقالة ، وهنا وقف النائب الوفدى عباس محمود العقاد وقال قولته الشهيرة « الا فليعلم الجميع ان هذا المجلس مستعد ان يسحق اكبر راس فى البلاد من اجل صيانة الدستور وحمانيته ».

وفى اليوم التالى احتشدت الجماهير أمام بيت الامة وهى تهتف بحياة النحاس والدستور ، بينما كان الوفد المصرى مجتمعاً الى ساعة متأخرة من الليل ، وعقدت الهيئات والمنظمات الشعبية اجتماعات لتأييد الوزارة ثم خرجت « الاهرام » لتعلن عن اعتزام قيام مظاهرة شعبية ضخمة يوم الجمعة التالى لتطوف بشوارع العاصمة وتذهب الى ساحة عابدين للتهتاف بحياة الدستور ومطالبة الملك بعدم قبول استقالة النحاس .

وأدرك الملك فؤاد خطورة السباق بينه وبين الوفد الذى يتسلح بالجماهير ، ويحركها لإرغامه على رفض استقالة الوزارة ، وأيقن الملك انه سيواجه موقفاً عسيراً شبيهاً بما حدث أيام سعد .. فانقض فى حركة سريعة لإجهاض مخطط الوفد وسارع إلى إصدار أمر ملكى بتكليف اسماعيل صدقى بتشكيل الوزارة فى نفس اليوم الذى صدرت فيه « الاهرام » وفى صدر صفحتها الاولى خبر المظاهرة الشعبية ، وبذلك سلب الجماهير ذريعتها للتحرك الى ساحة عابدين واتخذ من التدابير الأمنية والاحتياطات البوليسية ما حال بين الشعب والوصول الى القصر .

وبمجيء اسماعيل صدقى الى الحكم وقع الانقلاب الدستورى الرابع ، وانتقلت البلاد الى عهد بغىض .. ساد فيه الظلام ، وأنهدم البرلمان ، وألغى الدستور ، واصطبغ الصراع الدستورى بالدم .

البرلمان فى الأغلل

كان

تكليف اسماعيل صدقى باشا بتشكيل الوزارة - عقب استقالة النحاس باشا - نذيرا بدخول البلاد فى مرحلة البيات الديمقراطية والانهيار الدستورى ، فقد كان معروفا عن اسماعيل صدقى 'رأيته بالامة ، واستهانته بكل ما يتصل بإرادة الشعب ، ويرى ان عبقريته او كفاءته السياسية تغنى عن النظام النيابى كله ، وكان اختيار الملك فؤاد لهذا المستبد الطاغية دليلا على نية الملك فى تاديب الشعب وإذلاله عن طريق اساليب البطش والتفكيك التى برع صدقى فى انتهاجها وكان له فيها باع طويل . وشكل صدقى وزارته من عناصر عرفت بعنائها التقليدى للدستور ، واحتقارها للإرادة الشعبية ، وكرهها الموروث للوقد الممثل الشرعى للامة ، وجاء بخليط من السياسيين الذين يفتقرون الى السند الشعبى من امثال على ماهر وحلمى عيسى وتوفيق دوس وحافظ عفيفى . ورغم كون اسماعيل صدقى من مؤسسى حزب الأحرار الدستوريين ، إلا انه فى كتاب تشكيل الوزارة تبأ من اتصاله بهذا الحزب مدعيا انه سيلتزم بالحيدة السياسية المطلقة ، ويعنى ذلك انه انفصل عن حزبه فى آخر لحظة ، لا لسبب إلا لكى يؤلف الوزارة . ويعقب الراقعى على هذا التصرف اللااخلاقى بقوله : « إن الانتساب إلى الأحزاب أو الانفصال عنها عند هؤلاء القوم هو وسيلة إلى الوصول إلى مناصب الوزارة فحسب ، ولا يبعد عن هذا الغرض قيد انملة ، وهذا يعطيك فكرة واضحة عن انحطاط الاخلاق السياسية والشخصية فى هذه البيئة من الناس ، وانهم من العوامل الاساسية لفساد الحياة العامة والخاصة فى البلاد . » ولم تكن الحيدة التى زعمها صدقى أكثر من الحيدة التى ادعاها الانجليز حيال هذا الانقلاب ، وقد كانوا سنده الحقيقى والمحرضين عليه . وكان من دلائل كذب الادعاء ان صدقى عمد الى اصطناع حزب جديد اطلق عليه اسم (حزب الشعب) وكانما كان الرجل يشعر بعقدة الذنب تجاه الشعب ، فسرق الاسم وأطلقه على حزبه المصطنع .. ثم شرع فى تنفيذ الخطة المبيتة التى دبرها مع سيده صاحب العرش فاستصدر مرسوما بتأجيل البرلمان لمدة شهر بدءا من ٢١ يونيو ١٩٣٠ دون ان يعرض المرسوم على

مجلس النواب الذي كان من المقرر ان ينعقد بعد ٤٨ ساعة . وتم الاتصال بين ويصا واصف بك رئيس مجلس النواب وعدلى يكن باشا رئيس مجلس الشيوخ واتفق الرئيسان على ان مرسوم التاجيل يجب ان يتلى على المجلسين . وبلغت انباء الاتفاق اسماع صدقى فوقع فى حيص بيص .. وقاده غروره إلى ان يقترح على ويصا واصف موافقته على عرض المرسوم على مجلس النواب بشرط ان يعطيه عهدا بالا يتكلم اى عضو من اعضاء مجلس النواب عقب تلاوة المرسوم ، ولكن ويصا واصف رفض هذا الشرط واعتبره تدخلا من الحكومة فى شئون المجلس وغضا من كرامته ، فبعث صدقى بكتاب عاجل الى رئيس المجلس يحمل لهجة التهديد والوعيد بانه سوف يتخذ الوسائل الرادعة إذا لم تصله موافقة رئيس المجلس قبل الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم المقرر لاجتماع النواب . وللمرة الثانية يتخذ رئيس مجلس النواب موقف الشجاعة فى مخاطبة رئيس الحكومة ، فبعث اليه بخطاب جرىء ابلغه فيه انه ليس من حق الحكومة ان توجه إلى رئيس مجلس النواب مثل هذا الخطاب لما فيه من تدخل السلطة التنفيذية فى ادارة الجلسات التى هى من اختصاص رئيس الجلسة دون سواه .

وما إن تلقى صدقى باشا هذا الخطاب حتى ركب راسه ، واصرر اوامره باغلاق ابواب البرلمان وربطها بالسلاسل الحديدية ، واستدعى فصائل من الجيش فاحاطت بابواب المجلس لمنع النواب والشيوخ من دخوله ، فلما حانت الساعة الثالثة تجمع ممثلو الشعب حول ابواب المجلس بعد ان اخترقوا النطاقات المسلحة ، واخذوا يهتفون بحياة الدستور وسقوط الطغيان والاستبداد ، ومن المؤكد ان هذه الهتافات النارية خرقت اذان رئيس الوزراء الذى كان يتوارى فى مقعده بمبنى مجلس الوزراء المقابل لمبنى مجلس الشعب . ومن المحتمل انه قام الى النافذة فشاهد ويصا واصف وهو يامر حراس المجلس بتحطيم الاغلال ، ولم يكن امامهم إلا ان يستجيبوا ، فانهاؤا بالبلط على السلاسل حتى كسروها وفتحت الابواب وتدفق النواب على القاعة بينما اخذ الشيوخ سبيلهم الى مجلسهم واقسم الجميع يمين الولاء للدستور ، واستنكروا ما ارتكبه الحكومة باغلاقها ابواب

البرلمان ، وإحضارها جنود القوات المسلحة لمنع الشيوخ والنواب من ممارسة حقوقهم الدستورية ، ووقف عدلى يكن - سليل الارستقراطية - موقفا مشرفا كشف عن معدنه الاصيل وانحيازه إلى جانب الحق والعدل على حساب صداقته القديمة لإسماعيل صدقى ، فبعث اليه برسالة احتجاج على اعماله المنافية للدستور ، وكان لهذا الاحتجاج اثره فى إبراز العدوان الذى ارتكبه رئيس الوزراء ، وانتهى هذا اليوم التاريخى بانتصار ارادة الشعب واندحار قوة الطغيان ، ولكن فات نواب الشعب ان يطلبوا من الحكومة ان تتقدم اليهم بطلب الثقة كما ينص الدستور ، وهذا هو الخطا الذى وقع فيه الوفد فى غمرة الهرج والمرج اللذين سادا البرلمان ، فقد كان باستطاعة الاغلبية البرلمانية ان تمارس حقها الدستورى فى حجب الثقة عن الوزارة .. وعندها تضع الملك ورئيس وزرائه فى موقف حرج .. واستدراكا لهذا الموقف رأى الوفد ان ينقل المعركة من البرلمان المعطل إلى الشارع الذى كان يموج بالغليان والثورة .

مذبحة في المنصورة

يوم تحطيم السلاسل بداية معركة حامية الوطيس بين الوفد وحكومة اسماعيل صدقي التي كشفت عن نواياها في حكم البلاد حكما مطلقا ظهرت بوادره في تعطيل البرلمان واعتزام إلغاء قانون الانتخابات ودستور ١٩٢٣ وتفصيل دستور جديد ينتقص من حقوق الشعب ويضعف من مبدأ السيادة الشعبية الذي ظهر جليا اثناء حكومات سعد زغلول ومصطفى النحاس . وكعادة الوفد في الاحتكام إلى الأمة قررت قيادته النزول إلى الجماهير لتتولى بنفسها الدفاع عن حقوقها المعرضة للضياع .

وتحدد يوم ٨ يوليو لزيارة يقوم بها النحاس باشا لمدينة المنصورة ، وبدأت الجماهير تستعد لاستقبال الزعيم فاتفقت لجنة الوفد العامة بالدقهلية مع شركة سكة حديد الدلتا على تاجير قطار خاص يستقله النحاس مع اقطاب الوفد من بنها إلى المنصورة حتى يتاح لأهل القرى لقاء الزعيم ، وتقرر ان يتناول النحاس طعام الغداء في منزل محمد بك الشناوى رئيس لجنة الوفد العامة بالدقهلية ، ثم يلتقى ولجان الوفد في منزل محمود بك نصير ، وأدركت حكومة صدقي ما سوف تسفر عنه هذه اللقاءات الجماهيرية من قوة شعبية تقلب خطة الحكومة رأسا على عقب ، فقررت إلغاء مادية الغداء والاجتماع ، بحجة ان الاجتماعات العامة ممنوعة ، فاحتجت لجنة الوفد على هذا الاجراء ، وبعث الشناوى بك إلى مدير الدقهلية يبلغه ان وصف الاجتماعات العامة لا ينطبق على الاجتماع المزمع عقده لان المدعويين اليه سيحملون دعوة شخصية وان الاجتماع سيعقد سواء قبلت الحكومة او رفضت ، وانه يحمل الادارة تبعة ما يحدث من جراء التعرض للحريات العامة التي كفلها الدستور .

وتراجعت الحكومة فوافقت على اقامة وليمة الغداء ولكنها قررت منع الوفد من السفر عن طريق قطار الدلتا او بالسيارة ، وسمحت له بالسفر عن طريق قطار السكة الحديد الحكومية ، وتنفيذا لذلك امرت شركة الدلتا بسحب موافقتها على تاجير القطار المخصوص وفتحت الحكومة كل الكبارى التي تقع في الطريق من بنها إلى المنصورة حتى لا يسافر الوفد بالسيارات

وأصدر مدير الدقهلية أوامره إلى رجال الإدارة بإزالة كل مظاهر الحفاوة التي اقيمت في مدينة المنصورة . وطلب من محمود نصير بك إزالة السرادق الذى اقامه فى بيته فرفض ، وانتشر عساكر البوليس يهدمون الاقواس والزينات التى اقامها الاهالى فى عرض الشوارع ولكنهم لم يتمكنوا من إزالة الزينات التى اقامها التجار على واجهات محلاتهم . واخذت قوات الجيش والبوليس تتوافد على المنصورة حتى باتت المدينة فى ليلة الزيارة كأنها ميدان حرب يخصص بالجنود المسلحين بمختلف أنواع الاسلحة . ونشرت مديرية الدقهلية « اعلان تحذير للجمهور » هددت فيه باستعمال القوة لمن يجرؤ على مخالفة اوامرها .

عندئذ اجتمعت لجنة الوفد واذاغت نداء اعلنت فيه ان تعرض الإدارة للاجتماع يتعارض مع مبادئ الدستور وقانون الاجتماعات ، وخاطبت الاهالى قائلة « لا يرهقنكم تحذير الإدارة وتهديدها لأنه تهديد اجوف لا تستطيع تنفيذه وهو مخالف للقانون مخالفة صارخة ».



ولم تتردد حكومة صدقى فى استعمال كل وسيلة تحول بين الشعب وزعيمه وتفسد الاستقبال المنتظر ، فامرت بفتح جميع الكبارى المحيطة بالمنصورة حتى تمنع تدفق اهالى القرى اليها ، وغمرت شوارع المدينة بالزفت والقطران لتعويق المرور فيها ، واصدرت تعليماتها الى العمدة لمنع الاهالى من الخروج من قراهم ، وقررت البلدية قطع التيار الكهربائى عن السرادق والزينات المقامة على واجهات المنازل ، فاجتمع اعضاء المجلس البلدى - وطنيين واجانب - وذهبوا الى المدير محتجين فوافق على اقامة مولد كهربائى خاص لتغذية السرادق بالتيار ومد توصيلة الى منزل الشناوى بك .

واراد الوفد ان ينتزع من الحكومة آخر سلاح تستغله لمنع الزيارة فقبل السفر عن طريق سكة حديد الحكومة ، وعلمت الجماهير بتغيير خطة السفر فانتقلت الحشود الى المحطات الواقعة ما بين بنها وطنطا والمحطة وسمنود والمنصورة ، وخرج الفلاحون والعمال من مزارع والمصانع يهتفون للنحاس وللدستور وحُماته ، وجاء خط الرحلة اطول من الخط السابق ، مما اتاح

للوفد لقاء حشود أكثر ، وجماهير أضخم . وجاءت النتيجة في مصلحة الوفد حيث أرادت الحكومة العكس ، ودخل القطار محطة المنصورة ، فاستقبله على الرصيف حشد كبير من الأعيان وأعضاء لجان الوفد فأرادوا حمل الزعيم على أعناقهم ولكنه أبى ، وتقدمهم الى الباب الخارجى للمحطة ، وأطل النحاس على الميدان الفسيح وقد تحول الى ثكنة حربية تزدهم بجنود السوارى ، وقد وضعوا خوذاتهم على رؤوسهم وسدوا منافذ الطرق حتى يحولوا بين الزعيم وجماهيره ، ومرت سيارة النحاس فى المسار المتفق عليه بين الوفد والادارة ، واجتازت السيارة النطاق العسكرى الأول ثم الثانى ، فلما أشرفت على اجتياز النطاق العسكرى الثالث وقعت المذبحة .

مروءة نادرة

تهربت سيارة الزعيم الجليل مصطفى النحاس في المنصورة وسط حشد كثيف من جنود الجيش ، والبوليس المسلحين بالبندق المزودة بالحراپ (السناكى) بينما وقفت الجماهير عند أفواء الطرق المؤدية إلى شارع البحر فى انتظار موكب الزعيم . وجلس إلى يمين النحاس محمد نجيب الفراىلى باشا ، وإلى يساره سينوت حنا بك وعلى الجمل بك الذى انتدبته لجنة الوفد ليكون حلقة الاتصال بين الوفد والسلطات . وقد طلب منه رجال السلطة ان يجلس فى سيارة النحاس تمييزا لها على بقية السيارات .

وكان سينوت حنا بك يشعر فى قرارة نفسه منذ غادر القاهرة صباحا بان الرحلة لن تمر بسلام ، وان حكومة صدقى لن تتورع عن تدبير خطة دنيئة لاغتيال النحاس باشا اثناء طوافه بشوارع المنصورة . واسر سينوت حنا بما يخالج نفسه من هواجس وشكوك إلى صديقه محمد حامد جودة بك . واتفق الصديقان على ان يلاصقا الزعيم طوال الرحلة حتى يفتدياه بروحيهما إذا تعرض لمكروه . فلما نزل النحاس هو وصاحبه من محطة المنصورة ، اسرع سينوت حنا إلى السيارة المخصصة للنحاس ، وجلس فيها فى انتظار وصول الزعيم إليها ، اما حامد جودة فقد فرق الزحام بينه وبين النحاس ، ولم يتمكن من مصاحبته فى السيارة . وتحركت السيارة من الميدان فاخترقت النطلق العسكرية الاول .. ثم الثانى .. وما إن اشرفت على شارع البحر حتى اطبق عليها حشد من الجنود حاملى الحراپ . ولمح سينوت حنا احدىهم يسدد الحربة الى صدر النحاس ، فما كان من سينوت إلا ان برز بصدرة ليفتدى الزعيم ، ويتلقى الطعنة القاتلة .. فانغrust فى كتفه .. وانكسر نصلها فى لحمه .. وسالت دماؤه الزكية على ملابس الزعيم .. وتقدم جندى آخر ليسدد طعنة اخرى فتلقاها على الفدى الموجى .. وفى نفس اللحظة انهمرت الحجارة والطوب والزجاجات المعبأة بالرمل على موكب الوفد من منازل اعضاء حزب الاحرار الدستوريين .. وهجمت الجماهير العزلاء تفدى الزعيم بارواحها .. وحدث الصدام الدموى بينهم وبين رجال

الجيش والبوليس المدججين بالسلاح .. وانهالت الطعنات المسمومة على اجساد الاهالى فقتل اربعة منهم فى مقابل ثلاثة جنود ، اما عدد الجرحى والمصابين فقد بلغ ١٤٥ شخصا .

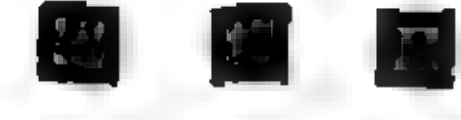


واسفرت المجزرة التى دبرها صدقى باشا عن هذه النتيجة المؤسفة . وتبين ان الحكومة كانت تدبر للمذبحة منذ وقت طويل وعهدت بالمهمة إلى احد ضباط الجيش من ذوى السوابق فى الاعتداء على الشعب واسمه الاميرالاي عبد العظيم بك على . وقد كافاته الحكومة على إدارته لمجزرة المنصورة بنجاح وامرت بترقيته إلى رتبة لواء بصفة استثنائية ، وفى نفس الوقت عاقبت الصاغ محمد امين لأنه سعى إلى حقن الدماء وابى استعمال القوة ضد ابناء وطنه فاحالته الى الاستيداع ، وكانت الترقية والعقوبة تهدفان إلى إغراء رجال الجيش والبوليس كى لا يترددوا فى التنكيل بالشعب وتجنب الرفق بالاهالى العزل ..

وماكادت انباء مجزرة المنصورة تذاق فى انحاء البلاد حتى هبت الجماهير للتعبير عن سخطها على حكومة صدقى . واندلعت المظاهرات فى طنطا وبورسعيد والاسماعيلية والسويس والاسكندرية ، وتساقط الشهداء تحت وابل الرصاص الذى كان الجنود يطلقونه بلا رحمة او شفقة ، حتى بلغ عدد القتلى فى الاسكندرية وحدها عشرين شهيدا فضلا عن ٥٠٠ جريح غصت بهم المستشفيات ، وقبض البوليس على بعض اعضاء لجنة الوفد بالاسكندرية وهم : الاساتذة عبد الفتاح الطويل وحسن سرور والدكتور احمد عبد السلام .

اما فى المنصورة فقد خرج مائة الف من ابناء الدقهلية والمديريات المجاورة لتشيع جنازة الشهداء الذين سقطوا فى المجزرة . ولم تسلم الجنازة من اعتداء البوليس عليها بالكرابيح والعصى الغليظة ، وقبض على الكثيرين حيث اودعوا السجون ، وهم يهتفون بحياة الدستور وسقوط الدكتاتورية والاستبداد . وارادت بعض المدن ان تظهر شعورها بتحية الشهداء إجلالا لهم وتقديرا للتضحيات التى قدموها . فسارت الجنازات الصامتة فى شبين الكوم وسوهاج ومغاغة وكفر الزيات وامبابة وطنطا .. وحاولت السلطات ان تفرق المحتظنين الصامتين وان تعتدى على

الحرمت المقدسة الأمر الذى كشف عن فظاعة اسماعيل صدقى ،
وتحجر عواطفه ، وخلق قلبه من أبسط المشاعر الانسانية .



أما البطل الجريح سينوت حنا فقد عاد إلى القاهرة حيث
اجريت له عملية جراحية لاستخراج الشظية المكسورة في كتفه ،
وتحولت داره القابعة على شط النيل بالجيزة إلى قبة يرتادها
الوطنيون من جميع أنحاء البلاد للاطمئنان على صحته ، والتعبير
عن غبطتهم للدور البطولى الى قام به فى صمت ، وكشف فيه عن
معدنه النادر ونفسه الابية ، ولكن تأثير الطعنة المسمومة كان
أكبر من جهود الأطباء ودعوات المخلصين ، فصعدت روحه
الوثابة إلى بارئها ، ومضى إلى ربه راضيا مرضيا ، وبقيت قصته
رمزا حيا على الشجاعة .. والمروءة .. والتضحية .. والتلاحم
المقدس بين أبناء مصر الخالدة .

المجاهد الزاهد

كان سينوت حنا من طليعة الأقباط الذين لبوا نداء الثورة الوطنية عام ١٩١٩ ووقفوا إلى جوار سعد زغلول في حماس حار ، وإيمان صادق بوحدة الألم والمصير بين المسلمين والأقباط ، وعندما اعتقل سعد زغلول للمرة الثانية في آخر ديسمبر ١٩٢١ ، كان سينوت أحد الرفاق الخمسة الذين صاحبوه إلى المنفى في سيشل مع مصطفى النحاس ومكرم عبيد وفتح الله بركات وأخيه عاطف ، ويقال ان سعدا عندما بارح بيت الأمة في طريقة الى المجهول كان شديد التأثر ، بادی الألم ، فلما أقلعت به السفينة من السويس صعد الى ظهرها وحوله الصحاب ، فوضع يدا على كتف مصطفى النحاس ، ويذا على كتف سينوت حنا ثم ابتسم قائلاً : مع ابنائى لا اشعر بالمنفى .. كان الله فى عون ابنائى الذين تركتهم فى مصر .



كان هذا الجيل من شباب الاقباط قد اکتوى بنار الفرقة التى اشعلها الانجليز بين المسلمين والأقباط بعد حادث دنشواى ، ولكن جهود هؤلاء الشباب لتطويق الأزمة كانت اضعف من حماسة المتطرفين الذين اصرروا على عقد مؤتمر للأقباط فى اسبوط ، وتم لهم ما ارادوا .. وعقد المؤتمر فى الأسبوع الأول من مارس ١٩١٠ برئاسة بشرى حنا الشقيق الأكبر لسينوت حنا .. وتكلم المتحمسون وخطب المتطرفون .. وفى النهاية تغلبت روح العقل والحكمة .. وانتهى المؤتمر دون أن يمس الحقيقة الخالدة التى جعلت من مصر اما عطوفا على ابنائها جميعا مسلمين وأقباطا .. وعلى الجانب الآخر تحمس المسلمون وعقدوا مؤتمرا شبيها فى مصر الجديدة برئاسة رياض باشا فى أبريل ١٩١١ وتكلم الخطباء والشعراء .. واصر هذا الرعيل المستنير من شباب الأقباط - سينوت حنا وواصف غالى وجورج خياط وويصا واصف ونجيب اسكندر - على حضور المؤتمر الاسلامى تأكيدا لمعنى الوحدة ، واستنكارا لوصمة الشقاق بين أبناء الوطن ، وانتهى المؤتمر كما انتهى سابقه .. وقد زالت الغشاوة عن عيون الغافلين فى الجانبين ، وتفتحت على عمق الهاوية التى يحفرها العدو

المشترك لتثبيت أقدامه في مصر ، وتأكد للجميع انه لا أمل لهم في البقاء أو الوجود بغير استمرارهم على الحالة التي وجدوا انفسهم عليها منذ آلاف السنين .

وجاءت سنوات الحرب العالمية الاولى بما صاحبها من قهر وظلم وسخرة لتؤكد بدهشة المصير المشترك في نفوس المسلمين والاقباط ، واخذوا يتطلعون الى اليوم الذي يتخلصون فيه من كابوس الاحتلال الذي امتص قواهم ونهب ثرواتهم واذل كرامتهم ، فلما اندلعت الثورة تولد الأمل الذي انتظروه طويلا وانخرط سينوت حنا في اتون الثورة مضحيا بماله الوفير وشبابه الغض دون انتظار لثمن .. او ترقب لمنصب .. بينما وقف اخوه بشرى مترددا .. خائفا من مخاطر الثورة على ضياع أسرته التي كانت تشغل مساحات واسعة من مديرتى بنى سويف والفيوم .



يقدم العالم المؤرخ الدكتور حسين مؤنس لقطة رائعة من حياة المجاهد الزاهد سينوت حنا نقلا عن الدكتور جورجى صبحى الذى كان يجمع بين مهنة الطب ودراسة تاريخ مصر القديم وكان يحسن اللغة القبطية ويقرأ الهيروغليفية ، وكان يلقي دروسا في التاريخ على طلبة معهد الآثار المصرية . يقول الدكتور مؤنس : « سألته ذات ليلة ونحن منصرفون من المعهد في طريقنا الى ميدان التحرير :

- هل صحيح ان بشرى حنا شقيق سينوت حنا ؟
- نعم كان بشرى هو الأخ الأكبر ، وكان غير راض عن الاتجاه الوطنى المتطرف الذى سار فيه سينوت . وقد عاتب بشرى اخاه سينوت الذى كان شديد الحماسة لمؤتمر مصالحة المسلمين والاقباط الذى عقد في مصر الجديدة ، وكان بشرى يخالف على مركز العائلة وثروتها من الاتجاه الوطنى المتطرف فقلل لآخيه يوما :

- اذا اصررت على سلوك هذا السبيل فستسجن وتعذب ، وربما نفوك من البلد كما نفوا عرابى ..

فقلل سينوت ، وكان شابا يتميز بالحياء والادب الشديدين :
- يا اخى بشرى لا تخف على . إننى اسعى في الحصول على استقلال مصر وإخراج الانجليز منها . لأن هذا هو الضمان الوحيد

لسلامتنا جميعا أقباطا ومسلمين . أنت تظن أن الانجليز يجرسون أموالنا ويحمون حقوقنا نحن الأقباط .. هذا خطأ .. إنهم لا يحمون إلا أنفسهم . وهانت ذا تراهم يستكثرون من نصارى الشوام ويعتمدون عليهم دوننا ، وانظر عنايتهم بالأروام (اليونان) والأرمن والمالطيين ! أنت تعرف أن الحكومة الانجليزية هي التي بنت من مالها كنيسة الروم وكنيسة الأرمن في القاهرة ، وهم يمولون المستشفى الاسرائيلي .. فهل ساهموا بقرش في بناء كنيسة قبطية ؟ انهم ياأخي اعداء المصريين جميعا ، أملنا الوحيد هو أن نظل متحدين مع إخواننا المسلمين ، فنحن وهم دائمون في هذا البلد ، وما عدانا زائل .. هذا هو الأمان الوحيد لي ولك ولأموالك التي تخاف عليها ..

ثم يستطرد الدكتور جورجى صبحى قائلا : « وبعد ذلك بسنوات وبعد أن اجتمعت كلمة المسلمين والأقباط تحت زعامة سعد ، وبدأت دعائم الاحتلال تتزعزع ، وأصبح سينوت الى جانب سعد وأصحابه من رجال مصر وإبطالها ، وصل بشرى ذات يوم الى الفيوم في زيارة عمل فوجد مظاهرة في انتظاره ، وحمله الناس على اكتافهم ، لمجرد أنه أخو سينوت .. وعندما التقى مع أخيه بعد ذلك بأيام قال له : كنت أنت على حق ياأخي .. لا تتصور كيف يستقبلني الناس الآن في الفيوم .. قبل ذلك ، وفي أيام أزمتنا مع إخواننا ، كنت اطلب من الحكماء ان يرسل معى حرسا .. لقد مضى ذلك والحمد لله .. »



هذا هو سينوت حنا .. المجاهد الزاهد الذي عاش الثورة بكل عنفوانها .. وعاش مابعد الثورة دون أن يطمع في منصب أو جاه أو نفوذ .. وكان استشهاده في المنصورة خير مثل على نزاهته ومروءته وعطائه النبيل .

الصيف الساخن

كان صيف ١٩٣٠ صيفا تصاعدت فيه حدة المواجهة بين الوفد وحكومة اسماعيل صدقي بعد الأحداث الدامية التي وقعت في المنصورة وغيرها من مدن القطر ، كانت خطة اسماعيل صدقي « الضرب في المليان » ، وقمع كل أشكال الاحتجاج عن طريق العنف وإراقة الدماء . وكانت خطة الوفد المضى في طريق الصمود مهما كانت التضحيات . كان الوفد يتحرك من احساسه بالخطر المبيت لإجهاض المرحلة الدستورية التي لم يمض عليها أكثر من سبع سنوات حُلَّ فيها البرلمان أربع مرات بمقتضى النص الذى اصر الملك فؤاد على أن يتضمنه مشروع الدستور ، ويعطيه حق حل البرلمان دون قيد أو شرط ، ونتج عنه أن فترة تعطيل الحياة النيابية كانت أطول من فترة عملها ، وكان الوفد يرى أن المعركة الدستورية لا تقل أهمية عن المعركة الوطنية وتستحق مثلها شرف التضحية ، لأن الاعتداء على الدستور هو اعتداء على الحقوق الشعبية التي برزت لأول مرة في التاريخ الحديث ، وأن على الشعب أن يهب لاستخلاص هذه الحقوق قبل أن تتحقق خطة الملك في تفصيل دستور جديد على مقاسه يحقق اطماعه الدكتاتورية .

ومضى الملك في طريق الشوك مستغلا النزعة الاستبدادية المتأصلة في نفس صدقي وكراهيته المقيتة للشعب ، وتلاقت إرادة الرجلين على تنفيذ خطة رجعية تعود بالبلاد الى صيغة الحكم المطلق التي كانت سائدة قبل دستور ١٩٢٣ ، وكانت الخطوة الأولى فض الدورة البرلمانية حتى لا تواجه الحكومة البرلمان الذى كان من المقرر أن يجتمع يوم ٢ يوليو بعد انتهاء مهلة الشهر التي تعطل فيها ، وكان قرار فض الدورة مخالفة صريحة لنص الدستور الذى يقضى بعدم فض المجلس قبل إقرار الميزانية العامة ، ولكن صدقي لم يأبه بهذه الاعتراضات الفقهية لأنه كان ينوى ما هو أخطر من ذلك وهو حل البرلمان وإلغاء الدستور ذاته .

وقرر أعضاء البرلمان أن يجتمعوا في اليوم الاخير من المهلة لحجب الثقة عن الحكومة ، ولكن صدقي لم يترك الفرصة لتكرار ما

حدث يوم تحطيم السلاسل ، فأمر بطرد قوة حرس البرلمان وجاء بقوات هائلة من الجيش احتلت كل أركان المبنى وجلس الجنود فوق سطح البرلمان فى وضع استعداد لإطلاق النار على أى شخص يقترب من المبنى ، وأذاع صدقى على الشعب إنذارا بضرب النار على أى شبح يقترب من المنطقة المحيطة بالبرلمان . واحتج عدلى يكن باشا رئيس مجلس الشيوخ على هذا الاعتداء الهمجى من جانب الحكومة ، وفعل نفس الشئ عبد السلام فهمى جمعة بك وكيل مجلس النواب . وقرر أعضاء المجلسين عقد اجتماعهم فى مبنى النادى السعدى (مقر حزب الوفد) حيث اعلنوا عدم ثقتهم بالحكومة وسجلوا عدوانها السافر على الحياة البرلمانية ، وفى نفس الوقت اصدرت بعض مجالس المديريات (الغربية والبحيرة) بيانا استنكرت فيه تصرف حكومة صدقى فامر بحلها بحجة (انها تتدخل فى مسائل خارجة عن اختصاصها) .



وكان من شأن هذه الأساليب البربرية التى انتهجها صدقى باشا فى العبث بالدستور والنظام البرلمانى .. أن أشعلت رغبة الانتقام فى نفوس الشباب الذين راوا بأعينهم ملك البلاد ورئيس وزرائه يتآمران على سلطات الشعب الدستورية ، وارتفعت نبرة العنف ومحاولات الاغتيالات السياسية بعد ان توقفت منذ حادث السردار ، وبينما كان صدقى باشا عائدا بالقطار من الاسكندرية يوم ٢٥ أغسطس ضبطوا شابا يتخفى فى زى عمال عربية البولمان ويخفى فى طيات ملابس بلطة حادة لذيح رئيس الوزراء . وتبين ان الشاب - وكان سودانيا - من خريجي كلية غوردون بالسودان ويعمل موظفا بهندسة السكة الحديدية واسمه حسن محمد طه نجل محمد طه بك عضو مجلس النواب عن مركز الدر ، وقد حوكم الشاب بتهمة الشروع فى قتل صدقى فحكم عليه بالسجن سبع سنوات ولكنه مات بعد سنتين فى السجن .

وفى يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٣٠ بلغت خطة الملك منتهاها ، فأصدر امرا ملكيا بالغاء دستور ١٩٢٣ وإعلان دستور جديد ينقل إليه كل السلطات التى كانت مكفولة للشعب . ويجعل من الحكومة العوبة فى يد الملك أو بمعنى اصح ستارا يغطى استبداده بالحكم ، ولم تخف هذه الحقيقة عن الدوائر الأجنبية فقالت صحيفة الديلى ميل : معنى هذا أن الحكومة تكون حكومة السراى ! وان الحكومة

هى الملك نفسه ! وستكون نتيجة ذلك نقل السيطرة البرلمانية من
الوفديين المتطرفين المضادين لبريطانيا - الى الملك الذى يتسنى
له الآن ان يحكم البلاد حكما مطلقا .



ومن الطريف ان الملك فؤاد لم يقسم على احترام الدستور
الجديد كما تقضى التقاليد الدستورية حتى لا يقع فى خطيئة
الحنث باليمين الاولى التى اقسمها على احترام دستور ١٩٢٣ ،
وهو فى نفس الوقت لا يستطيع التحلل من هذا القسم من حيث ان
الدستور (عقد) بينه وبين الأمة . ومن ثم لا يحق له ان يفسخ من
جانبه هذا التعاقد الرسمى العلنى ..
وفى هذا الجو القاتم المترع بدماء الضحايا .. والمشييع بفنون
التزييف والحيل والمغامرات .. ولد دستور ١٩٣٠ ولادة ميتة .

على رصيف بنى سويف

أرشفيف الصحف القومية صورة شهيرة للزعيم مصطفى النحاس وهو ينام فوق « دكة » خشبية على رصيف محطة بنى سويف . ولهذه الصورة قصة أرويهها للجيل الجديد ، كى يعرف حجم

التضحيات التى بذلها زعماء الوطنية المصرية من أجل حرية الشعب ، وصيانة الحقوق العامة التى حصل عليها بمقتضى دستور ١٩٢٣ ، ثم راق لبعض الطغاة أن يعصفوا بهذه الحقوق ظنا منهم أن الشعب غير قادر على استيعابها .

ففى عام ١٩٣١ كان اسماعيل باشا لايزال يحكم البلاد بالحديد والنار بعد أن ألغى دستور الشعب .. ورأى الوفد أن السكوت سيؤدى بالبلاد إلى كارثة ، ويعود بها إلى عصر الحكم المطلق ، وينسف الحقوق الدستورية التى حصل عليها بعد كفاح مرير .. ولما كانت وسائل الاتصال بال جماهير قد تقطعت ، فقد رأى الوفد أن ينزل إلى الناس ليحدثهم على مقاطعة الانتخابات التى أراد صدق أن يتخذ منها أداة لتزييف إرادة الأمة ، وإسباغ الصبغة الشرعية على حكمه الارهابى ، وإظهار نفسه بمظهر الحاكم الديمقراطي الذى يحكم باسم الشعب !!..

وتحالف الأحرار الدستوريون مع الوفد فى الكفاح من أجل سيادة الأمة ، وانقلبوا على صديقهم القديم بعد أن تبين لهم عمق الهاوية التى يحفرها للنظام الدستورى . واختار النحاس باشا مدينة بنى سويف - أحد معاقل الوفد العريقة - لتكون أول محطة فى مشواره الطويل الشاق .. وركب النحاس ورفاقه قطار الصعيد فى ابريل ١٩٣١ ، ولكن ما أن هبطوا محطة بنى سويف حتى وجدوها أشبه بثكنة عسكرية ، وإذا بقوات مدججة بالسلاح تحيط بهم وتحول بينهم وبين الحركة .. بينما كانت الجماهير تزحف نحو المحطة بعد أن علمت بوجود النحاس ، ففوجئوا بالمصفحات تحيط بمبنى المحطة إحاطة السوار بالمعصم !!.. كان المشهد رهيبا .. مهيبا ..

فلا الزعيم ورفاقه يستطيعون الخروج من المحطة .. ولا الجماهير تستطيع دخولها .. ولا يسمع فى الميدان سوى هدير الناس تتخلله طلقات الرصاص .

ومرت ١٢ ساعة من الساعات الخالدة فى تاريخ هذه الامة وكفاحها البطولى من اجل الحرية ، واستخلاص حقوقها من براثن الطغاة .. واضطر النحاس ورفاقه إلى النوم على الدك المتناثرة فوق الرصيف ، حتى إذا لاح القطار المتجه إلى القاهرة ، تقدمت فرقة من الجيش وحملت النحاس ورفاقه قسرا .. ووضعوهم داخل القطار الذى عاد بهم إلى القاهرة بينما جماهير بنى سويف تغلى غيظا .. وكمدا .. وعاد الزعماء إلى بيوتهم مرهقين .. مجهدين .. ولكن همهم لم تفت .. وحماسهم لم يخب .. وقرروا استمرار كفاحهم والاتصال مباشرة بجماهير الشعب .

ففى يوم ٢ مايو ١٩٣١ قرر النحاس باشا ومعه محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين السفر بالقطار إلى طنطا ومعهم حشد من أقطاب الحزبين ، ونجح الوفد فى اختراق نطاق البوليس الذى كان يحاصر ابواب محطة مصر ، فلما استقروا داخل القطار تفتق ذهن صدقى باشا عن حيلة لا تخطر إلا على بال كتاب القصص البوليسية ، فقد أمر مدير مصلحة السكة الحديدية بأجراء مناورة كان من نتيجتها فصل العربى التى يجلس فيها الزعماء عن بقية عربات القطار ، ثم جاءت قاطرة خاصة فسحبت العربى واتجهت بها إلى طريق صحراء العباسية الذى يلتف حول القاهرة باتجاه حلوان حتى توقفت بهم وسط الصحراء ، وتسامع اهل القاهرة بما جرى فانطلق بعضهم يحمل الماء والزاد إلى الزعماء المنفيين فى العراق . حتى إذا جن الليل تحرك القطار نحو محطة المعسكر - قرب طرة - وجاءت فرقة مسلحة واجبرت الزعماء على مغادرة العربى طوعا أو كرها !!..

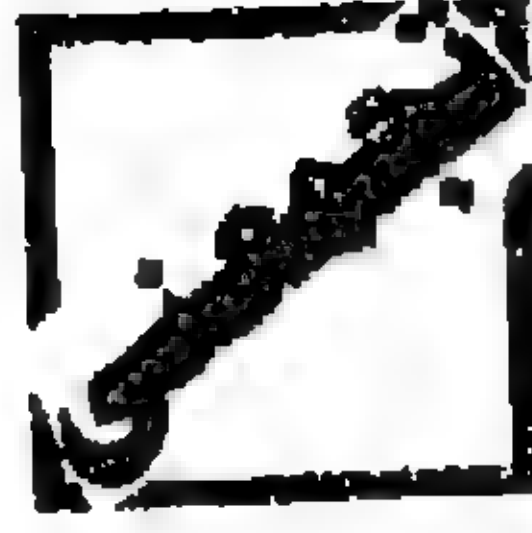
ولم تلب قناة مصطفى النحاس .. فقد كان العناد والصلابة من أبرز صفات هذا الرجل العظيم . وفى اليوم التالى كان وفد المقاومة يستقل السيارات - فى غفلة من السلطة - نحو بنى سويف للمرة الثانية ، وما إن استقر النحاس باشا ورفاقه فى بيت رئيس لجنة الوفد حتى انطلقت الجموع كالطوفان تحيط بالبيت وهى تهتف بسقوط الطغيان والاستبداد ، ولم يتراجع صدقى باشا عن المضى فى خطته الدموية فأمر قوات الحكومة المسلحة بإطلاق النار على الجماهير فقتل سبعة شهداء وجرح المئات . وانتهى اليوم بإعادة النحاس باشا ورفاقه مخفورين إلى محكمة مصر بباب الخلق لمحاكمتهم .

ولم تضع دماء الشهداء سدى ..
ولم يذهب كفاح الوفد من أجل الحرية والدستور هباء .. وأدرك
الشعب حجم التضحية التي يبذلها النحاس كي يعود للشعب
دستوره ولا يتحكم فيه الطغاة ، فلما كان يوم الانتخابات قاطعها
الشعب مقاطعة أعادت إلى الأذهان ذكريات ثورة ١٩١٩ ، وبينما
خلت لجان التصويت من الناخبين انطلقت جموع الشعب تهتف
بسقوط المزيفين ، وسقط عشرات القتلى ومئات الجرحى ، ومع
ذلك لم يخجل صدقي من أن يعلن نتيجة الانتخابات - بعد موعدها
ببومين - فيزعم أن نسبة الذين أدلوا بأصواتهم كانت ٦٧/٨ %
فكان أول من ابتدع هذا اللون من الفساد السياسي في تاريخ
الانتخابات المصرية ، وكان الشعب يبتسم ساخرا وهو يستمع
إلى هذه الأرقام ، وظل الشعب يواصل كفاحه الشريف - بزعامة
النحاس - حتى نجح في إسقاط دستور صدقي وإعادة دستور
الشعب .

فماذا كان حكم التاريخ ؟..
لقد وُضع اسماعيل صدقي - رغم ذكائه وعلمه ودهائه - في
لائحة الساسة المكروهين أعداء الشعب والديمقراطية ، وبقي
اسم مصطفى النحاس في سجل الخلود ، حارساً للديمقراطية ،
أميناً على حقوق الشعب ، طاهر اليد والقلب حتى النفس
الآخر .. وما أصدق الذين هتفوا له يوم مماته : عشت فقيرا ..
ومت كريما ..

أكذوبة رخيصة

بشخصية الزعيم الجليل مصطفى النحاس الفة
روحية وروابط نفسية وعقلية ليست وليدة الانتماء
الحزبي أو الولاء السياسى ، ولكنه حصيلة المعاناة
والبحث والتنقيب فى تلك الحقبة



الخصبة من تاريخ مصر ، التى أفرزت كما هائلا من رجال السياسة
والحكم ، وكما نادرا من ذوى العظمة الحقيقية ، وأصحاب
البطولات الصادقة .

واجتلاء جوانب العظمة فى شخصية مصطفى النحاس امر
حيوى ومطلوب فى هذا العصر الذى اختلت فيه القيم ، واختلطت
المفاهيم ، واضطربت المقاييس ، حتى بات الناس فى حيرة من
أمرهم .. لا يميزون بين العظمة الحقيقية ، والعظمة المزيفة .. بل
أصبح حديث العظمة نفسه حديثا بغیضا إلى عامة الناس ، ظنا
منهم أن المساواة التى شاعت فى عصرنا قد أزاحت العظماء عن
عليائهم ، وأطاحت بهم إلى مهاوى النسيان ، وأصبح تلويث
العظماء وتلطیح سيرتهم متعة رخيصة عند ذوى النفوس
الضعيفة . انظر اليهم وقد تعمدا نسيان تاريخ (النحاس)
وكفاحه العريض ثم توقفوا امام اكذوبة تقول انه قبل يد الملك
فاروق .. ولقد أعجبني وصف الدكتور رفعت السعيد لهذه
الاكذوبة بانها من نسج أناس عاشوا حياتهم ، وصعدوا ، أو
بالدقة هبطوا من أجل تقبيل حذاء كل حاكم وكل طاغية . ثم يعقب
على هذه الفرية قائلا : ان علم التاريخ يابى أن يرصد حادثة
عارضة - حتى لو كانت صادقة - لتقييم تراث متكامل ، وتاريخ
النحاس يكفيه ويزيد - وبدون أية حجج أو براهين - أن يسمو به
فوق هذه الصغائر .

ولا أتصور زعيما تعرضت سيرته للتشويه والافتراء والايذاء ..
كما تعرض مصطفى النحاس ، وفى يقينى ان الجيل الحالى الذى
تلقى صورة النحاس مشوهة مزيفة .. أحوج من أى جيل سبق إلى
معرفة الحقيقة حتى تستقيم رؤيته إلى معانى العظمة ، فيستعيد
سلامته النفسية والعقلية ، ويبرا من داء الاجترأ على سير
العظماء ، ويضع الابطال فى المكانة التى يستحقونها ، ولن
يتيسر ذلك بقراءة الكتب التى صدرت عن الزعيم الجليل ، فهى

شحيحة ومبتسرة ، ولكن التاريخ الحقيقى لمصطفى النحاس يوجد فى تضاعيف الأحداث الجسام التى شغلت تاريخ مصر فيما بين ثورتى ١٩١٩ و١٩٥٢ ، عندئذ سيستوى أمامك الرجل عملاقا ينطلق من القمم الذى سجنه فيه أهل الجحود والكران ، وسوف تشعر بالندم لأنك لم تكن من مريديه قبل أن يموت ، وستشعر بالأسى لأنك لم تحاول رفع الظلم الذى حاق به حيا وميتا ، وستشعر بسعادة غامرة لأن مصر أنجبت هذا الرجل الذى أحب مصر بكل ذرة من كيانه ، وقضى حياته مجاهدا فى سبيل حريتها وكرامتها ، فلم يقبض من ثمن الجهاد سوى النفس والتشريد والتجنى والافتراء ، عاش فقيرا يستدين من البنوك ليستكمل نفقات معيشته ، ولا يمد يده إلى مال الدولة . وكانت طهارة قلبه لا تقل عن طهارة يده ، والصورة التى يرسمها لنا على سلامة فى كتابه عن مصطفى النحاس تعطينا صورة الرجل الطيب الودود والاب الحنون الذى لا يعرف الحقد ، يظهر ما يبطن .. ولا يعرف الكلام المنمق المزوق ، وكل ما يحتويه قلبه ينطق به لسانه ، ولا يستطيع أن يبتسم فى وجه شخص يكرهه ، ولا يستسيغ الكذب والمخاتلة والرياء .. ولا يتصور انسانا يحترف الكذب .. ويتخذة وسيلة للوصول إلى الغاية .

كيف استطاع الرجل وهو على هذا القدر من نبل الصفات ومكارم الأخلاق ، أن يخوض بحر السياسة الغامر بالأكاذيب والتضليل والدس والتامر والابتسامات الصفراء المرسومة على شفاة غليظة ..؟ أن الجواب على السؤال يبدو سهلا إذا تذكرنا ان السنوات التى قضاها مصطفى النحاس فوق كرسى الحكم لا تزيد على عشر الفترة التى قضاها فى أحضان الشعب .. مواطننا وقائدا وزعيما .. والعلية النادرون فى تاريخ الأمم لم يستمدوا عظمتهم من زخارف الجاه والسلطة .. ولكن من الايمان برسالتهم والارتباط بشعوبهم والارتقاء بنفوسهم فى معارج الروح ، والارتفاع عن الدنيا والصغائر ، وكان مصطفى النحاس نموذج العظمة السياسية التى فرضت على قلوب الناس خلال جيلين .

صاحب المقام الرفيع



يسعدنى القدر برؤية الزعيم خالد الذكر مصطفى النحاس ، وإن كنت لا أنسى صوته الجهورى وهو يجلجل عبر موجات الاثير من قاعة البرلمان : « من أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦ ، ومن أجل مصر اطالبكم اليوم بالغائها ، كنت وقتها طالبا فى المرحلة الثانوية لا اعرف بالضبط محتويات المعاهدة ولا الظروف التى دعت إلى إبرامها ، ولا مسببات إلغائها ، ولكنى أدركت ان حدثا خطيرا يوشك ان يقع ، وما هى إلا أيام حتى تحولت مصر كلها إلى شعلة حماسة ، فالفدائيون يقتحمون معسكرات الانجليز ، والشهداء يتساقطون ، والمظاهرات تعم أرجاء البلاد ، وذات خرجت مصر فى مظاهرة جارفة وتدفق الملايين على العاصمة للمشاركة فيها ، وكان شيئا مثيرا ان يخرج رئيس الوزراء - مصطفى النحاس - ووزراؤه على رأس المظاهرة التى جابت شوارع القاهرة ، وأعادت إلى الأذهان ذكريات ثورة ١٩١٩ ، وبعد اسابيع احترقت القاهرة وأقيلت حكومة النحاس ، وخيمت على مصر سحائب الظلمات ، واختفى اسم مصطفى النحاس من الصحف والإذاعة ، وبدأت حملة مشبوهة لتلطيح اسمه وزجرته عن زعامة الأمة .

وبعد الثورة ، وطرد الملك ، توقع الناس ان يعود مصطفى النحاس إلى موقعه الطبيعى بحكم زعامته لحزب الاغلبية وتطبيقا للمبدأ السادس من مبادئ الثورة الذى يدعو إلى إقامة حياة ديمقراطية سليمة . ولكن تبين ان مفهوم الديمقراطية عند قادة الثورة يختلف عن المفهوم الموروث عن الديمقراطية ، وتطوع الفلاسفة والمنظرون - وهم للأسف من فئة كبار المثقفين - بإعطاء الديمقراطية عشرات التفسيرات ، وإلباسها أقنعة مزيفة تخفى وجهها الحقيقى الذى يتمثل فى الاحتكام إلى الشعب واحترام ارادته أيا كانت النتائج .

وكما عاش مصطفى النحاس بعيدا عن كرسي الحكم معظم سنى عمره السياسى ، فى ظل النظام الملكى ، قضى بقية سنوات عمره سجين بيته فى ظل النظام الثورى ، وكما عمل القصر واعداء الحرية واحزاب الاقلية على تحطيم زعامة مصطفى النحاس ، واصلت الثورة نفس العمل ، عن طريق سلسلة من المحاكمات

تناولت أقرب الناس إليه ولم تتناوله شخصيا ، ربما - وهو الأرجح - خوفا من أن تزيده المحاكمة رفعة وتالفا .. فيصبح في ظل الثورة «صاحب المقام الرفيع» كما كان قبلها .

هل كان مصطفى النحاس يستحق كل هذا العذاب الذى وقع له سواء فى العهد الملكى أو فى العهد الثورى ..! يمكننا أن نعرف الجواب إذا عرفنا حقيقة الصراع الذى كان يدور حول قضية الحكم والسلطة منذ عرفت مصر النظام النيابى وما يستتبعه من قيام حكومة مسئولة أمام برلمان شعبى منتخب ، وإعلان دستور ينظم السلطات الثلاث ويحصر سلطة الملك فى دائرة ضيقة ، ويجعل من الأمة - وليس الملك - مصدر السلطات ، ولم يكن من اليسير على القصر بحكم تراثه التاريخى وتكوينه الأوتوقراطى أن يتقبل هذا التحول الجذرى الذى يجعل من الشعب سييدا .. بعد أن كان قطيعا يساس بالعصا .. كان هذا هو محور الصراع بين سعد زغلول والملك فؤاد ، وامتد فيما بعد بين مصطفى النحاس والملك فاروق . ولما كان الوفد هو الحزب الذى تجسدت فيه رغبة الأمة فى التحرر من تسلط الأسرة العلوية والتخلص من التسلط الأجنبى ممثلا فى قصر عابدين وقصر الدوبارة ، فكان القصران يتصديان لهذه الظاهرة وإحباطها بشتى الحيل .. مرة عن طريق تزييف الانتخابات ، ومرة عن طريق اصطناع أحزاب تدين بالولاء للقصر وتحكم بطريقة غير دستورية ، ومرة بتشجيع قيام تنظيمات فاشية ترفع شعارات طنانة بقصد خداع الجماهير وصرفها من حول الوفد .. الخ .. وكل هذه الأساليب كانت تلتقى عند هدف واحد هو حرمان المصريين من حكم أنفسهم عن طريق ممثلهم الشرعى وهو الوفد ، وإبقاء السلطة فى يد القصر ليواصل سياسته القديمة فى الحكم الاستبدادى ، وإذا كان هذا السلوك مفهوما من جانب النظام الملكى ، إلا أنه لم يكن مقبولا من جانب الثورة التى قامت أصلا للاحتجاج على الانتهاكات الدستورية التى أدت إلى اقضاء صاحب الحق الشرعى عن الحكم ، وإسناده إلى من لا يستحق !!

انه لغز لا يسهل فهمه إلا على ضوء شخصية مصطفى النحاس وفهمه العميق لقضية الديمقراطية .

النحاس .. أسيرا

كان

الزعيم الجليل مصطفى النحاس يقضى السنوات الأخيرة من عمره في بيته كالأسير يعاني مرارة الجحود والظلم والإهمال .. فالصحف لا تذكر اسمه إلا تهجما أو تهكما .. أو تحاملا على جيل يأكمله ، جيل السياسيين المصريين الذين انتزعوا مقاليد مصر من يرثي الترك والشركس والأغوات ، وبعد أن كنا نسمع أسماء نوبار وباغوص ورفقي ولاظوغلي ، أصبح الوزراء يحملون أسماء زغلول والنحاس والغرابلي وأبو علم وويصا وأصف .. رجال من صميم الطينة المصرية .. ومع ذلك أصبحوا فوجدوا تاريخهم يتعرض لأبشع أنواع التلطيخ والتزوير .. وهم لا يملكون دفاعا عن أنفسهم فليؤذون باركان بيوتهم حتى يأتيتهم الموت . !!

● ● ●

ذات يوم طرقت فتاة بيت الزعيم مصطفى النحاس ، قالت انها مندوبة التعداد العام ، وتريد الحصول على البيانات عن سكان البيت ، واستقبلها الرجل العظيم هاشا باشا .. وجلس امامها ليبرد على أسئلتها .. وتهيأت الفتاة لعملها ففتحت حقيبتها وأخرجت أوراقها وبدأت في طرح أسئلتها فكان السؤال الأول : اسم سيادتكم ؟ أجابها الرجل في هدوء : مصطفى النحاس ، ومضت الفتاة الى السؤال الثاني دون أن يبدو عليها أي انفعال لدى سماعها اسم الرجل .

- وسيادتكم بتشغل ايه ؟

وهنا توقف الزعيم عن الرد ، والتفت الى الفتاة مستفسرا هو انت يابنتي ماتعرفيش مصطفى النحاس كان بيشتغل ايه ؟ !! وارتبكت الفتاة . وظهر انها لم تفهم مغزى السؤال ولم تعرف شيئا عن الرجل الذي يجلس امامها .. فسألتها : انت متخرجة منين قال : من كلية الآداب .. قسم التاريخ .. وازداد حزن الرجل الذي أفنى عمره كله من أجل مصر .. ولم ينجب ولدا ولا بنتا .. وكان يعتبر كل أبناء مصر أولاده .. فسألتها : وانت تدرسين تاريخ مصر ألم تسمعي عن رجل اسمه مصطفى النحاس ؟ !! وأحمر وجه الفتاة خجلا وكأنها تعتذر عن جريمة لم ترتكبها .. فطيب الرجل خاطرها حتى انصرفت .

من المسئول عن جريمة إهمال تاريخ هذا الرعيل من زعماء
الوطنية المصرية ؟ ومن الذى يملك حق استمرار الحظر على
تاريخ الزعماء فى مناهج التعليم وبرامج الإعلام ؟ إن التاريخ
ليس ملكا لحكومة معينة ، وليس حكرا على نظام بعينه يعبث به
كيف شاء ، وجريمة العدوان على التاريخ تدفع الأجيال اللاحقة
ثمناها خصوصا عندما تكتشف الخدعة التى تعرضت لها ، فتكفر
بكل ما يقال لها ، ولا يظن التليفزيون انه يبيت فى نفوسنا روح
الوفاء للخالدين عندما يصدع رءوسنا كل يوم بإحياء ذكرى بعض
المشاهير ومعظمهم من المطربين والممثلين وكتاب الأغاني !!
فليس هؤلاء هم رموز الوطنية التى تستحق التخليد ، فالناس تريد
ان تعرف تاريخ زعمائها الذين جحدناهم احياء .. ونسيناهم
امواتا ..

رجل فلاح

كان أحمد حسين زعيم مصر الفتاة مطاردا من قبل سلطات الاحتلال البريطاني أثناء الحرب العالمية الثانية ولكنه نجح في الإفلات والهرب ، وقضى فترة طويلة مستخفيا عن الأنظار حتى ضاقت به سبل العيش ، فعزم على تسليم نفسه الى الحكومة . واستعرض اسماء بعض الوزراء ليختار من بينهم الوزير الذى يسلم نفسه اليه ، وهو مطمئن الى ان كرامته ستكون محفوظة ، ووقع اختياره على وزير الداخلية فؤاد سراج الدين لاعتبارات ترجع الى زمالة قديمة بينهما فى كلية الحقوق ، ورفع أحمد حسين سماعة التليفون ورد عليه فؤاد سراج الدين مهلا مرحبا وقائلا : انت فين ياراجل .. عاوزين نشوفك !! وقال الزعيم المطارد : وانا اريد ان اقابلك فقال الوزير : اذن تفضل فى بيتى الآن ان شئت فقال أحمد حسين : سأحضر الآن بشرط الا تعلم احدا بحضورى .. وركب أحمد حسين سيارة « تاكسى » ، ومضى الى بيت فؤاد سراج الدين المواجه لبيت النحاس باشا رئيس الوزراء ، والشك يساوره فى ان يعد له الوزير كميناً لاعتقاله . فلما لم يجد حول البيت شيئا مريباً سلم امره الى الله ودخل بيت سراج الدين واستقر فى غرفة الاستقبال وقد غمرته الفرحة « فلم اكن اتصور ان سيكون الرجل امينا فى تنفيذ وعده الى حد الا يخطر النحاس باشا مع انه كان يعلم ان هذا الموضوع فى الدرجة الاولى من اهتمام رئيس الوزراء » .

وبعد حديث وُدّى بين الزعيم الهارب والوزير المسئول عن الأمن استأذن سراج الدين من ضيفه لعرض الموضوع على النحاس باشا ، وبعد فترة - كانها دهر - عاد الوزير ليروى لضيفه تفاصيل اللقاء : لقد قلت للنحاس باشا إن عندى خبرا يسرك .. أحمد حسين عندى ! فقال النحاس باشا : واين هو اريد ان اراه .. فقلت له : وهو ايضا يريد ان يراك .. ولكن قبل ان نتقابلا اريد ان اتفق معك يا باشا على وجوب اخلاء سبيله .. « فالاستاذ أحمد حسين زميلى فى الدراسة ، وصداقة المدرسة عندى اعلى ما اعتر به ، على ان هناك فوق ذلك كله ، أننى رجل فلاح . ولقد جاء أحمد حسين الى بيتى ، فلا يمكن ان يخرج من بيتى سجيناً أو معتقلاً

ابدًا .. وإذا كان الباشا يرى أن لا مناص من اعتقاله فليأذن لي أن
أعود إلى الأستاذ أحمد حسين كي أساعده على الرجوع من حيث
أتى .. ثم يعمل الباشا بوسائله الخاصة على اعتقاله ..



مازلت أذكر الأثر الذي تركته هذه الواقعة في نفسي عندما
قرأتها لأول مرة وأنا في مرحلة الصبا في كتاب (وراء القضبان)
الذي أصدره المرحوم أحمد حسين في سلسلة - كتب للجميع -
عام ١٩٤٩ ، ورغم مرور ٣٥ سنة فلا تزال رموز هذا اللقاء المثير
تشع في وجداني إحساسا بالدهشة والسعادة .. وكلما مضى
الزمن اتسعت دائرة الدهشة وضاعت دائرة السعادة .. !
كان المصريون في ذلك العصر يقيمون اعتبارا كبيرا للقيم
والتقاليد والأخلاق ، وكانت قواعد اللعبة - بين الدولة
وخصومها - مصونة من الطرفين ، لا يجزأ أحد على اختراقها ولا
قوبل بالخزي والعار من جانب ضميره أولا ومن جانب الضمير
العام ثانيا .. وجاء زمن خبا فيه صوت الضمير الى حد العدم ..
وباتت القيم والتقاليد والأخلاق عملات قديمة غير قابلة للتداول ..

محكمة الثورة

كان

إلغاء دستور ١٩٢٣ بعد نحو خمسة شهور من قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ مؤذنا بالصدام المباشر بين الثورة والوفد ، وسقوط شعرة معاوية التي كانت قائمة حتى ذلك الحين بين الطرفين ، لأن الكفاح من أجل الدستور كان خطا ثابتا في تاريخ الوفد ويسير في خط مواز لكناحه من أجل الاستقلال ، وكانت تضحيات الشعب - بقيادة الوفد - في سبيل الدستور ، وحمايته من العبث والعدوان ، لا تقل روعة وجلالا عن التضحيات في سبيل إنهاء الاحتلال ، ومنذ بداية المرحلة الليبرالية في عام ١٩٢٤ كان الوفد يحارب في جبهتين : الجبهة الخارجية لاستخلاص حقوق البلاد الوطنية ، والجبهة الداخلية لمقاومة استبداد القصر ، وإحباط محاولاته الدائبة لاستعادة حكمه المطلق ، مما دعا الوفد الى خوض معارك دامية بلغت ذروتها في عهد اسماعيل صدقي ، وقد توج كفاح الوفد آنذاك بعودة دستور ١٩٢٣ في اواخر عام ١٩٣٥ .

وعندما قامت ثورة يوليو كان الشائع انها ستعمل على صيانة الدستور وتصحيح الأوضاع الديمقراطية واعادة الحياة النيابية وضمان الحريات الأساسية لجميع المواطنين ، خاصة بعد خلع فاروق المدبر الأكبر لكل الانقلابات والدسائس التي أدت الى الفساد السياسي ، ولكن قيادة الثورة ما لبثت ان تنكرت للدستور ، وكشفت عن نواياها المعادية له عندما تجاهلت النص الدستوري الذي يقضى بدعوة البرلمان الوفدي المنحل لكي يؤدي أمامه أعضاء مجلس الوصاية على العرش اليميني الدستورية . ورغم أن انعقاد هذا البرلمان كان إجراء شكليا بحثا ولا يستغرق أكثر من بضع دقائق ، إلا أن الزمرة التي احاطت بضباط الثورة ، وكلهم من رجال الحزب الوطني المعادين للوفد ، وجدوا في عقد البرلمان فرصة غير سارة تذكر الجماهير بالنظام البرلماني الذي بيتوا النية على هدمه ، والسير بالنظام الجديد في طريق اللاديمقراطية ، فكان أن تفتقت عقولهم عن فتوى شيطانية بإمكانية أداء اليمين أمام مجلس الوزراء ، ووجدت الفتوى ذات المنفعة المزدوجة قبولا عند الضباط الشبان ، فقد شجعت هؤلاء على الاستهانة

بالدستور والتحرر من قيوده ، ومن ثم المضى فى طريق الانفراد بالحكم ، وفى نفس الوقت حققت لمستشارى السوء فرصتهم للانتقام من الوفد وإقصائه نهائيا عن حقه الشرعى فى الحكم . وجاء الإجهاز على الدستور فى ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ علامة واضحة على أن الحكام الجدد قد اخناروا السير فى الطريق نحو الديكتاتورية ، ثم لم تمض ثلاثة اسابيع حتى اصدر مجلس قيادة الثورة فى ١٧ يناير ١٩٥٣ أمرا بحل الأحزاب السياسية التى تعتبر ركيزة النظام الديمقراطي ، وازاء هذا المد الاستبدادى السافر ، قرر الوفد أن يخوض المعركة ايا كانت نتائجها رغم علمه بطبيعة القوى الجديدة التى يواجهها ، وأنها عناصر عسكرية بحثة تستند الى قوة الجيش ، وانتهاز زعيم الوفد مصطفى النحاس فرصة ذكرى وفاة سعد زغلول فى ٢٣ اغسطس ١٩٥٣ فتحدى القرار الصادر بمنع الاحتفال بها ، وتوجه الى صريح سعد والقى خطابا ساخنا هاجم فيه قيادة الثورة ، وندد بالاساليب التى اتبعتها فى القضاء على الحرية والدستور والحياة النيابية ، وطالب بالافراج فورا عن المعتقلين ، كما هاجم سياسة حكومة الثورة فى التفاوض مع الانجليز بعد أن لفظت البلاد هذا الاسلوب ، كما ندد بموافقة الحكام الجدد على ما عرضه الانجليز من منح السودان الحكم الذاتى تمهيدا للاستفتاء على مبدأ تقرير المصير ، وقال النحاس إن أمانى مصر القومية قد أهدرت تماما على يد الحكام الجدد ، وحذر من مغبة التفريط فى حقوق البلاد ، وقال ان الأمة يقظة لما يدبره لها اعداؤها فى الخفاء ، واختتم خطبته بهذه العبارة : ان حبل الباطل قصير .. وهو إن طال شنىق صاحبه .

وسرعان ما تحول خطاب مصطفى النحاس الى منشور تداولته أيدي الجماهير بكثافة ، وفى يوم الجمعة التالية للخطاب ، أدى النحاس الصلاة فى مسجد ابنى العباس المرسى بالاسكندرية فالتفت الجماهير من حوله رغم الحصار الذى فرضه البوليس حول المنطقة ودارت معركة ساخنة بين رجال البوليس والمصلين . ولمواجهة الهجوم الصريح من جانب زعيم الوفد ، لم تلجأ قيادة الثورة الى مقارعة الحجة بالحجة ، ولكنها لجأت الى النهج التعسفى لتصفية منتقديها وتلويث سمعتهم والتشهير بهم عن

طريق المحاكمات الثورية ، وفي ١٦ سبتمبر ١٩٥٣ أعلن اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية ورئيس مجلس قيادة الثورة في مؤتمر جماهيري بميدان عابدين الأمر الخاص بتشكيل محكمة الثورة ، وقدم صلاح سالم الذي كان يوصف بأنه « لسان الثورة وميزانها الحراري » تحليلاً لخط العنف الذي قررت الثورة المضى فيه . وبعد أن شن هجوماً عنيفاً على الوفد وزعامته فاجأ الجماهير بوجود وثيقة « خطيرة » قال إنها وقعت في أيدي مجلس الثورة وتكشف عن التحالف الوثيق بين « الاستعمار الأجنبي والخونة الرجعيين في هذه البلاد » ولكن صلاح سالم حذف - وهو يقرأ الوثيقة المزعومة - اسم الدولة الأجنبية التي تشجع المتمردين من رجال الأحزاب ، وقد جاء فيها أن هدف التحالف بين تلك الدولة (المجهولة) ورجال الأحزاب هو « بث روح السخط ضد النظام وتشجيع الأفكار التي تنادي بعدم صلاحيته وتدعيم الوسائل التي تؤدي إلى تدهور الاقتصاد ، وذكر صلاح سالم أن العمل لقلب مجلس الثورة كان محدداً له مدة اقصاها يوليو ١٩٥٤ . وأعلن في نهاية تلاوته لتلك الوثيقة قراراً هاماً يضعان سياسة الصرامة والشدة محل التطبيق هما : إعادة الرقابة على البرقيات الصحفية الواردة والصادرة من مصر ، كما أن الرقابة على الصحف داخل مصر » ستظل قوية تضع سيفها فوق كل رأس مخرب يريد تبلبل الأفكار » ذكراً « أننا سنظهر بقوة وعزم كل ركن من أركان هذه الدولة ، ولن ننسك في هذا المضمار بإصاحبة الجلالة الصحافة » !! أما القرار الثاني فيقضى بتشكيل محكمة الثورة من عبداللطيف البغدادى رئيساً ، وأنور السادات وحسن إبراهيم عضوين .

وفي دراسة تحليلية لتلك الوثيقة التي قرأها صلاح سالم ، يقول صلاح عيسى أن الوثيقة لم تنشر ، ولم يواجه أي ممن قُدموا للمحاكمة بوقائع محددة تستند إليها ، ثم يصف هذه الوثيقة بأنها نص للدراسات المشتركة التي جرت بين أجهزة السفارة الأمريكية - ومن بينها وكالة المخابرات المركزية - وبين أجهزة الأمن الناصرية ، على النحو الذي أشار إليه رجل المخابرات كوبلاند في كتابه (لعبة الأمم) [وكان هذا قريباً من مسرح الأحداث المصرية فضلاً عن أنه كان واحداً من المستشارين

المقربين لجمال عبدالناصر آنذاك [فقد ذكر انه في صيف ١٩٥٣ بدأت السفارة الأمريكية تقلق على الوضع في مصر بعد أن شعر السفير الأمريكي جيفرسون كافري بالقلق على نظام عبدالناصر إذ أن الحركات المضادة عادة ما تظهر - في رأى وكالة المخابرات المركزية - بعد مرور عام واحد على الحركة السابقة .

وبدأت محكمة الثورة تمارس نشاطها في جو مشحون بالسموم ضد الوفد ، بل يذهب أحمد حمروش الى « أن محكمة الثورة كانت موجهة أساسا ضد الوفد وبقايا الأحزاب السياسية » .. ولما كان الوفد أخطر هذه الأحزاب فقد ناله نصيب الأسد من القضايا ومن التشهير الذي لم يتعفف عن البذاءة والابتذال ، ويرى صلاح عيسى أن محاور الهجوم على الوفد تركزت في التأكيد بأن ثقة الشعب به - التي تمثلت في حصوله على الأغلبية المطلقة في انتخابات ١٩٥٠ لم تكن في محلها ، وفي الهجوم على النظام البرلماني وصولا الى تأكيد فكرة امكانية الاستغناء عن البرلمان ، وفي التشكيك في وطنية كل العناصر التي كانت مؤثرة على مسرح الأحداث ، وفي السعي لتلويث كل القيادات الحزبية وبالذات قيادات الوفد بحيث تبدو أمام الجماهير شخصيات تافهة ، وفي هذا الصدد نال زعيم الوفد مصطفى النحاس من التشهير ما لم ينله غيره ، ولكن الضباط الأحرار عجزوا عن تقديمه شخصيا للمحاكمة لإدراكهم صعوبة ذلك ، وربما خشيتهم من أن تؤدي محاكمة الرجل الى مزيد من التعاطف الشخصي والسياسي معه ، إذ لم يكن من السهل تجاهل المكانة التي ظل النحاس يشغلها في نفوس الشعب المصري منذ تولى زعامة الوفد عقب وفاة سعد زغلول .

وإزاء صعوبة محاكمة مصطفى النحاس فقد قرر الضباط الأحرار محاكمة أقرب الناس اليه : قرينته السيدة زينب الوكيل ، وساعده الأيمن فؤاد سراج الدين ، وابنه في حقل الجهاد ابراهيم قرج .

ختم وحكم

في

الساعة العاشرة من صباح الأربعاء ٩ ديسمبر ١٩٥٣ مثل فؤاد سراج الدين أمام محكمة الثورة المشكلة برئاسة قائد الجناح عبداللطيف البغدادي وعضوية البكباشي أنور السادات وقائد الأسراب حسن ابراهيم أعضاء مجلس قيادة الثورة بالإضافة إلى البكباشي زكريا محيي الدين الذي رأس مكتب الادعاء يعاونه ستة أعضاء نصفهم من الضباط الحقوقيين والآخرين من وكلاء النيابة ، وكان صلاح سالم وهو يعلن أمر تشكيل المحكمة في المهرجان الشعبي بميدان عابدين ، قد اقترح أن تعقد المحكمة في ميدان التحرير لبث الذعر في قلوب الناس ، ولكن مجلس الثورة لم يأخذ باقتراحه ، وقرر عقدها في مقر مجلس قيادة الثورة الذي كان فيما قبل مقرا لنادي اليخوت الملكية ، ويشغل أجمل بقعة على قمة جزيرة الزمالك حيث يتفرع النيل ، وتنساب أمواجه الرقيقة تحت عتباته في جمال وروعة وسكون .

في الطابق الثاني الذي خصص للمحكمة ارتفعت لافتة مكتوب عليها باللون الدموي (سكون) وتدل على باب القاعة رقم ٨ المخصصة للجلسات علم الثورة المثلث الألوان ، وكتب على الجزء الأبيض منه (محكمة الثورة) بينما تناثرت على جدران القاعة آيات قرآنية تم اختيارها بعناية مثل « اقتلوهم حيث ثقتموهم » و« وليجدوا فيكم غلظة » « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » .

وقد نص أمر تأليف المحكمة على أن يتولى مكتب الادعاء القبض على المتهمين وأخطارهم بالتهم المنسوبة اليهم قبل موعد المحاكمة بأربع وعشرين ساعة على الأقل ، ولا يجوز تأجيل القضية لأكثر من مرة واحدة ولمدة لا تزيد على ٧٢ ساعة ، ويتولى الدفاع عن المتهم محام واحد في جميع التهم المنسوبة اليه ، ولا يجوز المعارضة في هيئة المحكمة أو أحد أعضائها ، كما أن أحكام المحكمة نهائية ولا تقبل الطعن بأي طريقة من الطرق أو أمام أية جهة من الجهات ، وكذلك لا يجوز الطعن في اجراءات المحاكمة .

ورغم أن اللواء محمد نجيب يعترف في كلمته للتاريخ بأن هذه المحكمة أشاعت الفزع والرعب في نفوس الناس ، ورغم أنه يقول إنه اعترض على فكرة المحاكم الثورية لأنها تجعل من قادة الثورة خصما وحكما في نفس الوقت ، فإن معارضته لم تمنعه من توقيع امر تشكيلها والمشاركة في الزفة التي صاحبت ذلك بميدان عابدين .

وفي حين يذكر بعض الكتاب أن محكمة الثورة كانت تعقد جلساتها في سرية ولا يحضرها إلا أعضاؤها والمتهم وزكريا محيي الدين هو ومعاونوه ، وأن المتهمين كانوا يواجهون المحكمة بلا تحقيق ويوجه الادعاء التهمة اليهم كنوع من المفاجأة (!!) فإن أحد الضباط الذين جمعوا وقائع المحاكمات الأولى يقول في صدر كتابه إن رجال القانون والتشريع في مصر كانوا يتهافون على حضور هذه المحاكمات ، وإنهم أعجبوا ببراعة المناقشات التي تدور فيها والأسئلة التي يوجهها أعضاء المحكمة كما لو كانوا من رجال القضاء العريقين (!!) ثم يصف المحكمة بأنها ابتدعت نظما جديدة في المحاكمات فهي تنجز في أيام ما تنجزه المحاكم العادية في شهور بل سنوات (!!) ومع ذلك كان العدل رائدها وذلك بشهادة المتهمين أنفسهم حتى إن بعضهم تقدم بالشكر على معاملته بالعدل والقسطاس (!!).

وكانت محاكمة فؤاد سراج الدين أطول محاكمات الثورة ، فقد استغرقت ٥٤ جلسة ، وكانت أقرب إلى محاكمة عهد ما قبل الثورة كله منها إلى محاكمة فرد ، وتطرقت المحكمة إلى قضايا لا علاقة لسراج الدين بها ، وطرحت أمورا خارجة على موضوع القضية ، وبلغ الابتذال بالمحكمة أن حشدت رهطا من السياسيين القدامى الذين كانت لهم مواقف معادية للوفد ، وأخذت تحرضهم على سرد قصص وحكايات تسيء إلى الزعامة الوفدية وتشبه صورتها في نظر الجماهير ، وبلغ الاسفاف بأحدهم أنه تطرق إلى الحياة الخاصة للزعيم مصطفى النحاس ، وكان بعضهم يتبرع باختلاق وقائع كاذبة لكي يشتري حريته وينجو من المحاكمة أمام نفس المحكمة عن جريمة العمالة للانجليز ، وكان هذا مسلك رئيس الديوان الملكي السابق حسين سرى الذي تبرع بفبركة قصة تقبيل النحاس ليد الملك عقب تشكيل وزارة ١٩٥٠ ، وعن طريق هذه الحملة التشهيرية الواسعة تحقق الهدف الأصيل من

المحاكمة - كما اعترف رئيسها في مذكراته بعد ربع قرن - من أن القصد من المحاكمة كان التشهير بالزعماء حتى يفقد الشعب الثقة بهم .

وتحولت محاكمة فؤاد سراج الدين - أكبر شخصية مؤثرة في الوفد بعد مصطفى النحاس - إلى مهرجان لتوجيه أقصى الطعنات إلى الوفد ، بل وإلى عهد ما قبل الثورة كله ، وانسأقت المحكمة في هوجة التجريح حتى عميت عليها الأمور ، واختلطت الحقائق بالضغائن ، ولم تعد تفرق بين الأحقاد السياسية والاعتبارات الوطنية التي تعلو فوق الخلافات ، فتحول الأبيض إلى سواد ، وأصبح العمل الوطني في نظر المحكمة جريمة يلام عليها فاعلها ، وبلغت المحكمة ذروة المغالطة عندما عابت على حكومة الوفد موقفها من معركة التحرير التي أعقبت إلغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وعدم الاستعداد لها ، متجاهلة الدور البطولي الذي لعبته هذه الحكومة في تدعيم الكفاح المسلح وتسهيل مهمة الضباط - ومنهم رئيس المحكمة - في مقاومة الاحتلال البريطاني .

وقد استفزت هذه المغالطة البشعة الكتاب الأحرار الذين عاصروا هذه الأحداث بمن فيهم المنتمون إلى حركة الجيش ، فكتب أحمد حمروش منتقدا مسلك المحكمة بقوله : وهكذا تحول الموقف الذي يستحق الفخر في تاريخ الوفد .. إلى موقف يجلب إليه العيب والأسف (!!) ووجهت الطعنة في غير موضعها ، وإذا كان الشر لا يخلو من بعض جوانب الخير ، فإن وقائع المحاكمة كشفت عن خطأ كثير من المقولات التي كانت شائعة حول العلاقة بين الوفد والقصر ، وقد ذكر صلاح عيسى بعض نماذج لهذه الحقائق في مقدمة الجزء الأول من وقائع محاكمة سراج الدين ، وقال إن المحاكمة أزاحت السار عن مواقف بطولة وهمية نسبها البعض لأنفسهم على حساب الوفد ومنهم زكي عبدالمتعال - الشاهد الذي أدانته محكمة الثورة في حكمها - وكانت بعض الصحف قد قدمته كبطل ، ثم ثبت بعد ذلك عمالته للسراري فضلا عن صلاته الوثيقة بالدوائر الأمريكية ، كما افترض موقف النائب العام الأسبق محمد عزمي من تحقيقات قضية الأسلحة الفاسدة التي ذهب بعض المؤرخين (الرافعي) إلى اتهام الوفد بأنه المسئول عن طرده من منصبه تلبية لرغبة السراي واعتبروه بطلا ، ثم ثبت فيما بعد أنه هو الذي تواطأ - على غير

رغبة الحكومة الوفدية ، لافساد قضية الأسلحة الفاسدة لحساب السراى طمعا فى مرتبة كبير .

وتضمن الادعاء على فؤاد سراج الدين تهما من كل لون وجنس مثل خيانة امانة الحكم واستغلال النفوذ ومهادنة الملك وعدم مراعاة مصلحة الوطن وعرقلة تحقيقات الأسلحة الفاسدة . وبالإضافة إلى الجهد الخارق الذى بذله محاميه الوحيد وصديقه عبدالفتاح حسن باشا ، فقد تصدى سراج الدين لتفنيد هذه الدعاوى فى شجاعة فذة لفتت إليه أنظار المؤرخين ، ووصفه بعضهم بأنه كان أشجع المتهمين الذين واجهوا المحاكم الثورية ، وأنه انبرى للدفاع عن نفسه وعن حزبه دفاعا مجيدا استغرق خمس جلسات كاملة فتنجح فى ذلك نجاحا نادر المثال بما يؤكد ذكاه واقتداره السياسى .

ورغم أن رئيس المحكمة أظهر فى بعض مراحل المحاكمة تقديرا لشخص فؤاد سراج الدين وقال له أن المحكمة لا تشك فى نزاهتك ، وأيد الادعاء هذا الرأى ، ورغم وضوح تهافت الاتهامات المصوبة إلى سراج الدين فقد صدر الحكم عليه بالسجن ١٥ عاما لأنه كان لابد أن يخفى من المسرح السياسى ليخلو الجو أمام الضباط الشبان للانفراد بالحكم دون إزعاج ، وعبر جمال عبدالناصر عن هذه الحقيقة عندما صرح للذين تحدثوا إليه بشأن التصديق على الحكم فقال : «إن فؤاد سراج الدين كرجل سياسى ، يعرف لماذا حكم عليه .. ومتى سيخرج» .. وأوضح عبدالناصر لأسرة سراج الدين الضرورة التى حتمت عليه وضع زعيمهم خلف القضبان ، وهى تخضع لعاملين أحدهما خارجى وهو عودة الأحزاب السياسية فى سوريا بعد الإطاحة بحكم العقيد الشيشيكلى ، وهو الأمر الذى سبب أرقا لرجال الثورة بصفة عامة ، وعبدالناصر بصفة خاصة ، لأنهم كانوا يدركون أن مجرد وجود الأحزاب يشكل خطرا على سلطتهم .. أما العامل الداخلى فهو أن جمال عبدالناصر كان يستعد للقضاء على الإخوان المسلمين .

وهذا هو منطق العدل الثورى .

وقد أنجز عبدالناصر وعده .. ولم يخادر فؤاد سراج الدين السجن إلا بعد أن أجهز عبدالناصر على الإخوان .. وخلص له حكم مصر .

مجزرة طرة

فى

يوم السبت الحزين الموافق للفاتح من يونية ١٩٥٧ وقعت أحداث هذه المجزرة فى ليمان طرة :

كان هناك ١٨٠ من رجال الاخوان المسلمين يقضون عقوبة الاشغال الشاقة المحكوم عليهم بها من محاكم الثورة من اكتوبر ١٩٥٤ ، وكانت مصلحة السجون قد اتخذت بعض الاجراءات الانسانية تمشيا مع سياسية تحسين حال المسجونين ، ومن بينها اعفاء المسجون من الصعود الى جبل طرة لتكسير الصخور بعد انقضاء سنتين من هذا العمل الشاق يحول بعدها للعمل فى الورش داخل السجن ، ولما طالب الاخوان المسجونون بتطبيق هذا الاجراء عليهم كغيرهم من المسجونين العاديين فوجئوا بالرد عليهم بان قرار الاعفاء من الاشغال الشاقة لا يسرى على الاخوان !! عندئذ طالب الاخوان بعرض قضيتهم على النيابة العامة ، كما تقضى لائحة السجون ، فرفضت ادارة السجن . وفى صبيحة اليوم المشئوم اعتصم الاخوان فى الزنازين ورفضوا الخروج إلى الجبل إلى ان يتحقق مطلبهم ، وانتدبوا اربعة منهم للتفاوض مع ادارة السجن ، وبينما المفاوضات جارية فى المكاتب ، كان خبر الاعتصام قد تسرب الى المراجع العليا فى الدولة فاصدرت قرارها التاريخى باستئناف سياسة الإبادة التى توقفت بعد مذابح السجن الحربى ، وضرب الاخوان فى المليان .. !!

وتقدمت فرقة من السجانة ففتحت بعض زنازين الاخوان واحدة بعد واحدة واخرجت من فيها بالقوة وربطتهم فى سلسلة جماعية ، وادرك الاخوان انهم سوف يساقون قهرا الى الجبل ليفتك بهم رصاص الحرس. ثم يقال انهم كانوا يحاولون الهرب . ! ولم يشا الاخوان ان يستسلموا كالدبائح امام جلاديههم ، واستطاع احدهم ان يختطف المفتاح من الحارس واسرع إلى فتح الزنازين واخبر الاخوان بما يدبر لهم .

وحان وقت صلاة الظهر فاتجه الاخوان للوضوء والاستعداد للصلاة وفجأة تقدمت فصيلة من حرس السجون مسلحة

بالرشاشات وصعد الجنود السلم وتوقف نصفهم في ممرات الطابق الثاني بينما واصل الباقون صعودهم فالتخذوا مواقعهم في الطابق الرابع وصوب الجميع فوهات المدافع نحو الطابق الثالث ، ولم يابه الاخوان لهذا المشهد وظنوه مجرد تهديد ، ولم يخطر ببالهم ان يصل الغدر إلى حد قتل المسجون الأعزل وهو وديعة في رقبة الدولة ، عليها أن تحميه وتصون حياته بمقتضى الشرائع والقوانين والأعراف واللوائح والتقاليد والعادات والأخلاق .. !! ولأثرة السجون نفسها تتضمن اجراءات لمعاقبة المسجون اذا ارتكب خطأ أو امتنع عن العمل .. وليس بينها بالطبع قتل المسجون !!

وفي اللحظة الراهية دخل قائد السجن فاخرج مسدسه وأطلق منه رصاصة كانت هي اشارة البدء انفتحت بعدها فوهات الجحيم على الاخوان الذين اصابهم الذهول والهلع والفرع وصاح احدهم : لا تخافوا يا اخوان .. هذا فشك .. !! وقبل ان يكمل عبارته عاجلته رصاصة في راسه فارذته قتيلًا .. واخذ الاخوان يتساقطون .. ويتصايحون .. ويتدافعون نحو الزنازين للاحتماء بها .. ولكن الرصاص كان ينهمر عليهم كالمطر من النوافذ فيتساقطون بين قتيل وجريح .. وكان بعض الاخوان يوصدون الأبواب بظهورهم فتصدر التعليمات بصب النيران على الأبواب فيخترقها الرصاص فيصيب مقتلا ممن يقفون خلفها ، وكان بعض الضباط يضع فوهة الرشاش على ثقب « النضارة » الموجود بالباب ثم يفرغ خزانة الرشاش على من بالداخل .. وهناك تفاصيل يقشع لها البدن يرويها جابر رزق في كتابه التسجيلي عن المذبحة .

وبعد ساعة توقف اطلاق النار ، وغادرت فرقة الاعداء مبنى السجن ، ولكن عملية الابادة لم تتوقف فقد تقدمت فرقة اخرى من الاشواوس من حملة الشوم لتجهز على كل من يصادفها من الجرحى الذين تساقطوا في الممر وعجزوا عن الحركة ، ثم تقدمت فرقة ثالثة فاقتحمت الزنازين واخرجت منها الجرادل والأواني والقت بها في ساحة العنبر حتى يبدو الأمر أمام المحققين وكأنه حصاد معركة « أخوية » بين فصائل الاخوان ، ولما وضحت سداجة هذا

التفسير جاءوا برجال مباحث فى ثياب وكلاء نيابة وسجلوا أن
الاخوان كانوا يعتزمون الفتك بحرس السجن .. رغم عدم وجود
جريح واحد من السجناء .. وتقرر حفظ التحقيق وإسدال الستار
على المجزرة التى راح ضحيتها ٢١ شهيدا و٢٢ جريحا .. وفقد
بعضهم عقله من هول ما رأى ..
وفى اليوم التالى .. وتحت جناح الظلام كان هناك طابور حزين
يغادر مبنى ليমান طرة تحت حراسة مشددة من البوليس ، وكان
الطابور يضم ٢١ نعشا انطلقت بهم السيارات نحو جهات مختلفة
من مصر ودفنهم ليلا وكان شيئا لم يكن .

الفهرست

الرقم	الموضوع	الصفحة
	اهداء	٣
	تقديم	٥
	بين يدي القارئ	٧
١	عنزة السيدة نفيسة	١٣
٢	يا خفي اللطاف	١٦
٣	سنوات الحيرة	١٩
٤	نجم الزعامة المصرية	٢١
٥	مهرجان الدم	٢٤
٦	على موائد اللثام	٢٦
٧	عبد مأمور	٢٨
٨	سياسة بلا اخلاق	٣٠
٩	شارع سليمان باشا	٣٢
١٠	قتيل بنها العسل	٣٥
١١	الذبا السعيد	٣٧
١٢	حادث على النيل	٤٠
١٣	ثائر من الأزهر	٤٣
١٤	افراح الأنجال	٤٦
١٥	فرعون الصغير	٤٨
١٦	شيخ المنسر	٥٠
١٧	سقوط فرعون	٥٢
١٨	ذو الاصابيح القولاذية	٥٤
١٩	نوبار باشا	٥٦
٢٠	نيللى وتوابعها	٥٩
٢١	ميرابو .. مصر	٦٢
٢٢	مجزرة همجية	٦٥
٢٣	حرق الاسكندرية	٦٨
٢٤	الشهيد البريء	٧١
٢٥	أبوالدستور	٧٤
٢٦	قصة مزعومة	٧٧
٢٧	مسرحية متقنة	٧٩
٢٨	مذنب أم غير مذنب	٨٢
٢٩	امراء لكن شرفاء	٨٥
٣٠	كيرلس الخامس	٨٨
٣١	الكنيسة المصرية	٩٠
٣٢	اغاخان فى مصر	٩٢
٣٣	قاطع طريق	٩٥
٣٤	عابد البقرة	٩٨
٣٥	اولاد تيمور	١٠١
٣٦	العفريت	١٠٣

الرقم	الموضوع	الصفحة
٣٧	غرام الشيوخ	١٠٥
٣٨	عاشقان جريئان	١٠٨
٣٩	ابوخطوة يقلب المائدة	١١١
٤٠	إضراب القضاة	١١٤
٤١	نهاية الماساة	١١٧
٤٢	ادب البصل	١٢١
٤٣	سعد زغلول الافغانى	١٢٣
٤٤	بين ثورتين	١٢٦
٤٥	ثورة النساء	١٢٩
٤٦	شهيد اسيوط	١٣٢
٤٧	دولت فهمى	١٣٥
٤٨	نموت وتحيا مصر	١٣٨
٤٩	بنك مصر	١٤١
٥٠	سمنار المصرى	١٤٤
٥١	الوزارة الشعبية	١٤٧
٥٢	حزب العرش	١٥٠
٥٣	وفدية سعدية	١٥٣
٥٤	لطمه مملوكية	١٥٦
٥٥	نزاهة النحاس	١٥٩
٥٦	اليد الحديدية	١٦٢
٥٧	حادث سرقة	١٦٥
٥٨	امير فى المنفى	١٦٨
٥٩	بسراة	١٧١
٦٠	فى خندق الشعب	١٧٤
٦١	انقلابات دستورية	١٧٦
٦٢	أكبر راس فى البلاد	١٧٩
٦٣	البرلمان فى الاغلال	١٨٢
٦٤	مذبحة فى المنصورة	١٨٥
٦٥	مروءة نادرة	١٨٨
٦٦	المجاهد الزاهد	١٩١
٦٧	الصيف الساخن	١٩٤
٦٨	على رصيف بنى سويف	١٩٨
٦٩	اكذوبة رخيصة	٢٠٠
٧٠	صاحب المقام الرفيع	٢٠٢
٧١	النحاس اسيرا	٢٠٤
٧٢	رجل فلاح	٢٠٦
٧٣	محكمة الثورة	٢٠٨
٧٤	خصم وحكم	٢١٢
٧٥	مجزرة طرة	٢١٦

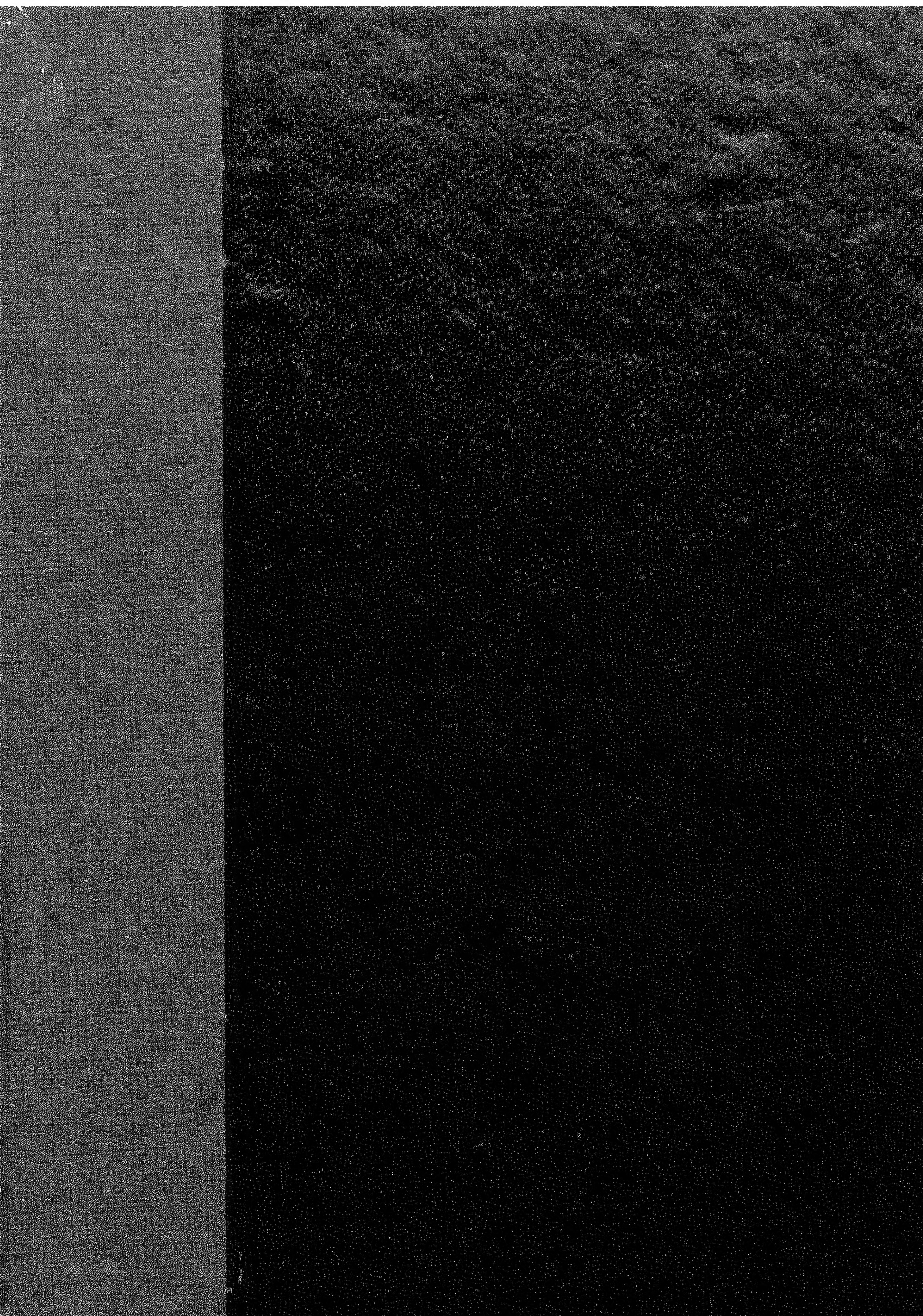


الكتاب .. والمؤلف

يعرض هذا الكتاب ٧٥ مشهدا من تاريخ مصر الحديث في أسلوب جذاب .. وتحليل شيق .. يرضى هواة القراءة العميقة والبحث الدقيق .. ويلقى الضوء على أحداث هامة وشخصيات مرموقة كان لها دورها في تاريخ مصر ،

والكتاب في مجمله يقدم ثقافة تاريخية لا غنى عنها للجيل الجديد .

والمؤلف هو الكاتب الصحفي جمال بدوى مدير تحرير (الوفد) الذى تخصص فى الدراسات التاريخية . وقد سبق أن قدم للمكتبة العربية كتاب (الفتنة الطائفية فى مصر جذورها وأسبابها) وكتاب (يوميات صائم) وكتاب (شهداء وضحايا من تاريخ الاسلام) فضلا عن العديد من البحوث الاسلامية والتاريخية المنشورة فى الصحف المصرية والعربية .



To: www.al-mostafa.com